- الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية.
- وزارة التعليم العالي والبحث العلمي.

جامعة تلمسان.
معهد الثقافة الشعبية.

حفريات الموت

- دراسة انثروبولوجية لظاهرة الموت في منطقة سعيدة.

رسالة ماجستير من انجاز
السيد: قدوري عبد الكريم.
تحت إشراف الأستاذ:
علوي العدن

- السنة الجامعية 95/94.

ـــ تـشـكـــراتـــي ـــ

الـــى :

- ام ولـدي التي تعبت معي و سـاندتني ماديا و معنويـا لاجل انجـاز هـذا البحث.
- الى استـاذي المحـترم السيد : علوبي أحـمـد الذي كـان لي بمثابة السراج المنير في الـدرب المظلم الشـائك الا وهـو البـحـث العلـمي .
- الى الزمـلاء و الاصـدقـاء الذين ساهـمـوا مـن بعيد او قريب في انجـاز هـذه الرسـالـة .

MAG 59/04

- الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية.
- وزارة التعليم العالي والبحث العلمي.

- جامعة تلمسان.
- معهد الثقافة الشعبية.

سجل تحت رقم: 373/413
تاريخ
الرقم
8 4 فيفري 2013

حفريات الموت

- دراسة انثروبولوجية لظاهرة الموت في منطقة سعيدة.

جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان - كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية

- رسالة ماجستير من انجاز
السيد: قدوري عبد الكريم.
- تحت إشراف الأستاذ:
د. علوي احمد.

- السنة الجامعية 94/95.

مقدمة عامة

أ ٠ طرح المشكلة

موضوع الموت مركزي في حياة البشر ، بما انه المصير الاخير لكل نفس حية ، ان الموت من حيث انه نهاية الانسان الانسان بمسار وسياق الحياة يشكل هما لا هروب من الاهتمام به يوميا ، ٠ فالخوف والهلع من الموت كفناء وضياع ، يدفعان الانسان الى الحياة بكل قوة فيتفنن في البناء والصناعة والفنون وكل انواع التسلية وهكذا يندفع في بناء الحضارة ٠ فتكون الحضارة ذاتها ـ بهذا المعنى ـ محاولة من الانسان للتغلب على الموت ، بنسيان جبروتها ، وتفادي الفزع الذي تسلطه عليه ، فاذا كانت وراء ظاهرة الحضارة الطامة الكبرى وهي الموت ، فلا مانع اذن من التمعن فيها لفهم ظاهرة الحضارة ذاتها ، لان برأينا لم تطرق هذه الاخيرة الا من خلال الحياة الاجتماعية والاقتصادية بينما يتطلب فهم الحضارة في كليتها وديناميتها البحث عنها في انثروبولوجيا الانسان ، في عمق مكانه في هذا العالم وموقفه من الحياة والموت ، هذا الموقف الذي يترجم طبيعة ازمة الانسان وفهم مشكلاته ٠٠

اذن ، فانتاج خطاب حول الموت ليس حتما ظاهرة شاذة او مرضية بقدر ما هي ارادة في موضعة هذه الظاهرة والبحث في سلوك الانسان تجاهها ، اي مصيره ما بعد الحياة ٠ لكن الباحث لا يتناول الموت وماهيتها كظاهرة خاضعة للتجربة ـ وان كانت قابلة للتجريب من قبل عالم الطبيعة كظاهرة طبيعية ـ فهي بالنسبة للباحث الاجتماعي والانثروبولوجي والفيلسوف تمثل نهاية وسائل تجريبها ومعرفتها انها واقع ميتاتجريبي على راي " فلاديمير يانكليفيتش " في كتابه " الموت " ٠ فهي واقع لا تدركه حواس الباحث ولا الانسان الذي تصيبه ، لانها جوهريا نفي لكل اداة عارفة مجربة ٠ فما يبقى في متناول الباحث سوى العنصر المرئي والقابل للملاحظة وهو سلوك الانسان امام الموت ، وهنا نستطيع التكلم عن علم اجتماع الموت ، او انثروبولوجيا الموت ويعني البحث في موقف الاحياء من الموت ٠

وعموما يعتبر اي انتاج لخطاب علمي حول الموت ، اتجاها نحو محاربة وجهها المرعب ، وسطوتها الجبارة ومحاولة لتقزيمها بتحويلها الى مفاهيم او تكميمها كاي موضوع قابل للبحث والقياس " (١) ، وقد كان الغرب سباقا في بحث علاقة الموت بالمجتمع ، حيث تزامن هذا الاهتمام مع تصاعد الحروب التي افرزها المجتمع الحديث مع مطلع القرن العشرين ، والمشاكل الاجتماعية التي خلقها المجتمع الصناعي الفردي بتصاعد موجات الانتحار والقلق الاجتماعي .

وابرز دراسة في هذا الميدان هي تلك التي قام بها عالم الاجتماع الفرنسي " دوركايم " والتي ضمنها كتابا اشتهر به كنموذج لدراسة ميدانية في علم الاجتماع ، تحت عنوان "الانتحار بحث فيه الاسباب الاجتماعية المؤدية الى الانتحار الذي اصبح ظاهرة المجتمع العصري . وهكذا بدأت ظاهرة الموت تغزو مجال الفلسفة ، علم النفس ، والانثروبولوجيا ، فاصبح الموت هاجس الفلاسفة الوجوديين وخاصة بعد الحرب العالمية الاولى وكذا الثانية ، وبروز شبح الموت في كتابات "سارتر" و " هايدغر" .

كما يمكننا ان نشير الى الدراسة الفلسفية القيمة لـ " فلاديمير يانكيليفش " التي ذكرنا سابقا . واحتلت ظاهرة الموت هذه المكانة لدى الوجوديين لانها مركز اهتمام الانسان عامة حيث ان الموت وحتميتها تطرح سؤال الحياة ؟ لماذا الحياة ؟ ، واي معنى تحمله ؟ ..

وقلق الغرب ازاء الموت ادى به الى البحث في موقف غريمه من الموت خاصة الحضارة الغربية ودرس مجابهته لها ديانة ، معتقدات وطقوس لمعرفة موقف الموقف الملتزم للانسان الغربي تجاه مصيره واثناء ترحالهم في الادغال والصحاري والبلدان البعيدة واطلاعهم على شعوب وامم عديدة بثقافاتها المتنوعة اعطى الاثنوغرافيون وعلماء الانثروبولوجية قسطا وافرا من المعلومات التي سجلوها عن طرق معاملة ما يسمى بالبدائيين لموتاهم واساليب مجابهة هؤلاء لمصيبة الموت . نذكر على سبيل المثال " الغصن الذهبي " لفريزر ، وتحاليل " موس في بعض نصوصه لطقوس الموت (٢) كما قام عدد لا باس به من الانثروبولوجيين بدراسة منهجية لظاهرة الموت في المجتمعات غير الاروبية .

١- Louis vincent Thomas, Mort et Pouvoir, PUF, Paris 1978, P 09

٢- Cf. Jean Cazeneuve, Sociologie de Marcel Mauss, PUF, Paris, 1968 et Marcel Mauss, Sociologie et anthropologie, PUF, Paris, 1968

وتتمثل اكبر الدراسات المتخصصة في اعمال " ادغار مورين " نذكر منها " الانسان والموت " ، " الاحياء والموت " ، وتبقى دراسات " الوي . ف . طوما " رائدة في هذا المجال ونذكر له " انثروبولوجيا الموت " ، " الجثة من البيولوجيا الى الانثروبولوجيا " ، و " الموت والسلطة " وهناك دراسات انثروبولوجية عديدة تطرقت على الاقل ، في احد فصولها الى ظاهرة الموت ، نذكر على سبيل المثال دراسة " جان سرفيي " حول المجتمع الجزائري عنوانها " ابواب السماء " ، كما درس " هنري لاهوت " المجتمع التارقي مشيرا الى معاملة التوارق لموتاهم . وهناك دراسات ومقالات نشرت في المجلة الافريقية لمست مباشرة او بصفة غير مباشرة لمعاملة الجزائري لموتاه وربما نجهل ما يخص منطقة من المناطق البلاد من دراسات في هذا المجال فحسب ، بل يظل خارج علمنا وجود دراسة مفصلة حول الموضوع بكل جوانبه وخاصة من داخل الثقافة العربية الاسلامية اللهم الا ما جاء به القرآن والسنة ودراسة الفقهاء وموقفهم على ضوء الاسلام من مسالة الموت في المجتمع الاسلامي .

صحيح اننا نسجل في الستينات ظهور دراسة قام بها الباحث المصري السيد "عويس" والتي عنونها "عظماء المعدمين" بحث فيها موقف المثقفين المصريين من الموت ، وهي دراسة نعتبرها رائدة في العالم العربي ، ولكن تبقى الدراسات الانثروبولوجية حول ظاهرة الموت في المجتمع ذي الثقافة الاسلامية غائبة تماما وربما يعود ذلك لعدم نضج الدراسة الانثروبولوجية في العالم العربي ، والتي ان وجدت فانها لا ترقى الى مستوى التنظير والتحليل المعمق ، بل واكثر من ذلك ان عدم تطور الدراسة الاجتماعية للظواهر المرتبطة بالدين في العالم العربي ، يعود اساسا الى الرقابة المفروضة حتى تخترق محرمات المجتمع وفي مقدمتها ظاهرة الدين واذن فارتباط ظاهرة الموت بالدين يجعل المهتمين بالموضوع يتحاشونه او يعاملونه بالحذر .

لذلك فكرنا ، في اطار الماجستير في الثقافة الشعبية ، في القيام بدراسة انثروبولوجية شاملة حول موضوع الموت في المجتمع الجزائري ، لمعرفة نظرة الانسان الجزائري الى ذاته كفرد اجتماعي والى حياته وموته عنصران يؤسسان وجوده لان نظرة الانسان الى الموت

.. تترجم ، في الواقع ،نظرته الى الحياة ، والى ذاته ، عبر الطقوس ، والممارسات المختلفة ازاء الموت والاموات ..

واختيارنا لهذا الموضوع وجد اهم حوافزه في وضع اجتماعي ،اقتصادي ،وتاريخي يعيشه المجتمع الجزائري . وأهم حدث طبع هذا الوضع هو الاضطرابات الدامية لسنة ثمان وثمانين وتسعمائة والف ، هذه الاضطرابات التي اشعلتها ظروف اجتماعية صعبة عاشتها الفئات المحرومة في المجتمع ، ظروف لم تتحسن لحد الان ، وخاصة منها فئات الشباب المحروم من الخيرات المادية للمجتمع ، والذي يعيش بؤسا روحيا مدمرا ،واقصاء نهائيا من دوائر القرار السياسي ..

هذه الفئات الشابة التي القت بنفسها امام رصاص قوات الامن تحديا للموت بكل شجاعة . شجاعة الرفض والتمرد . التمرد على نظام أدمج خطاب الحياة والامل طيلة عشريات ثلاث في ممارسته ارتكز على عقيدة مناضلة ضد الاستعمار وكل مظاهر الفقر والبؤس التي انجرت عنه . وقدم نفسه كنقيض له عبر ايديولوجية تنموية تعد كل الناس بالسعادة ورغد الحياة ، وماهو يفشل وعوض تقسيم الخبز اصبح يقذف الشعب بالرصاص . بالموت . واصبحت عند ذلك الاموات التي سقطت في الشوارع مفتاحا او بالاحرى ذريعة لوضع اسس حل سياسي مثل ما كان عليه الحال ابان حرب التحرير حيث هكل الاموات الذين سقطوا في ميدان المعركة مفتاحا لوضع سياسي وتاريخي جديد وهو استقلال الجزائر ..

ولازالت ارواح اولئك الاموات تجثم على عاتق الاحياء ، فالسلطة تستعملهم كذريعة لكسب شرعية تاريخية اندثرت ، ويستعملهم الشعب كذريعة ، كشرعية لمطالب اجتماعية وسياسية ، ونفس الملاحظة تنصب على اموات اكتوبر عام ثمانية وثمانين حيث استعملوا كذريعة لكسب شرعية ديمقراطية من لدن القوى السياسية المتواجدة في المجتمع ..

وهذه ظاهرة تاريخية تسم كل المجتمعات ، فلكسب حق اجتماعي في ظروف نظام عمولي ، يجب التضحية بالحياة ليعيش الاحياء حياة اكثر تحررا ، والمجتمع الجزائ تغلب على تاريخيه هذه الظاهرة ،كمجتمع ذي ماض حافل بالحروب ضد الغزاة الاجانب ،كان يستعمل التضحية بالحياة كحجة لتاكيد ارادته في القوة ، بل واكثر من ذلك ، فان التصدع في المجتمع الجزائري المعاصر ، كضعف مؤسسات الدولة ،والانهيار الاقتصادي - ولد العنف ،والموت اليومي ، حتى اصبح الموت

او القتل ظاهرة عادية تنبيء بازمة حياة خطيرة وعميقة ، وهذا الوضع الذي امتزجت فيه كل المؤشرات المؤدية الى عنف موسع ، جعلنا نفكر في رؤية الانسان الجزائري للحياة والموت وبحث كيفية التعامل معهما ، والسبب الثاني الذي دفعنا الى اختيار هذا الموضوع هو سبب علمي بحت بحيث انه كان بامكاننا اختيار اي موضوع اخر في نطاق بحث انتروبولوجي في الثقافة الشعبية حول الخزف ، الزرابي ، الرقص والاعراس ، الا اننا في سبيل معرفة ما هية الثقافة الشعبية وتحديدها كموضوع دراسة علمية وجب علينا تقصي الظاهرة الاكثر انسانية في المجتمع الملتصقة مباشرة بوجدان الانسان وهاجسه النفسي الذي يناضل دوما من اجل ابعاده ونسيانه الا وهو الموت .

فرأينا ان هذا الهاجس اليومي وما تولد عنه من ممارسات ، كفيل باعطائنا نظرة حول سيرورة تكوّن الظاهرة الثقافية الشعبية ، والتي نعتبرها ظاهرة تستدعي كل الحرارة والطاقة الوجدانيتين لان الموت يحيلنا الى واقع المسألة كيف نتصرف بهذه الحياة ؟ وكيف نسير مصائرنا ؟ وهذين السؤالين يجدان جوابهما في طرق التنظيم الاجتماعي ، لان قيمة الحياة لا تتجلى الا من خلال طبيعة التشكيلة الاجتماعية المعطاة تاريخيا .

اذن فالموت يحفز بطريقة مباشرة الفعل الاجتماعي ، اي صنع الحضارة وصنع التاريخ ، اللتين هما الدخول في معترك الحياة لنسيان الموت وابعاده . لكن الموت عند حدوثه يخرق النسيان الذي يحاصره مما دفع بالانسان لتجاوز مصيبته الى الاعتقاد بمجموعة من الطقوس والمعتقدات . ونعتبر هذه الطقوس والمعتقدات اكثر اصالة من كل المعتقدات الاخرى والتي تتعلق بظواهر الحياة الاخرى كالزواج ، الختان ، وغيرها ، لان هذه الطقوس والمظاهر الثقافية المشار اليها لم تخلق مع الانسان ، فالانسان لم يعرف الزواج دوما مثلا اذ ان هذه المؤسسة لم تظهر الا في زمن متاخر جدا من عمر الانسانية ، ونفس الشيء ينطبق على مظاهر الفنون كالنحت ، الخزف والرسم ، بينما المظاهر الثقافية التي ارتبطت بالموت ، ظهرت مع فجر الانسانية وعلى اثر ذلك فكرنا في ان دراسة المظاهر الثقافية المرتبطة بالموت ، هي اكثر خصوبة لتبيان مختلف الاشكال التي اتخذتها هذه الممارسات عبر التاريخ .

وباختصار ، هي الدراسة الوحيدة القادرة على تبيان العناصر المكونة لهوية المجتمع ، من حيث انها تقوم بدرس تاريخه الثقافي . وقبل الدخول في تفاصيل ما انف ذكره حول علاقة الموت بالحضارة وما الى ذلك ، يجدر بنا ذكر مسالة اساسية وهي كيف تنتقل من الظاهرة البيولوجية الى الظاهرة الاجتماعية فيما يخص الموت .

فالموت اولا وقبل كل شيء ظاهرة بيولوجية ، تتمثل في انقطاع العضوية الحية عن الاشتغال ، وتمس بذلك جميع الكائنات الحية ، وجميع الكائنات الحية باستثناء الانسان تتلقى الموت دون اكتراث منها ، فالموت بالنسبة للعالم الحيواني والنباتي ضرورة بيولوجية تدخل في حفظ التوازن الطبيعي . وهذه الكائنات الحية ـ بحكم انلها خاضعة لضرورة الطبيعة وحتميتها ـ لاتجد نفسها في حاجة الى موت اشكالي من حيث انها عناصر طبيعية عمياء تفعل فيها قوانين الطبيعة من موقع القوة .

لكن الانسان ـ وعكس باقي كل الكائنات الحية الاخرى ـ عوض ان يكون عنصرا اعمى يتلقى الموت متخاذلا مستسلما لقوى الطبيعة العمياء رغم كونه كائنا بيولوجيا يتعرض للفناء فانه يرفض هذه الحتمية ، لانه الوحيد الذي يملك وعيا ، وملكات عضوية كوجود اليدين المهيئتين للصناعة والتحويل . اذ بواسطة هذه الوسائل يعي الانسان امكانياته امام الطبيعة . وهي نفس الاوان ما تفعل فيه الطبيعة وما يتلقاه منها من تحديات مرتبطة بالظواهر التي تولدها ، ومن بين هذه الظواهر حياته وموته . فهو ان قبل الحياة كحتمة طبيعية ، فانه في نفس الوقت يرفض نهايتها ، اي الموت التي ما هي الا سيرورة طبيعية كما اسلفنا .

وفي علاقته الدينامية بالعالم والطبيعة والمجتمع ، ووعيا منه بالانتصارات المستمرة على الطبيعة لتسهيل حياته والفوز بسعادة اكبر ، رفض الانسان منذ فجر وجوده الفناء كحتمية واندفع على اثر ذلك بكل قواه الى الحضارة الى الحياة يبنيها وهو يعيشها كما يريد هو وليس كما تريد الطبيعة مثلما هو عليه الحال بالنسبة للحيوان .

ويندفع بكل ملكاته في سبيل صنع الحضارة ليس عبثا ، بل كمسار حتمي بين الحياة والموت . فقد اختار الانسان صنع الحضارة لاعطاء مضمون وجودي لحياته ، هذا المضمون الذي يتجسد في التاريخ والمجتمع . فالحياة تاخذ اشكالا وانماطا من مجتمع لاخر والتشكيلة الاجتماعية المعطاة تاريخيا هي التي تحدد اشكال الحياة وطرق العيش وطبيعة الفرد المندمج في مؤسسات المجتمع . لذا تنطبع الحضارة باندماج جنوني للانسان في الانتاج الاقتصادي والتفنن في صنع الوسائل التي تبعد عنه التفكير في طبيعته الفانية من الاشياء الضرورية للحياة الى وسائل التسلية المبعدة لشبح الموت ، والدخول في علاقات اجتماعية حميمية وحارة . بعيدا عن العزلة لان التوحد يحضر الموت عاريا امام الفرد . ونحن نعرف ان الحياة عند الانسان ، اقترنت بالعيش الجماعي ، والاندماج الضروري في علاقات اجتماعية .

وتعتبر الحضارة بهذا المفهوم ظاهرة اعتراض للموت ، من حيث انها المضمون الموضوعي والملموس للحياة ، ولكن رغم انغماس الانسان في موضوعات انتاجها لنسيان الموت في اطار الحضارة الا ان القوة الخفية للموت لازالت تعمل عملها تماشيا مع سيرورة الطبيعة ، اذن على الانسان ان يهلك كعضوية ، وهذا ضروري حتمي . وها هو الموت يضرب كل مرة وبشتى الطرق يتظاهر للناس مذكرا اياهم بمدى هشاشة مشاريعهم .

وعند ذلك يقوم الانسان لحماية كبريائه ، وحفظ توازنه للاحتفاظ بمشروعه الذي هو الحياة بتجنيد خياله وفكره لبناء سد بينه وبين الموت لكسر جبروته لالتوقيفه ماديا ، وان كان يحلم بذلك دوما بل لابعاد اثره المدمر على حياته نفسيا واجتماعيا ، فيكسرها في الخيال حيث يؤمن لنفسه عالما غير عالمه الواقعي يقضي فيه خلوده ، ينزل من اعالي الحياة الى عراك لانهاية له مع الموت ينسى الحياة والحضارة ليحاكيه ويتعامل معه . يخترع عالما اخر لخلود في شكل اخر كابداع قرين بحيا بعد موته " قرين يشكل وسيلة للدفاع ضد الموت وفي نفس الوقت يضمن التحكم فيها " (١) .

ويعتبر الايمان بحياة خالدة بعد الممات اعتقادا كونيا في جميع ثقافات البشر ويترجم هذا الاعتقاد ضرورة وجود وسيلة لدى الانسان تطمئنه من خوف العدمية والفناء الذي لا مفر منهما .

" لان وعي الموت لايحتوي ابدا عنصر تجاوز الموت " (٢) .

١- J.B. Pontalis, Après Freud, Gallimard, Paris, 1968 P. 345

٢- Ibid, P 351

في الواقع فوجب اذن التعامل معها على مستوى الخيال . فالانسان الذي عجز عن الخلود في الحياة راح يؤمن بعالم اخر يتمكن فيه من عيش حياة خالدة بين الاجداد كما هو الحال في المعتقدات الافريقية الاقيانية والاسترالية وغيرها . والعيش اما في الجنة او النار بالنسبة للديانات الكتابية الكبرى كما تصور هذه الحياة في شكل قرين ينوب عنه عندما يفنى جسده بعد الموت ، هذا القرين الذي يمثل النسخة الاصل المطابقة للانسان او الشخص والروح كما هو الحال بالنسبة للديانات الكتابية .

وانطلاقا من هذا المعتقد الرئيسي حول الحياة الخالدة ، نسجت ممارسات يندهش لها المرء عند ملاحظتها في تشابهها من مجتمع لاخر . مجتمعات متباعدة يصعب تسجيل البرهنة على تواصلها ، نظرا للتباعد الجغرافي والتاريخي بينها هذا التشابه الذي نلحظه في التعامل مع الجثة دفن ، حرق ، تدخين وتجفيف كذلك معتقدات حول روح الميت الشريرة وضرورة تفادي شرها المنتقم تجاه الاحياء . كل هذه الممارسات والمعتقدات تتظاهر رمزيا عبر سلوكات طقوسية وتقدس بعض الاشياء في الرمزية المتعلقة بالحياة والموت ، كبيرة وشاسعة في كل ثقافات العالم والشيء الذي يسمها هو طابعها الكوني اما في تشابهات صارخة معطاة عينيا او عبر بنيات خفية تعبر عن انتظامات يصل اليها الباحث عبر الدراسة .

ووراء تنوع هذه الممارسات المعتقدات الصور والرموز استخلص عالم الاجتماع الفرنسي "ادغار مورين" بنيتين رئيسيتين تنتظم حولهما هذه المعتقدات والممارسات الطقوسية في العالم وهما الموت / ميلاد جديد ، والانسان وقرينه هاتين البنيتين في كونيتهما تشحنان بشتى الثقافات الخصوصية لكل المجتمع وتاخذ مضامين واشكالا بفعل التاريخ وتفاعل الثقافات فيما بينها .

الا ان الدراسات الانتروبولوجية في تحليلها للطقوس والمعتقدات المتعلقة بالموت / ـ وان اهتمت بكل ثقافات العالم ـ الا انها لم تطرق بما يستحق الذكر طقوس ومعتقدات المجتمع المطبوع بالثقافة الاسلامية فالمجتمع الاسلامي انتج خطابا ايديولوجيا مكرسا للخصوصية ، خصوصية الدين الاسلامي في تصوره للعالم طبيعة ومجتمعا للموت والحياة كدين جديد ناف لكل ما سبقه من ديانات كتابية او وثنية جاء ليقضي عليها وعلى طقوسها .

والمجتمع الجزائري استقبل الاسلام منذ اكثر من ثلاثة عشر قرنا فوجد قوما يعيشون في هذه الارض منذ الاف السنين قبله ، وكان هؤلاء القوم وهم البربر يكونون مجتمعا وامة ذات ثقافة عريقة ، مجتمع له تصور للحياة والموت ومعتقدات يستمدها منذ فجر التاريخ . ولم تبق هذه التصورات جامدة بل تفاعلت مع التغيرات التاريخية والتواصل الحضاري مع الثقافات المجاورة ، دون ان تتنازل عن العناصر الاصيلة التي تكونها ، وهكذا انتهى الحاضر الثقافي في المجتمع الجزائري الى فسيفساء من الممارسات الثقافية والمعتقدات الخاصة بالموت تختلط فيها مفاهيم وصور من الديانة الرسمية وهي الاسلام بما فيها مفاهيم وتصورات غريبة كل الغرابة عن هذه الديانة ان لم نقل متناقضة معها . فهي تتعايش منها احيانا لدرجة التبني والامتزاج المتجانس والمتناغم وتارة يشتد الصراع بينهما الى درجة التناحر .

ان التجارب التاريخية للمجتمعات تبين ان اي مجتمع يقع تحت وطأة حضارة اخرى مهما كانت درجتها في العظمة ، فانها لا تمسح ثقافته او تمحي بل ان هذا المجتمع يتعامل مع الثقافة الجديدة يتبناها كلها او بعضا منها ليمزجها بتراثه الثقافي فاما ان تنتج ممارسات جديدة جراء اختلاط الثقافتين او تتبنى شريحة معينة من المجتمع المستقبل لهذه الثقافة وتصبح تمثل وجها من اوجه هويتها ويحدث ان تفرض هذه الشريحة ما تحمله من الثقافة الجديدة على الشرائح الاخرى التي رفضت الثقافة الواردة او بعضا منها . وكل هذا ينطبق على التراث الثقافي المرتبط بالموت ، في اي مجتمع من المجتمعات ، والمجتمع الجزائري مثال لذلك (*) .

فلمعرفة طبيعة هذه الممارسات والمعتقدات وجب علينا تحليلها في كل تفاصيلها ومراعاة ما هو كوني من عناصرها وما هو خصوصي متعلق بالمجتمع الجزائري . وكذلك تحليل طبيعة العلاقة بين ديانة رسمية تفرض طقوسها ومعتقداتها عبر قنوات السلطة والخطاب السياسي ، المدرسة ، وسائل الاعلام ، وممارسات طقسية من جهة ومعتقدات حول الموت تحملها الذاكرة الشعبية بكل تفاصيلها من جهة اخرى . ويدعي بعض الايديولوجيين ان الثقافة الاسلامية — وحدها دون غيرها — في تصورها للعالم والانسان تؤمن للانسان النجاة من قلق الموت ذلك لان الاسلام لا يعتبر الموت سوى جسر يعبره الانسان للالتحاق بعالم الله ، عالم الخلود وبالتالي فان الانسان بايمانه يصل الى الخلاص ويتحدى الموت وانتظاره في اي لحظة ، دون خوف او فزع .

١ـ ديندكل ميتشل معجم علم الاجتماع ، ترجمة احسان محمد الحسن ط٢ دار الطليعة بيروت ١٩٨٦ ص ٢١٣ . انظر كذلك

WADI BOUZAR, LACULTURE KABYLE EN QUESTION, ENAL ALGER, 1984 P 89 à 98

هذا صحيح فكل المجتمعات القديمة والبدائية منها كانت تضمن ولا زالت حماية للفرد ضد فزع الموت ،لان هذا الاخير مرتبط بمفهوم الفرد . فمتى تكرست الفردية في المجتمع تزداد مجابهة الانسان لموته في وحدته وعزلته ،بينما المجتمعات المسماة بالتقليدية فلا يعيش الفرد فيها الا للجماعة ،وعندئذ تتم مجابهة مصاعب الحياة وحتمية الموت دون استيلاب ولاقلق .

" فاذا قضى الفرد نحبه فان الجماعة التي لايشكل الا عنصرا منها متواصلا عبر اجيال عديدة تبقى عليه حيا بما اعطاه لها والتي تبقى بدورها مستمرة" (١)

فالمجموع والعقيدة الجماعية التي تسم المجتمعات التقليدية والتي تاخذ في الغالب طابع الايديولوجية الدينية ،توفر حماية للافراد ضد قلق الاستيلاب التولده الموت حيث توفر الجماعة راسمال رمزي كافي لردع فزع الموت وصده .

ولنا ان نتساءل فيما اذا كان للعصرنة المستوردة والمكرسة للفردانية والعقلنة المفرطة النافية للرمز والاسطورة وبالتالي المجازمة الانسان امام حتمية فنائه تاثير على المجتمعات التقليديه ومنها المجتمع الاسلامي. اليس لهذا التاثير الدوائي يد في بروز اشكال من المقاومة العنيفة للثقافات الاخرى وخاصة تلك المقاومة الشرسة للمجتمعات الاسلامية

كل هذه الاسئلة سنحاول الاجابة عنها في الصفحات الموالية، وذلك بطرح فرضيتين اساسيتين وهما :

ا ـ ان الطقوس والمعتقدات المتعلقة بالموت في المجتمع الجزائري كونية تشترك مع كل المجتمعات الانسانية .

ب ـ ان الطقوس والمعتقدات المتعلقة بالموت في المجتمع الجزائري تمتد في عمق التاريخ الثقافي للجزائر ،تفاعلت مع كل الثقافات التي دخلت الى المجتمع ،وخاصة الثقافة الاسلامية التي اتت بتصور جديد للحياة والموت ،للفرد و المجتمع ،وقد تفاعلت بعض هذه التصورات والممارسات المحلية او تنافرت معها من موقع رسمي ،اذ لازالت الديانة الرسمية تحاول فرض طقوسها وتصورها للموت ،وبقيت هذه الممارسات القبا سلامية حية لم تمسها تصورات الدين الرسمي وشعائره .فلتوصل الى اجابة على هاتين المسالتين اوجب علينا الاستعانة بعدة وسائل معرفية و منهجية في حقل العلوم الاجتماعية لتاسيس مسائلة انثروبولوجية للواقع الذي قمنا بحصره .

١- Louis Vincent Thomas, Mort et pouvoir op.cit. P 74-75

فلا يمكن الوصول الى الى انتاج معرفة شمولية حول الرصيد الثقافي الذي خلفه الانسان الجزائري ازاء الموت ، الا بتناول هذا التراث التراث الثقافي من التاريخية الاقتصادية ، الاجتماعية والنفسية . فمن الوجهة التاريخية لا يمكننا معرفة حاضر هذه الممارسات و المعتقدات الا من حيث اعتبارها نتاجا لسيرورة تاريخية طويلة من التفاعلات مع مختلف الحضارات التي دخلت المغرب العربي عامة والجزائر بصفة خاصة هذا من جهة ، ومن جهة اخرى ، لا يمكننا فهم علاقة هذا التراث الجنائزي بالجهاز المعتقدي والطقوسي للدين الرسمي ، الا من خلال معرفة ما كانت عليه هذه الممارسات والمعتقدات قبل الاسلام ، ثم تحليل اثار هذه الاخيرة عليها .

ويتم ذلك بالاطلاع على الممارسات الضاربة في التاريخ والتي اخرجها الى سطح المعرفة المختصون في ما قبل التاريخ والتاريخ القديم للانسانية عامة والجزائر بصفة خاصة ، بالاضافة الى مكتشفات علماء الاثار من قبور و مقابر وبنايات مرتبطة بالموت ، وفي نفس الوقت الحفر في التمثلات والرموز لدى معظم الشعوب ومراعات كيفية ارتباط هذه التمثلات بالموت ايكالا ووظائف ، كذلك الكيفيات التي يربطها العقل البشري هذه التصورات بها جر يسكنه الا هو هاجس الموت . ولا نقف عند ذلك بل نقوم بمقارنة بين الصور والمعتقدات الجنائزية المحلية وقرينتها في المجتمعات والثقافات الاخرى ومحاولة قراءة الاختلافات والتشابهات بينها للبحث عن خصوصيتها او كونيتها .

ولتحليل ازمة الموت والحياة واغتراب الانسان ازاءهما سنستعمل مفاهيم علم الاجتماع الاساسية ، بحثا عن مكانة الموت في كلتا الحضارتين : الاسلام و الغرب . وبما ان الموضوع يستدعي الاستعانة بمفاهيم التحليل النفسي و التي عرفت بمضامين تاريخية واجتماعية عبر اجتهادات كل من هربرت ماركوز و فيلهالم رايش بمحاولتهما تزويج المادية الجدلية بالتحليل النفسي درسا لموقف الانسان من الموت والحياة عبر الممارسات الاجتماعية والايديولوجية من خلال تحرير الكبت الذي يمارسه المجتمع لتسيير حياة البشر : السلطة والمؤسسات التي تمارسها ، الاقتصاد وما ينجر عنه من تقييد

او تحرير لطاقات الانسان في تطلعه الى حياة اكثر سهولة واقل معاناة.

لقد سعينا بكل هذه الادوات المفهومية النظرية والمنهجية لتكريس الفكرة الرئيسية في الانثروبولوجيا و هي وحدة الانسان . كما ان البحث العلمي لاينطلق الا من نماذج تطبق على الواقع لرؤية مدى صلاحيتها في فهمه ،و كذلك المساعدة على فهم هذا الواقع و في اطار هذا البحث ،انطلقنا من نموذج نظري ومنهجي عام فيما يخص موقف الانسان من الموت هذا النموذج الكوني يجد تعبيره في بنيتين كونيتين قد ذكرناهما من قبل وهما : الموت/ ولادة جديدة والانسان / وقرينه .

بنيتان تركيبيتان استخلصهما اذغار مورين في دراسته المرجعية " الانسان والموت" واعتبرتهاتان البنيتان مرجعا في الدراسات الخاصة بانثروبولوجيا الموت ، حيث نبحث عن هذه البنيات وراء الاوجه المختلفة التي تشكل موضوع بحثنا : رموزا - اناشيد - ممارسات طقسية ومعالم معمارية : قبور ومعابد ..الخ

كما اننا في تحليلنا الاجتماعي لاصل ازمة الموت نحاول انطلاقا من البنى التي ذكرنا ، ان نحلل سلوك المؤسسات والافراد في صراعها من اجل الحياة وتثمينها..

ولم ننطلق في هذا البحث من رؤى قبلية وخلفيات نظرية جامدة بل حاولنا تجنيد كل الوسائل المنهجية لفهم طبيعة اوجه السلوك الانساني ازاء الموت وتظاهرها حيث ننطلق من تحليل بنيتها واظهار عناصرها ثم نقحمها في التاريخ والمجتمع لنراقب التغيرات التي تطرأ على مضامينها ..

وللقيام بذلك كان من الواجب علينا لجمع المعطيات الملموسة لتشكيل موضوع بحثنا ، والتعرف على كافة العناصر التي تؤسسه ، وكان علينا القيام بالخطوات التالية :

١) جمع النصوص الدينية والفلسفية التي تعتبر المرجع الاساسي للثقافة الاسلامية، بالاضافة الى الانجيل والتوراة .

٢) جمع معلومات انثروبو اثنوغرافية عن موقف الانسان من الموت لمختلف ثقافات الشعوب .

٣) الاطلاع على مراجع ذات طابع نظري في الانثروبولوجيا ، علم الاجتماع والتحليل النفسي.

٤) القيام بدراسة ميدانية حول موقف الانسان من الموت في منطقة سعيدة .

ب/ المسالة المنهجية :

لقد يئس الانسان من الخلود في الحياة وعجز عنه فراح يرسم عالما اخر يتمكن فيه من عيش حياة خالدة بين الاجداد كما هو الحال في المعتقدات الافريقية وشعوب اوقيانيا ، آسيا وامريكا ، وقرب الله في الجنة اوجهنم في الديانتين الكبريين الاسلام والمسيحية .

وكل هذه التصورات جاءت لتهدئ من روعه امام بشاعة الموت و الفزع الذي تبعثه في اناه المهزوم في فنائه . ولتعتيم صورة العدم الذي تمثله. فعسا هو جلجامش يبحث عن الخلود الميئوس منه لانسان اراد ان يحكم الارض والسماء بحثا عن الوهية لم يبلغها لانه مائت ولا خلود الالالهة و لايطمع في ذلك الا بعد موته و تحت ظل الاله او الاجداد . وغدا موضوع الخلود يشكل هما مركزيا في ثقافات الشعوب قاطبة . وينتظم هذا الموضوع في بنية كونية ثنائية الاقطاب : موت / خلود. ويذكر ادغار مورين في كتابه "الانسان و الموت" ان موضوع الموت والخلود يتجسد في اسطورتين اساسيتين : موت / ميلاد ثاني و "القرين" (١) والتي ماهي الا المرادف للبنية الثنائية التي ذكرنا اعلاه .

يقر علميا بهذه البنية ويعتبرها مسلمة علمية اشهر الانثروبولوجيين الذين انكبوا على ظاهرة بالدراسة نذكر منهم :ادغار مورين ذاته لوي ف- طوما جان زيغلر دون أفنسي ميشيل ليريس (٢) .

فادغار مورين وبعد عشرين سنة من ظهور الطبعة الثانية من الكتاب الذي ذكرناه له ،يكتب تقديما للطبعة الثانية سنة الف و تسع مائة و سبعين يشرح فيها منهجه المتبع ،حيث يعلق على الكيفية التي نشات فيها اسطورتا الموت / ميلاد جديد الانسان / القرين . اذ يرجع اصل النشاة الى سيرورة بيولوجية بمعنى ان الخيال يصنع هاتين الاسطورتين انطلاقا من سيرورات بيولوجية خفية ،وهاهو ذا يشرح هذه السيرورات ،فالاسطورتان تعتبران : " تحولات ،اسقاطات خيالية ذهنية لبنيات التكاثر بمعنى الكيفيات التي تبقى و تولد بها الحياة من جديد :الاستنساخ و الانجاب ،الموت/ ميلاد جديد ،هي صورة للدورة البيولوجية النباتية بالتاكيد ، ورغم ذلك فانها لا تعبر عن مشابهة بل "قانون" الدورة الحيوانية المطبوعة بالموت ،للافراد والتوالد المستمر للانواع

فالقرين ،يطابق - بصفة اكثر دقة - النمط الاساسي والكوني للتكاثر " يتكاثر الكرومزوم ،والحبيبية المهذبة فانه لاينقسم بل يبني نسخة مشابهة له ،انه ليس انقساما بل صنع نسخة مطابقة للاصل (....) لقد اطلق على هذه الظاهرة اسم الاستنساخ"

١- Edgar Morin, L'homme et La mort, ed. du seuil Paris, 1976, P. 21

٢- J.B. Pontalis, Apres Freud, op.cit, P. 345-347.

وكما سنرى فان القرين الذي تصنعه بصفة الية تحرية الانعكاس للمرآة ، للظل (القرين نتاج عفوي لوعي الذات) هو اسطورة كونيـة فلما لا يجب التفكير في ان هذه الاسطورة تترجم مبدأ بيو ـ وراثيـا بصفة خياليـة فكيف لا يجب التفكير في ان لحظـة الموت هي لحظة الاستلاب الخيالي " (١) .

يوضح هذا النص الموقف المنهجي لادغار مورين في ربطه الظاهرة الثقافية ـ انتاجات خيال بمناسبة الموت ـ بصيرورة بيولوجيـة . ونرى ان هذا الطرح ابعـد عن الواقع لانه يربط اسطورة الموت / ميلاد جديد ، والتي هي ظاهرة ثقافية مكتسبـة بصيرورات بيولوجيـة وراثيـة ، ويعني هذا ان هناك علاقة تواصل بين الظاهرة بمعنى ان صيرورات الفكر تجد قاعدتهـا في سيرورات بيولوجيـة مطابقة لها ، وهـذ ما نجده اعتباطا من وحي علم الخيال . فاذا كانت هذه السيرورات ملازمة للكائنـات الحية غير الناطقة فكيف انها تجد منفذا لها تؤثر به على قوى التفكير والعقل عنـد الانسان وهذا ما لا يجيب عنه المؤلف سوى انه يجري مشابهة او مقابلة تبدو من محـ الصدفة بين هذه الصيرورات البيولوجيـة والصيرورات العقليـة المرتبطة في جوهرهـا بقلق وجودي ينتاب الفرد الانساني دون غيره من الكائنات الحية الاخرى وبعيدا عـ قوانين بيولوجية عامة .

ثم انه ولكي يقيم هذه المشابهة والمطابقة بينهما يقدم على الفصل تعسفيـا بين موضوع موت / ميلاد جديد . والقرين ، وهما اصلا مندمجان في موضوعـة واسطورة كونية واحدة وهي موت / خلود . اذن فهذا الطرح كما نرى يفرغ هذه الاسطورة من اي مضمون وجودي للانسان ازاء الموت ويحبسها في تخمينات بعيدة عن البرهنة العلميـة مهملا البعد الوجودي الذي يجابه به الانا الفردي والانا الجمعي عالما يعمل علـى افنائه . ولارضائه قناعاتـه نجده يفرق بين الموضوعين اللذين ماهما في الحقيقـة الا وجهان لفكرة واحدة ، فالقرين هو وسيلة كونية بكل تاكيد لتحقيق الحياة في العالم الاخر، اي انها المضمون لبنية الموت / ميلاد جديد ، التي استعاضت الديانات الكتابي لاحقا بمفهوم الروح اللامائتـة .

ولتحقيق تلك القناعـة ، قام بفصل الموضوعين واضعا بينهما وبين صيرورات بيولوجية مشابهة حققتها الصدفة . اذ لا نرى علاقة بينهما وكان بالاحرى ان يلتجـي بمفهوم الوجود والعدم المرتبطين ليس بالحياة البيولوجيـة الحيوانية للانسان ولكن بالوعي والممارسة اللذين يحددان موقف الانسان من الموت (٢)

---

١ ـ Edgar Morin, op. cit, P.28

٢ ـ لان السيرورة البيولوجية هدفها حفظ النوع واستمراره اما البحث عن الخلود فهو نابـع من كون الانسان اجتماعي يحمل وعي فرديته فهو ينشد بالاضافة الى خلود النوع خلودا مرتبطا بوجوده كفرد اجتماعي فاعل .

وفي هذا السياق نعرض لرأي جان زيغلر حول المسالة ،اي جوهر اعتقاد الانسان في العالم الاخر . يرى زيغلر في الموت هاجسا وجوديا اساسيا وكموشر يعطي الحياة كل معناها .ولكنه السبب في القلق الذي ينتاب الفرد كلما تنبه لفنائه المحتوم فالوعي يرفض الموت براي زيغلر وان اعترف بفناء الجسد "ان الاحتضار هو في غالب الا الاحيان الصراع الشديد بين وعي يريد ان يستمر فيقف بكل عناد ضد كارثة الموت"(١). "وبعد هذه العتبة ،العدم يغمر الذات العارفة في كليتها "(٢) . ولكن لما يرفض الوعي الموت رغم ان الوعي تلك العملية المنتجة والمخزنة للصور والافكار والرموز تستند الى سيرورات سيكو-عصبية محوبة بسيرورات بيو-فيسيولوجية تستند اساسا الى الجسد ،هذا الكيان البيولوجي الذاهب الى الى الفناء .

ولكن الاشياء لاتحدث كما علمتنا التجربة وحسب ،بل ان " الجسد الذي يولد ،فينمو فيبلغ مداه الاقصى ثم يفنى وهذا لمدة سنوات طوال ،ولكن يعاكسه وعي يقوم على الوظائف الاساسية لتفسير ذاتي للانا و العالم فمصيره ليس مخالفا للجسد و حسب بل منقلبا تماما ،فبينما يبدأ التجدد في الخلايا منذ السن العشرين في الانتقاص التدريجي المفضي الي الى الكارثة النهائية فان الوعي في الوقت ذاته يشرع في التصاعد متعاليا "(٣). وانطلاقا من هذا يفسر كيف ان اناسا كلما تقدموا في السن ازدادوا حكمة وتبصرا واقتربوا من عالم الاجداد ،عالم الخلود " الوجود المزدوج اللامنتظر واللامتناظر لوعي مصيره الاستمرار و جسد فان يجد تجليات اجتماعية مختلفة اولها ايجابية الاموات "(٤) فالاشخاص يموتون و تبقى افكارهم موثرة في التاريخ والمجتمع ليتحقق عن طريق ذلك خلود الفرد ،خلود وعيه بعد فناء جسده .

اذا فالوعي يتحدد مضمونه بالمواضيع التي يعترف بها الخطاب التجريبي العقلاني ويسميها (مفاهيم ومصطلحات) حيث هناك ماهو واقع وراء المفاهيم ولم يحسم بعد "ان الوعي الانساني يحمل نواة لاشبيه لها في كل ماهو كائن من جهة وهي سابقة الوجود على كل ممارسة ادماجية" (٥) . انها نواة الوعي ،منبع لخيارات غير مجمعنة للفرد(٦) ،يسميها زيغلر بالانا الاخروي ،وهذا الانا ليس مجردا بل يحمل مضمونا تاريخيا واجتماعيا مرتبط مباشـــرة بالصراع الطبقي

١- J. Ziepler, Les vivants et la mort, ed. du seuil. Paris, 1978, P.269

٢- Ibid, P.270

٣- Ibidem.

٤- Ibidem.

٥- Ibid, P.276

٦- Ibidem

فهو يعني نواة المعرفة ، الشعور ، الاختيار ، والتي ما هي الا " رغبة حلم ، ارادة ، دون موضوع قابل للمعرفة " (١) ، ان هذا الانا هو عبارة عن مجموعة من المشاعر والاحلام ، وارادة لاتريد الفناء ، انها تتعدى فناء الجسد بحثا عن حياة خالدة ويعود زيغلر الى ارنست بلوك لتوضيح هذا المفهوم حيث يعتبره "كل شيء يجري على مستوى الوعي الفردي ، على مستوى الشخص (...) فالانسان هو الذي يريد لذاته اللاموت وليس فقط المجتمع الطوباوي الذي سينشأ عن نهاية العالم (...) سيحدث شبه انشطار نسوي للمجتمع ويسميه بلوك " نهاية العالم " الذي سيكون اخر مرحلة من الصيرورة المجتمعية للانسانية هذا الحدث ذاته الذي يسمح للانسان بعقد علاقات تقمص " (٢) . بمعنى ان الافراد بعد هذا الحدث والذي ماهو الا ثورة اجتماعية عالمية يتمحي فيها الفرد لصالح حياة جماعية ويصبح الوعي انذاك ليس وعي الفرد ، الشخص بل وعي النوع ، هذا الوعي يصبح العنصر المشكل للانسان الثاني المستقبلي .

ان هذا الوضع المستقبلي يوجد على شكل مطلب تاريخي ، على مستوى الانا الاخروي في لحظة " نهاية العالم " ، فكل فعل لايكون له الا مؤشر واحد هو تقمص الانسان للانسان الاخر ، وعندئذ فان المرور من هذه الجهة من الموت الى الجهة الاخرى يفقد كل قيمته اللايقينية الهدامة التي تطبع رؤية مصيرنا ما بعد الموت ، وذلك بعد تلاشي جسدنا ، وتصبح حينذاك شيئا يحتمل . اكثر من ذلك سوف لن تكون لها اية اهمية لان العالم سيصبح تحقيقا لرغبتنا كما نفكر اليوم في سرنا وفي النواة الحميمية لي لخياراتنا غير القابلة للتحقيق ، ستنتهي انذاك ازدواجية ارادتنا مع الاخر لنصبح واحدا مع وجودنا بعد الموت مادامت " هذه الجهة " و " الاخرى " على المستوى المفهومي حياة واحدة " (٣) .

بمجرد القراءة الاولى لما قدمناه في الاسطر اعلاه ، يتجلى لنا الاتجاه المادي لهذا التحليل . فكر نضالي لاينطق بموضوع يلمح له وهو محاولة تجاوز الرؤية الدينية لنهاية العالم ، الموت والحياة الاخرى . فاذا كان الدين يبشر بحياة بعد الموت قرب الله حياة خالدة بالنسبة للمؤمنين وجهنم بالنسبة للكافرين ، فان هذه الرؤية تنطلق من نزعات الفرد الى تحقيق السعادة وتحقيق الذات ، فهي ترسم للناس مسقبلا قبل الموت ، هذا المستقبل الذي هو نفي للوحدة والانانية الفردية والفروقات الاجتماعية التي يعيشها الانسان اليوم لتقوم ساعة ينقلب فيها المجتمع - بعد نضالات ضد الظلم والاستبداد -

١- Jean Ziepler P.276
٢- Ibidem, P.277
٣- Ibidem

الى مجتمع يسوده وعي النوع . حيث تنتفي الانانيـــة والفروقات الاجتماعية ولا يتحقـق مصير الفرد الا بمصير الجماعة ، عندها يتحقق الانسان الكلاني ويضمحل قلق الموت ، ويركن في رحم حياة اجتماعية لا مصير فيها للفرد الا عبر مصير الاخر . ان هذه الرؤية لا تختلف عـن الرؤية الدينيـة في تحقيق سعادة في حياة خالدة بعد الموت . فاذا كانت الاولـــى تعد بنعيم للمؤمن وخلود في الجنة فان الثانية توجد في الارض في نعيم محبة الناس بعضهم لبعض في سكينة مطلقة خالدة ولكن في شكل اخر لا يكترث فيه الفرد بموت جسده لانه سيبقى خالدا عبر المجتمع المثالي الذي يحمل وعيه ، لا يموت وعيه بل يفنى جسده . ومادامت لا تختلف عن الرؤية الدينية ، فهي في حد ذاتها بحث عن خلود من نوع اخـــر يختلف عن الخلود الذي تقترحه الديانـات . ونشتم في هذه الرؤية رائحة الطوباويـــة الشيوعيـة التي مفادها ان القلق الوجودي للانسان لا ينمحي الا بالقضاء على الفوارق الاقتصادية والاجتماعية ، واذ تحاول هذه النظرة تفسير البحث عن الخلود في وعي الانسان فانها تبيح تعويضه بخلود اخر شبيه بالخلود الديني ولكن على مستوى الواقع الارضـــي ويبقى هذا الطرح الايديولوجي صورة لتاسيس ديانة اخرى بيد انها هذه المرة ديانـــة لائكيـــة الشيء الذي لم يتحقق ولن يتحقق ابدا على وجه الارض .

ويبقى السؤال المطروح اين يقع النزوع الى الخلود في ذات الانسان ؟ حتى نظرة زيغلر قابلة للنقد ، بل لعلها تصبح موضوعا للدحض .

يرى لوي . ف . طومـــا . ان الاعتقاد في حياة اخرويـة يقع خارج الوعي لان الوعي مجاله محصور في القشرة الشعوريـة من الجهاز النفسي ، اي الوعي الذي يستطيـــع تماما تاكيد وتحليل موت العضوية بكاملها فالموت يعتبر بالنسبة للوعي مفهوم ولكن رغـــم ذلك ، فان نزوعات الخلود تتظاهر عبر الانا الواعيـة ويتعامل معها الوعي والشعور ذاتـه اذن ، فلماذا لا نبحث عن هذا النزوع في اللاوعـي ؟ مادام " الوعي يقر علميا وتجريبيا اننا مائتون حتما ، لكن لاوعينا كما تبينه فرويـد ، يستمر في الاعتقاد اننا لانموت مطلقا (١) ولكن كيف يمكن تفسير ذلك انطلاقا من فرويـد ؟ يرتكز تحليلنا هذا على مؤلفه " الطوطـــم والمحرم " الذي يقول فيه " فالنزوع الى اللاموت يقع في اللاوعي ، لان الانسان يتعذب من عقدة الذنب اثر وفاة فرد من افراد اسرته ، حيث يخاف ان يعود الميت على شكـــل عفريت ينتقم منه لانه رغب في موته في يوم من الايام ، لذا يخترع لذلك الميت حياة اخرى بعد مماته " (٢) .

١- Louis Vincent Thomas, Mort et pouvoir, op.cit, P.16

٢- Louis Vincent Thomas, La Mort, P.U.F Paris, 1987, P.107

ونحن نعرف ان هذه الفكرة تحدد سلوك الحداد عند الاحياء حين موت احد الاقارب

هذا التفسير وان كان يرجع منبع البحث عن الحياة الاخرى والخلود فيها الى اللاوعي الا انه ينسى شيئا واحدا هو ان الانسان يعتقد في الحياة الاخرى حتى ولو لم يمت احد من اقاربه ، ويقدم هذا التفسير كذلك الاعتقاد في حياة اخرى الا للشخص الميت مخافة انتقام شبحه حيث يجرنا هذا للاعتقاد ان الايمان بحياة اخرى يلازم الحي حتى قبل مماة احد الاقارب اذن هذا الاعتقاد ملازم للاوعي ،ولكن قبل معرفة الانسان للموت وادراكه لها ، اي ان اصل هذا النزوع كامن في لاوعي الانسان منذ طفولته المبكرة وما اختراع حياة للميت القريب بعد موته الا صورة لقلق الموت لدى الحي ذاته لان الموت كما يقول فرويد نفسه :

" معنى مجرد ذو مضمون سلبي لايمكن ان يوجد له اي متعلق لاشعوري "(١) ، وفي نص اخر يقول : " ولكن يبدو ان اللاشعور لايحوي شيئا مما يساعد على تكوين اي مضمون لمفهومنا عن افناء الحياة ،ومن الممكن تصوير الخصاء على اساس تلك الخبرة اليومية الخاصة بفصل براز عن البدن ، او على اساس افتقاد ثدي الام اثناء الفطام. ولكن الخبرة باي شيء يشبه الموت امر غير ممكن واذا حدثت هذه الخبرة كما يحدث في الاغماء ، فانها لاتترك اي اثر ظاهر "(٢) . يوضح هذا النص مضمون اللاوعي كخبرات عاشتها الطفولة الاولى والتي لاقت كبتا نظرا لميكانيزمات التي خلقها الانا الناشيء حفاظا على توازن شخصية الفرد بامر من الانا الاعلى تصديا لاوامر الهو ونزوعاته حفاظا على الذات من خطر الاصطدام بالعالم الخارجي .فكل مكبوتات الانا هي عبارة عن خبرات مر بها الفرد ، ولكن الموت من حيث انه واقعي فوق - تجريبي لايمر به الفرد لا ويقضي نحبه . ويضيف فرويد :" ولذلك فاني أميل الى الاخذ بالرأي القائل بان الخوف من الموت يجب ان يعتبر مماثلا للخوف من الخصاء وان الحالة التي يستجيب لها الانا انما هي تخلي الانا الاعلى الواقي - او قوى القضاء والقدر - عنه بحيث يصبح بدون اي وقاية ضد جميع الاخطار التي تحيط به . وفضلا عن ذلك ، فمن الواجب ان نتذكر ان الحاجز الواقي ضد المنبهات الخارجية يتحطم في مثل هذه الخبرات التي تودي الى عصاب الصدمة . وان مقادير كبيرة من التنبيه تصل الى الجهاز العقلي ، وبذلك يظهر لدينا هنا احتمال ثان وهو ان القلق لاينشأ فقط كاشارة وجدانية بل انه يخلق من جديد ايضا نتيجة للشروط الاقتصادية للحالة " (٣) .

فالخوف من الموت اذن ، مماثل لتجربة الخوف من الخصاء المكبوتة . فاذا كان هذا الاخير مصدره خطر الخصاء من قبل الاب المنافس للطفل على موضوع الحب : الام ، والذي ينتج عنه فصل الطفل عن امه اي عن القائم على .

---

١ فرويد ، الانا والهو ، ترجمة محمد عثمان النجاتي ،ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ١٩٨٥ ، ص ٩٢

٢. فرويد ، الكف ، العرض والقلق ،ترجمة محمد لاعثمان النجاتي،ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ١٩٨٥ ،ص ١٠٤ .

٣ - نفس المرجع ، نفس الصفحة .

اشباع حاجاته ، فان الموت بالمثل هو انفصال عن الحياة ومن مصادر اشباع اللذة ، من حيث ان القلق ازاء الموت يحمل الكدر النافي للذة ، وبالتالي يرى فرويد ان القلق ليس اشارة وجدانية فحسب بل انه ينشأ متى توفرت شروط الانفصال تلك اذ يوضح " ان الرأي الذي ذكرته سابقا وهو ان الانا قد اصبح مهيأ لقبول الخصاء لتخلي موضوعات حبه عنه باستمرار ، ان ما يضع مسالة القلق في صيغة جديدة . لقد اعتبرنا القلق حتى الان كاشارة وجدانية للخطر ولكن لما كان الخطر الان في اغلب الاحيان خطر الخصاء ، فان القلق يبدو لنا كأنه رد فعل لضياع شيء ، اي انفصال(١)

ويؤكد هنا على ان نموذج القلق بما فيه قلق الخوف من الموت ، يرتسم عبر تجربة الخوف من الخصاء المكبوتة ، كل ردود فعل القلق تتكيء على تجربة القلق الاولى للخصاء ولكن ليست هي التجربة الاولى للقلق على الاطلاق " ان اول خبرة للقلق يمر بها الفرد (في حالة الجنس البشري على وجه الاطلاق) هو ميلاد ، والميلاد من الناحية الواقعية هو انفصال عن الام (٠٠٠) ولو ان القلق الان من حيث هو رمز للانفصال ، اخذ يظهر في كل حالة تالية يحدث فيها انفصال ، لكان ذلك امرا مقنعا جدا ولكننا لسوء الحظ لانستطيع الاستفادة من هذا الارتباط لان الميلاد لايكون مدركا ادراكا ذاتيا كأنه انفصال عن الام اذ ان الجنين هو مخلوق نرجسي كلية ، لايكون مدركا على وجه الاطلاق لوجود امه كموضوع لحبه " (٢) .

يعترف فرويد على غرار اوتورانك بان اول نموذج للقلق بامتياز هو القلق الناجم عن صدمة الولادة ، ولكن حتى وان كان سببه الانفصال عن الام فانه لايتعدي ان يكون ظاهرة بيولوجية لاشباعات بيولوجية تقوم بها الام حفاظا على حياة الجنين ، والتي قد توقفت . وعند الميلاد فان القلق لايعدو كونه وسيلة لتنشيط الوظائف

---

١ ـ نفس المرجع . نفس الصفحة .

٢ ـ نفس المرجع . نفس الصفحة ، في موضع اخر يوجه نقدا لاطروحة رانك صاحب كتاب " صدمة الميلاد " الذي يرى ان صدمة الميلاد اشتياق لسعادة الطفل لبطن امه . والانفصال عنها من جراء الولادة يفسر تلك الصدمة ، يرد عليه فرويد قائلا " لو كان ذلك حقا لسعد الطفل حين يترك لوحده في غرفة مظلمة تذكره بظلام الرحم بل تراه مفزعا وقلقا على اثر ذلك " انظر بخصوص ذلك " الكف ، العرض والقلق " صفحة ١١٩ .

البيولوجية لجسد استقل عن الرحم الذي كان مرتبطا به ، كون هذا القلق مرتبط بوظائف فيزيولوجية من حيث هو عبارة عن تنبيهات عصبية " ومن المحتمل ان يكون توجيه التنبيهات العصبية الى اعضاء التنفس اثناء الميلاد امرا يساعد على تنشيط الرئتين وان يكون قيام التنبيهات العصبية بزيادة دقات القلب امرا يساعد على تنظيف الدم من المواد السامة ، وبالطبع حينما تعود حالة القلق الى الظهور فيما بعد كحالة وجدانية فانها ستكون غير متناسبة على النحو السابق " (١) . هذا النص واضح اذن ، فقلق صدمة الميلاد بالنسبة لفرويد ليس له الا وظيفة بيولوجية لا اكثر ولا اقل ، وهو ضمنيا يؤكد ان كل حالات القلق انما هي تكرار لقلق الخوف من الخصاء بما في ذلك قلق الخوف من الموت . " ان الامر الذي يعتبره الانا خطرا ويستجيب له باشارة القلق هو غضب الانا الاعلى او عقابه او فقدان حبه ويبدو ان التغير الاخير الذي يطرأ على الخوف من الانا الاعلى هو الخوف من الموت (او الخوف على الحياة) وهو خوف من الانا الاعلى قد سقط على قوى القدر " (٢) .

فخوف الانسان من الموت هو تكرار لتجربة قلق مكبوتة وهي الخوف من الخصاء ، تتكرر عبر ميكانيزم خوف الانا من الانا الاعلى ، والتي يسقطها الفرد على قوى القدر ، التي تترجم على مستوى خشوع ديني وسلوكات باتجاه مواضيع المقدس والتي توحي بذات الخوف ، ولكن الاجابة على منبع الاعتقاد بالحياة الخالدة لم تكتمل بعد فماذا تحدث تجربة الخوف من الخصاء على مستوى الخيال ؟ اذ ما دامت قوى الايروس بتدخل الانا تحاول دائما السواد على مستوى الجهاز النفسي ، .

في هذه الحالة فان فرويد وان عارض اوتورانك في فكرته حول اشتياق الطفل لسعادة رحم امه بعد الميلاد والذي يسبب قلقا الميلاد الا انه لا يستبعد ظاهرة الاشتياق للعودة الى رحم الام ولكن في صيغة اخرى وذلك استشهادا بافكار فيرنزي " فعلا ، فان فقدان عضو الرجولة ، معناه عدم القدر على الاتحاد من جديد ، عن الممارسة الجنسية للام ، وبالتالي ستعوضها ولنقل ان النزوع الاكثر شيوعا للعودة الى رحم الام هو رغبة في هذا الجماع " (٣) ونجده يناقض فكرته التي عارضناها اعلاه ، اي ان العودة الى رحم الام والتي تصادفها في الاحلام هي تحقيق لرغبة الجماع مع الام ولكن بطريقة تكوصية يعوض فيها الجسد القضيب الذي فقد وظيفته من جراء التهديد بالخصاء ، اي ان هذه الظاهرة تصادف لدى الاشخاص

---

١ ــ فرويد ، الكف والعرض والقلق ، مرجع سابق ، ص ١٠٩

٢ ــ نفس المرجع ، ص ١١٥

٣ ــ Freud, Nouvelles conferences sur la Psychanalyse, Gallimard, Paris, 1936, P.116

الذين فقدوا كل قدرتهم الجنسية (١) ، يشتاق ذلك الشخص الى رحم الام لعقد قران حرم منه ، ويكون ذلك نتيجة مرضية للخوف من الخصاء ، ولكن الملاحظات الاثنوغرافية عند كل الشعوب ترينا هذه الصورة للعودة الى رحم الام او صورا اخرى تعوضها مما يؤدي بنا الى افتراض ان الظاهرة سوية لان ما يصاحب الموت حقا هو العودة الى اللاثقافة الى الطبيعة وهذا يظهر عبر ممارسة الرهاق والذي يمثل تحريمه انتقالا الى الثقافة .

ولكن اذا كان النزوع للعودة الى رحم الام هو استعادة موضوع الحب الذي هو الام والتي تم الانفصال عنها عن طريق التهديد بالخصاء يعود الى الخوف من الخصاء كقلق مكبوت ، فان مجرد هذه العودة المماثلة للعملية الجنسية كافية لحفظ التوتر الى درجة الصفر التي تميل اليها قوى الايروس ولكن فرويد ذاته يؤكد على اشتياق الفرد للعودة الى رحم الام مستندا في ذلك على اعمال فرانزي حول رمزية الجسر اذ يقول " الجسر يصبح مرورا بين العالم الاخر (الولادة التي لم تتم بعد) وبطن الام) وعالمنا (الحياة) ، ما دمنا نولد من المياه الامنيية بفضل العضو الرجولي ، ولكن طالما اعتبر الانسان الموت عودة الى بطن الام (الماء) فان الجسر يأخذ معنى اخر وهو التقدم نحو الموت " (٢) .

وما دام الموت يحدث قلقا نجد شبيها له في قلق الخصاء ، وقلق الخصاء ينشأ عنه نزوع العودة الى رحم الام تحقيقا لرغبة الجماع المكبوت مع الأم ، وما دامت الموت عودة الى مياه الرحم فسهذا يجرنا للقول بان العودة الى رحم الام ليست تحقيقا فقط لهذا الجماع الممنوع اثر تهديد الاب بالخصاء ولكنها حنين الى وضعية امان كان يضمنها الماء الاصلي للرحم ، وهذا ما يؤكد طرح فرويد الذي يرى ان الجنين كمخلوق نرجسي كامل ليس بمستطاعه ادراك امه كموضوع حب وانما كانت وضعية الرحم تؤمن سعادة يغيب فيها التوتر تماما ، وهذا تأكيد لطرح اوتورانك وهجوم فرويد عليه لدحض هذا الطرح انما يعود اساسا الى كون فرويد يكره ان يسبق الى اكتشاف كهذا (٣) ويقول اندري لوكسال تتويجا لهذه الفكرة " يشكل الميلاد انطباع قلق لدى كل فرد ، يحدثه الانفصال عن الام ، انفصال بيولوجي ونفسي في آن واحد (بمعنى فقدان مباشر للموضوع) والشيء الذي يضيف اليه على المستوى البيولوجي ، المرور المفاجيء الى التنفس ، الفقدان الذي لا يقل فجائية للهدوء الكلي للجنين في بطن امه (الجنة

---

١ ــ فرويد ، الكف والعرض ، مرجع سابق ، ص ١١٥٠

٢ ــ Freud, Opcit, P 35

٣ ــ Andre Leball, L'anxiete et Langoisse, Put Paris 1980 P. 48

المفقودة) من جهة صدمة نابعة من المرور الرحمي الصعب ومن جهة اخرى الصدمة النفسية مباشرة التي يحدثها الانفصال عن الهناء وسعادة بطن الام نستطيع دحض الاول وقبول الثاني ، او ، ـ وهذه فرضيتنا ـ قبولهما الاثنان ،على مستويات مختلفة ،ولكن بفعالية مماثلة " (١) ان هذا الطرح يعيد لصدمة الميلاد اعتبارها كصدمة ذات طابع نفسي بالاضافة الى طابعها البيولوجي ، فهي ناتج لفراق سعادة الرحم المفقودة وعلى هذا الاساس نستطيع اعتبار قلق صدمة الميلاد النموذج الاول للقلق وان الخوف من الموت، هو استعادة لقلق الانفصال ، سواء كان قلق الميلاد او قلق الخصاء ، وما دام القلق عبارة عن كدر (غياب اللذة) فان الانسا وتحت ضغط الايروس يعمل على الغاء الكدر واحلال اللذة محله ، فان الانسا عبر ذلك يبني صرحا اساسه الغاء الفناء ، وخوفا على الحياة بتصور عالم تخلد فيه النفس ويستنجد في ذلك بنزوعات العودة الى الرحم ، واء اشتياقا الراحة وسعادة غيبهما الميلاد او جماع رهاقي يقوم كرد فعل للتهديد بالخصاء .

اذن ،فالنزوع الى اللاموت ناشيء في البنية الثنائية الاقطاب التي تنظم الجهاز النفسي وعي / لاوعي ، والذي تقابله البنية الثنائية موت / خلود ،او بصيغة اخرى موت / لاموت ، وتطفو العناصر المكبوتة اللاموت والخلود ،على ساحة الوعي عبر الاحلام والاساطير واللتان لاتختلفان في طبيعتهما حيث كان يرى فرويد بان " الحلم يقوم بطريقة معينة بـ " تكوص " ، نحو الانشغالات السائدة منذ الطفولة الاولى لصاحب الحلم " (٢) ، فهذه النزعة الى اللاموت تطفو في الاحلام ولا تقف عند ذلك بل ان " الكثير من العمليات الذهنية اللاواعية التي كشف عنها فرويد في الاحلام موجودة كذلك في الاساطير والخرافات " (٣) وعلى هذا الشكل نشأت الاسطورة الكونية لحياة بعد الموت ، وبحثا عن الرموز والصور والمعتقدات والسلوكات الطقسية المتعلقة بالموت في منطقة سعيدة سنحاول البرهنة عن كونية هذه المعتقدات والطقوس تزامنيا عن اصولها الماقبل اسلامية في الجزائر وتاريخيا بمقارنتها بالمعتقدات والطقوس الجنائزية في الثقافات الاخرى والتي بحوزتنا معلومات ووثائق عنها ، عبر كتابات الانثروبولوجيين من افريقيا السوداء استراليا ،اوقيانيا ،اسيا ،الى امريكا الجنوبية فامريكا الشمالية الى مناطق من اوربا

١ـ Andre Le GALL, Idem

٢ـ Richard Rubenstein, L'imagination religieuse GALLimard, Paris 1971, P97.

٣ـ Ibidem

وذلك للقيام بدراسة مقارنة ، يساعدنا في ذلك المنهج المقارن لتاريخ الاديان المتبع من قبل ميرسيا الياده في تحليل الصور والرموز الدينية حيث يقوم بمقارنة بين مجموعة من الوثائق المختارة من مختلف الثقافات ويدرس عبرها موضوعا واحدا ويبحث في مختلف صور ورموز تجلياته (١) . وذلك بحثا عن وحدة للعقلية الانسانية تتجلى عبر صور مختلفة عند مختلف ثقافات الشعوب .

هذا المنهج الذي لا يختلف كثيرا عن ذلك الذي طبقه يونغ بحثا عن النموذج الاصلي الذي يعتبر مفهوما هاما في الكشف عن الكونيات الثقافية ، لا يفيد نظريا في البرهنة على بنية الحياة / الخلود ، لان هذه البنية تشكلت عبر التجربة التاريخية للشخص بينما النموذج الاصلي " يعني الصورة الاصلية النموذج الموجودة في اللاوعي " (٢) ولكن حسب يونغ ، فان هذا النموذج ليس مرتبطا بالتجربة التاريخية للفرد ، بل هو كيان سيكولوجي فطري (٣) ، ويتجلى عبر رموز وصور اسطورية ، يقول عنه يونغ " يكمن النموذج الاصلي في كيفية تمثلنا لهذه الصور تمثلا يمكن ان يتنوع بتفاصيل لا تعد ، وذلك دون فقدان صورته الاساسية ، يوجد مثلا تمثلات عديدة لصورة الاخوة الاعداء ، ولكن الصورة تبقى هي هي " (٤) بمعنى ان هذه الصورة ، وان اخذت اشكالا عديدة ، حسب الثقافات التي خلقتها فان هذه الصورة تبقى ثابتة مما يثبت كونيتها ، وهذه الطريقة في التحليل عن طريق المقارنة تفيد الكشف عن الكونية التي نحن بصدد البحث عنها ولا يفيدنا منهج يونغ الا في طريقة المقارنة هذه .

---

١ - Mircea Eliade, La nostalgie des origines, Gallimard, Paris, 1971, P 130-135

- Carl Gustave Jung, L'homme à la découverte de son âme, Ph, Paris, 1975, 349

٣ - Ibidem

٤ - Carl Gustave Jung, Essai d'exploration de l'inconscient, Denoël, Paris, 1971, P 96

الموت بين حضارتين الاسلام و الغرب

مقدمة :

لقد خصصنا هذا الباب لبحث علاقة الموت بالحضارة وبصفة ملموسة حضارة الاسلام والغرب بصفة عامة و تصورها للحياة والموت . و مكانة الفرد في المجتمع والصورة التي يعطيها عنه هذا الاخير من جهة . ومن جهة اخرى حضرة الغرب و رؤيتها للانسان حياته موته و مكانه في البناء الاجتماعي .

و لقد رجعنا لاجل ذلك الى البحث عن اصل الموت بتحليل بعض الاساطير . ومقارنتها بقصة ادم عليه السلام و بحثنا عن كيفية دخول الموت عالم الانسان . لننتقل بعد ذلك بالدرس الى رؤية الاسلام للموت مستشهدا بايات قرانية و احاديث نبوية . لندرج ختاما لذلك شرحا مستفيضا لافكار الغزالي حول هذه المسالة . بعدها نطرق فكرة عذاب القبر في الاسلام لنبحث عنها بعد ذلك في كل من الديانة المسيحية و اليهودية . ثم ناتي بعد ذلك الى دراسة ظاهرة المحاسبة والحساب .

اما في الفصل الثاني فنحاول فهم ظاهرة الموت من وجهة نظر سوسيولوجية باعتماد مفاهيم التحليل النفسي و امتداداتها التاريخية و السوسيولوجية . معتمدين على الاعمال النظرية لرواد الفرويدو ماركسية ،وعلى راسهم كل من هربرت مركوز، و فيلهالم رايش ،اخذين كنموذج المجتمع الغربي . محاولتين تطبيق نتائج دراسة الموت نظريا على المجتمع الغربي لنستفيد منها و باجتهاد في محاولة لفهم مجتمعنا في تصوره لمكانة الفرد حياته وموته،صبره، و مستقبله .

ـ الفصل الأول

ـ صورة الموت في الثقافة الاسلامية

مفهوم الموت في الشرق القديم

ان كل الديانات مهما اختلفت وكم هي كثيرة تعتبر برأينا مخزونا مكثفا لاقاصيص الزمن الاول ،الحاملة لتجارب الشعوب عبر ماضيها الحضاري (١) وترتكز الاساطير عموما على العنصر الوجودي للانسان ،اذ يعبر من خلالها عن مأساته ومصيره بعد الموت او بعبارة اخرى تحمل لغز الحياة والموت ،الموت التي تفلت من وعي الانسان ببرابتها ورعبها ،لذا تراه " يتجاوز قلق هذا المجهول عن طريق الابتكار الخيالي للعالم الاخر او الحياة الثانية "(٢)..

ان اشكالية الموت والحياة الثانية اسطورة كونية (٣) عبرت عنها مختلف الشعوب بمختلف الاشكال . والشكل الاكثر تطورا عبرت عنه الديانات الكتابية الثلاث اليهودية ،المسيحية ، والاسلام ،بالاعلان عن واحدية الله ،واصل الخلق المعبر عنهما بصفة متقاربة بين هذه الاديان الثلاث بحكم الموقع الجغرافي الواحد الذي ظهرت فيه ،والتقارب التاريخي والحضاري بين مختلف الشعوب التي دانت ودعت لهذه الاديان وخاصة منها الدين الاسلامي الذي نستطيع بخصوصه القول ،ان مسألة الحياة والموت والعالم الاخر هي عناصر مرتبطة بعضها ببعض ارتباطا وثيقا بحيث لايمكن تصور عنصر واحد منها دون الاخر والحياة الثنائية تشكل مركز السجال الديني حيث تنبني عليها الوظيفة الاجتماعية للدين ،فالدين الاسلامي قرآنه وسنته يؤكدان دوما على الموت والحياة الثانية ..

ان هذا التوكيد على الموت يجرنا الى البحث عن مكانتها في وعي الشرق منبع الديانات الكتابية ..

يشرح لسان العرب الموت والموات والموتان على انها ضد الحياة (٤) فكل ماهو ضد الحياة موت ،ويذكر القرآن ان الموت من خلق الله " هو الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم ايكم احسن عملا وهو العزيز الغفور "(٥) تربط هذه الاية الموت مباشرة بعمل الانسان ،وموقفه من الخير والشر ،لقد خلق الله الموت ليقيس درجات التقوى وطاعة الناس له فالموت بهذا التصور هي استحلاب الله لعباده يوم القيامة ليحاسبهم فمن عمل صالحا كوفئ عليه ثوابا ومن عمل سيئا كوفئ عليه عقابا .

واصل كلمة موت كنعاني ينتمي الى اللغة السامية ،فالاساطير الاوغاريتية والكنعانية تذكر في معظمها الاله " موت " اله الاراضي اليباب ،القاحلة اي انه اله الجفاف في صراعه مع الاله " بعل " اله الامطار والرياح ،اله الخصب ،في الاسطورة يواجه " بعل " الاله " يام " اله البحار والانهار وهو اله منهور بشراسته وظلمه حيث يهيج الانهار والبحار لتغمر الارض وتخرب الزرع وكل مرهب ودب من انسان وحيوان ويتوجب على بعل دحر التهديد الصادر عن ارض اليباب من خلال اغتصاب الهب القاحل المتمثل في " موت " وهناك رابطة .....

١- صموئيل نوح كرامر " اساطير العالم القديم " الهيئة المصرية للكتاب القاهرة ١٩٧٤ ص ٧

٢- Luc de Heusch, "Introduction a une mythologie grecque" In: Pour une anthropologie fondamentale. 3, Seuil, Paris, 1978, P 241

٣- Ed par Morin, L'homme et la mort, OP. cit, P. 123

٤- لسان العرب الجزء الثالث ص ٥٤٦

٥- سورة الملك ٢

وهناك رابطة محتملة بين كلمة " موت " والكلمة العبرية التي تفيد معنى "موت" (١) ووجودها كمفردة عربية لاغريب فيه لتقارب اللغتين وانتمائهما الى اسرة لغوية واحدة وهي السامية (٢) .

اصل الموت

كل الثقافات التقليدية (٣) تعتبر الموت عنصرا خارجا عن الكائن الحي ، فعنصر الموت لايلازم حتما جسم الانسان ، بل ان الانسان حي بطبيعته ، وان الموت غير ملازم البتة لذاته (٤) .. فهو يأتي من الخارج ، فكل من مات فانه يروح ضحية لعملية سحرية من جانب اناس آخرين ، لذا وجب الانتقام له . كما هو الحال في ثقافة ابورجين استراليا ، وفي الثقافة الافريقية تصور عجيب لاصل الموت ونذكر على سبيل المثال حكايتين اسطوريتين :

الاولى :

"أرسل الله رسالة الخلود الى الانسانية ، لكن بطريقة اواخرى لم تصل الرسالة الى الناس في وقتها المحدد ونفس الاسطورة محكية بطريقة اخرى مفادها ان الله ارسل الحرباء الى الناس لتخبرهم انهم سيعيشون خالدين وانهم يحيون بعد موتهم ويعودون اليها بعد ان يشيخوا . توقف الرسول ليتناول الغذاء ، ليتسلى او ينام وعند ذاك ارسل الله رسولا ليخبر الناس بالموت وكتن هذا الاخير اسرع من الاول وتحكى اسطورة بمتغير اخر ، ارسل الله رسالة الخلود في الناس لكن الرسول نسي الكلام الذى كلف به ، او انه بدل الرسالة او انه عندما وصل الى الناس اساؤا معاملته وكان ان لعنهم الله بالموت" (٥) .

الثانية :

اسطورة في جنوب افريقيا تروى " ان الناس كانوا اصلا خالدين لكن لم يكن لديهم اطفال او لم يكن لديهم حق الانجاب واثناء ذلك اكتشفوا الحياة الجنسية فانجبوا اطفالا فدخلت عليهم الموت (٦)"

وفي الاسلام يحكي القرآن قصة ادم وحواء على انهما كانا زوجا يعيش هنيئا في الجنة ، التي تمثل في الاسلام عالم الخلود والحياة اللامتناهية بجانب الله وكان ان نهاهما الله بألايقربا الشجرة او يأكلا من ثمارها فوسوس لهما الشيطان فأكلا منها فغضب الله لذلك ، وبقية الاية :

" فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما الم انهاكما عن تلكما الشجرة واقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين قالا ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن لنكونن من الخاسرين قال اهبطوا بعضكم لبعض عدوا ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين (٧)

١ـ صموئيل هنري هول " منعطف المخيلة البشرية " ترجمة صبحي حديدى . دار الحوار اللاذقية ١٩٨٣ ـ ص ـ ٠٦٩

٢ـ C.F. DAVID COHEN, "Les Langues Chamito-semitiques" In. Lanfale, Encyclopedie de la pleade, Gallimard, Paris, 1973.

٣ـ في العقلية الشعبية بمنطقة سعيدة : كل من مات فان اجله قد تم اى ان الموت من وحي الله حتى وان تسبب فيها حادث

٤ـ يقر علم البيولوجيا بملازمة الموت للكائن العضوى حيث تبدأ سيرورة الموت منذ ان تبدأ دينامية الحياة في الجسد العضوى .

٥ـ Y.K. Bamunobqet. B. Adoukonou, La mort dans la pensee africaine Presence africaine - U.N.E.S.C.O, Paris, 1979, P.106

٦ـ Ibid, P.107

٧ـ سورة الاعراف ـ الآية : ٢٢ ـ ٢٣ ـ ٢٤ .

ومتاع الى حين .

فحكاية آدم تجمع بين العنصرين المتسببين في الموت في الاسطورتين الافريقيتين الاول هو ان اهمال واللامبالاة الرسول هي التي ادت به الى ارتكاب الخطأ الذي بدوره تسبب في دخول الموت الى عالم الانسان ...

فنتيجة اللامبالاة ادت بآدم الى ارتكاب خطأ عصيان اوامر الرب (١) والقاضية بعدم اكل الثمار اى ثمار الشجرة وكان ان انكشفت سوتهما وعرفا سر الانجاب والعملية الجنسية بين الرجل والمرأة ...

١ـ ان تحليل هذه الاساطير الافريقية مقارنة مع قصة ادم يجعلنا نفكر في الخطأ وعدم الامتثال لاوامر الله اكان من جانب الرسول الذي ارسله الله او الانسان المأمور كما هي الحالة لدى ادم هو سبب مجيء الموت لتصيب البشرية ، يمكن ان تكون هذه الفرضية قابلة للفحص في حالة مقارنة متن معتبر من الاساطير حول اصل الموت عند مختلف الشعوب ، ولكن ما يؤكد صحتها هو اننا نعثر في احاديث النبي وما اتى به المسيح سلام الله عليه على فكرة القضاء على الموت بعد استقرار الناس حسب اعمالهم في الجنة او في النار ، يقضي على الموت في اخر المطاف نقرأ في الانجيل ما يلي : « البحر سلم امواته ، الموت وجهنم سلما امواتهما وكل واحد حوسب حسب اعماله ، وعندئذ رمي بكل من الموت وجهنم في بحيرة من النار

نجد نفس الفكرة في حديث نبوي ذكر الصحيحين ونقله عن المنذري ولكن يعبر عنها بكثافة رمزية لا مثيل لها تدل على ثراء المخيال الاسلامي وها هو الحديث « قال رسول الله (ص) يوتى بالموت كهيئة كبش املح فينادى به منادي يا اهل الجنة فيشرئبون وينظرون فيقول هل تعرفون هذا فيقولون : نعم هذا الموت وكلهم قد رآه ثم ينادى منادي يا اهل النار فيشرئبون وينظرون فيقول هل تعرفون هذا فيقول نعم هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، فيذبح ببن الجنة والنار ثم يقول يا اهل الجنة خلود فلا موت ويا اهل النار خلود فلا موت ، » ص ٥٦٣ . فالخطيئة الاولى ام الخطايا التي دخلت الموت على اثرها عالم الانسان عندما يعاقب من اجلها الانسان او يثاب عند القيامة يتبعها ذوت الموت والقضاء عليها في عالم الهي خال من الخطايا ، هذا الحديث ذكره الامام حافظ زكي الدين عبد العظيم بن القوي المنذري في كتابه : الترغيب والترهيب في الحديث الشريف ، الجزء الرابع دار الحياء احياء التراث بيروت ١٩٦٨ .

كلية العلوم الانسانية و العلوم الاجتماعية
المكتبة
جامعة ابو بكر بلقايد ـ تلمسان

بين الرجل والمرأة ...
فطردا من خلود الجنة ونعيمها ليهبطوا في الارض عدو بعضهم لبعض والعداوة هنا ليست بين كل من الزوج الاول بل بين هذا الاخير والشيطان (١).
" ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون " اشارة الى دخول الانسان مأساة الحياة حيث تعتمد هذه الاخيرة على الموت حتى تأخذ معناها ويعوض الخلود الابدي للفرد (هنا ادم وحواء) خلود للنوع الذي يضمنه توالد وتكاثر البشر حفاظا على النوع.
هذا الخلود الابدي المكسور لايمكن نيله الا بعد التطهر من الاثم الاول (٢) ثم عصيان الله وهو لا سبيل في ادراك الخلود الاول الا باتباع احكام الله التي اتى بها الانبياء، معمل الخير واتقاء الشر ليحاسب الانسان بعد موته، فاذا امتثل لقواعد الاسلام ونهي عن المنكر واوصى بالمعروف فان مصيره الجنة، ليعود الى اصله الاول قبل ارتكابه الاثم الاعظم.
وهكذا فالديانات والاساطير المختلفة تخرج الموت عن نطاق سيرورة العضوية بل خارجة عنها تماما، وما العضوية الا حياة يدخلها الموت من الخارج. من الله بالنسبة للديانات الكتابية وبالنسبة للثقافات الاخرى فانها نتيجة عمل سحري.
والثاني فان اكتشاف الناس للحياة الجنسية وبداية تكاثرهم ادخلت عليهم الموت بعد الخلود، نفس الشيء بالنسبة لادم وحواء فانكشفت عورتهما وبالتالي شعورهما بالعملية الجنسية تسبب في خروجهما من الخلود باتجاه الارض لتدخل عليهما الموت فاقدين خلودهما الاول..

الموت في الاسلام :

كل الاديان تجعل من الموت والعالم الاخر مركزا لخطابها فهي تستعمل هذا الثابت، الموت وفزعها لتمثل دورها كمنظم للعلاقات الاجتماعية "وعامل لتبرير النظام"(٣)..
والاسلام لايخرج عن هذه القاعدة والبحث فيه عن مسألة الموت وصورتها، لايقتصر على القرآن والسنة فقط بل كل ما تبعهما من فكر وارتبط بهذا الدين من فلسفة وكلام وفقه على مختلف المذاهب والمدارس في فهمها لهذا الدين. ان طرق هذا الموضوع ليس بالامر الهين لما يدور حوله من نقاش حاد ويشد اهتمامنا في هذا القسم من البحث اكثر تصور الروح او "النفس" عند مختلف هذه المذاهب..
يأتي في القرآن متكرر لفظ الوفاة :" ويرسل عليكم حفظة حتى اذا جاء احدكم الموت توفته رسلنا وهم لايفرطون (٤) وفي اية اخرى :" الله يتوفى الانفس حين موتها "(٥) وتتكرر نفس عبارة "وفاة" في اياة اخرى.

١- يقول فيما يخص هذا الموضوع المفسر ابن كثير : قيل المراد بالخطاب (اهبطوا) ادم وحواء وابليس والحية ومنهم من لم يذكر الحية (...) والعمدة في العداوة ادم وابليس "في تفسير ابن كثير. دار الاندلس ج٣ بيروت ١٩٨١ ص ٩٥٥.
٢- الاثم الاول قد ياخذ في ثقافات اخرى شكلا اخر يعبر عن القطيعة بين البشر والله ولاحداث التواصل بينهما يعمد البشر على مستوى الملموس ومستوى الميتولوجي للصعود الى الله عن طريق شجرة الحياة كما سنرى او عن طريق عشق المتصوفة او الارادة الواعية السياسية قريبا الدولة الاسلامية بالنسبة للمسلمين.

Mohamed Arkoun, La pensée arabe, PUF, Paris 1985 P.30

٣- الانعام-١١

في ايات اخرى .
والوفاة لغويا كما جاء في لسان العرب هي المنية والموت حيث جاء في نفس المصدر حرفيا :" وتوفي فلان وتوفاه الله اذ قبض نفسه وفي الصحيح "اذا اقبض روحه ".
وقال غيره : توفى الميت استيفاء مدته التي وفيت له وعدد ايامه وشهوره واعوامه واعوامه (١)
وتستعمل عبارة وفاة للتعبير عن تصور اعمق واشمل تجنبا لكلمة "موت" لما تحمله من قلق وفزع من فكرة الفناء والعدم ، والوفاة بالمعنى المقترح سالفا ، نهاية الاجل المسمى لدى كل شخص يقضي نصيبه من الحياة ، لتعود الروح المنفوخة فيه الى نبعها الاول وهو الله خالقها ليحاسبها .
بهذا المعنى فان الموت تصبح مجرد اجتياز لمرحلة من الوجود وهي الحياة الاولى الى حياة اخرى بقرب ربها ، وفي الشرح الثاني المقترح لكلمة وفاة يتضح المعنى الاول ، فالروح هي بمثابة امانة استردت بكاملها .
وبهذا المفهوم لاتصبح الموت نهاية او مآلا الى العدم بل بالعكس من ذلك تصبح جسرا او عقدة ارتباط بين حياتين " الحياة الدنيا " والحياة الاخرى" الخالدة - كل الناس ذائقون الموت " كل من عليها فان ويبقى وجه ربك "(٢)..
وهنا يجمع الله كل الناس وكل الموجودات حتى جمادها لتصيبها النهاية "كل شيء هالك الا وجهه له الملك واليه ترجعون (٣) واية اخرى اكثر وضوحا "كل نفس ذائقة الموت وانما توفون اجوركم يوم القيامة (٤).
ان هذه الايات التي ذكرنا لاتذكر الموت لذاته بقدر ما تستعمل ذات الموت للترهيب على الخروج عن قواعد السلوك الالهية والترغيب على التقرب الى الله .
لان الانسان في الاسلام ضعيف بالنظر الى عظمة الله ، فالله هو الاعلى حامل السلطان المطلق وهو الاخلد خالق الموت والحياة . فهو الذي يتصرف في الناس ، فالخلود الذي كان مطمع الناس عموما والملوك والاباطرة بصفة خاصة ، في الشرق بالذات ظهرت اساطير تصور هذا المطمع الى الخلود والكل يعرف اسطورة جلجامش (٥) الذي سيطر على العالم عالم البشر بصفة مطلقة واراد ان يبسط سلطانه على الكون بالفوز بالخلود والانتفاع الى السلطان المطلق واكتساب صفة الرب ، فهذه الايات بما تحمله من شحنات اخلاقية ذات تاريخي ، اجتماعي وسياسي تكرس عن طريق الصفة المطلقة لله المتجرد من اي صفة انسانية ، المتصرف في الموت والحياة

١- لسان العرب
٢- سورة الرحمان ٢٧
٣- سورة القصص ٨٨
٤- سورة آل عمران ٣٤
٥- انظر في هذا الصدد كتاب صموئيل هوك المذكور ابتداء من ص ٢٩ الى ص ٣١ حيث يذكر بعض الصفات الالهية لجلجامش الذي رغم كل العناء يحقق في محاولته لكسب الخلود والانتصار على الموت

المتصرف في الموت والحياة ،وعلى هذا النحو يتكرس تواضع الانسان الذى لابد ان يتبع تعاليم ربه في تسيير شوون حياته ، ينبذ الاستبداد ويكرس حب الانسان للانسان (١) والولاء لله ،لان مآل الانسان الموت ،ثم البعث وعند ذلك يحاسب على اعماله .

اذا تحقق الخلود الا لله ،المتصرف في الحياة والموت وما البحث عن الخلود من لدن الانسان الا عبث ، اذ كل نفس مائتة " انك ميت وانهم ميتون "(٢)..

ولكن كيف يمكن تعريف الموت بالمفهوم الذى اتى به الاسلام ،نرجع ذلك الى ابي حامد الغزالي في مؤلفه الاحياء حيث يقول : اعلم ان للناس في حقيقة الموت ظنونا كاذبة قد اخطأوا فيها فظن بعضهم ان الموت هو العدم ،وانه لاحشر ولانشر ولاعاقبة للخير والشر وان موت الانسان كموت الحيوانات وجفاف النبات ، وهذا الرأى للملحدين وكل من لايومن بالله واليوم الاخر وظن قوم انه ينعدم بالموت ولايتألم بضار ولايتنعم بثواب مادام في القبر الى ان يعاد في يوم الحشر ..

وقال اخرون ان الروح باقية لاتنعدم بالموت وانما الاجساد لاتبعث ولاتحشر اصلا(٣)

يعرض هنا الغزالي مختلف آراء مفكري الاسلام وخاصة منهم الفلاسفة وغيرهم من غير المسلمين ، من حضارات اخرى ،ويأتي بما يعارض به حججهم بقوله :

" وكل هذه الظنون فاسدة ومائلة عن الحق بل الذى تشهد له طرق الاعتبار وتنطق به الايات والاخبار ان الموت معناه تغيير حال لاانقطاع وان الروح باقية بعد مفارقة الجسد اما معذبة واما منعمة ومعنى مفارقة الجسد انقطاع تصرفها عن الجسد وخروج الجسد عن طاعتها (٤)..

١- يدعو الاسلام الى ان الناس اخوة في الدين وهذه فكرة اتت من قبل في المسيحية اذ يعلق جان سرفييه على هذه الفكرة بقوله " يعتبر الناس اخوة في المسيح"

٢- سورة الزمر الآية: ٣٠

٣- ابو حامد الغزالي : احياء علوم الدين ج٤ ص٤٤٩.

٤- نفس المرجع ،نفس الصفحة.

في مؤلفه " معارج القدس " يقول عن الموت : النفس ليست منطبعة في البدن بل لها العلاقة مع البدن بالتصرف والتدبير والموت انقطاع تلك العلاقة اعني تصرفاتها وتدبيراتها عن البدن وانما الموت يموت الروح الحيواني " ص١١٧.

يأتي هذا التعريف مطابقا للنص الاصلي قرانا وسنة ،اذ ان الموت ما هي الا انقطاع الروح في تصرفها في الجسد ،تبقى حية لكن خارج نطاق الجسد الفاني كعادة ،واذا كان جموع مفكري الاسلام متكلمين وفلاسفة يتفقون على حول موت الجسد فقط وخلود الروح ،فانه بالعكس من ذلك يختلفون جوهريا حول مفهوم الروح والبحث كما سنرى في الباب الثاني ،الفصل الثاني منه.

- الفـــــــرع الثـــانـــي -

- عـــذاب القبـــــر -

يقـــر الاســلام قرآنـــا وحديثـــا على عـذاب القبـــــر استنـــادا علـــى بعـض ما اتـــى في القرآن وحديث النبـي (ص) .

" قدرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون يوم لايغني عنهـــم كيدهـــم شيئـــا ولاهم ينصـــرون وان للذين ظلمـــوا عذابـــا دون ذلـــك ولكـــن اكثـــرهم لايعلمـــون "(١)

وفـــي ايـــة اخـــرى " ولنذيقهـــم مـــن العذاب الادنى دون العذاب الاكبـــر لعلهم يرجعـــون " (٢) " سنعذبهم مرتين ثم يردون الى عـــذاب عظيـــم " (٣) .

يبـــدو ذكـــر العذاب مرتيـــن ،الاول والثانـــي ،ليس حقيقـــة وجود عذابيـــن لكن استعمـــال المثنـــى للمبالغـــة واظهـــار هـــول العـــذاب الاول فقـــط ،لكـــن وفي ايـــة اخرى " وحاق بآل فرعـــون ســـو العذاب النار يعرضـــون غدوا وعشيـــا(٤) وتقوم الساعـــة أدخلـــوا آل فـــرعـــون اشـــد العـــذاب ".

فكـــل هذه الايـــات تحمـــل معنـــى وجود نوعيـــن مـــن العـــذاب لكـــن كيـــف يحدث ان تعـــود الـــروح الى الجسد وتدفـــن

فهـــذه المسألـــة يوضحهـــا الحديث ،فعـــن قبـــض الروح من قبـــل ملك الموت يقول محمد (ص) " فتلقاهـــا بأكفان بيـــض ثم يختفنهـــا اليـــه فهو اشـــد لزومـــا لها في المرأة اذا ولدتهـــا ثم يفـــوح فيهـــا ريح اطيـــب من المسك فيستنشق ريحهـــا ويتباشـــرون بهـــا ويقولـــون مرحبـــا بالـــروح الطيبـــة والـــروح الطيـــب اللهم حل عليه روحـــا وعلى جســـد خرجـــت منـــه قـــــــــــال:

١- ســـورة الطـــور .
٢- ســـورة السجدة - الآية ٢١
٣- ســـورة التوبـــة - الآية ١٠١
٤- ســـورة غافـــر - الآية ٤٥ - ٤٦

قال: فيمدون بها والله عز و جل خلق في الهوا لا يعلم عددهم الاهم فيفوح لهم فيها ريح اطيب (....) حتى بها يدي الملك الجبار فيقول الجبار جل جلاله مرحبا بالنفس الطيبة (.....) ثم يقول لهذه النفس الطيبة ادخلوها الجنة واروها مقعدها من الجنة واعرضوا عليها ما اعددت لها من الكرامة و النعيم ثم انهبوا بها الى الارض فاني قضيت اني منها خلقتهم و فيها اعيدهم و منها اخرجهم تارة اخرى (.....) وتقول اين تذهبون بي الى ذلك الجسد الذي كنت فيه؟ . قال فيقولون انا مامورون بهذا فلا بد منه فيهبطون به على قدر فراغهم من غسله واكفانه فيدخلون ذلك الروح بين جسده واكفانه" (١) .

تعاد الروح الى الجسد اذا لتحضيرها لزال القبر و عذابه (٢) . لكن رجوعها الى الجسد ليس معهودا و لا مالوفا بالنسبة لها كما كانت عليه في الحياة الدنيا ففي آخر الحديث كما راينا فانها تستقر بين الجسد واكفانه وهذا دليل على رجوعها بعد تحضير الجثة للدفن .

ويردي محمد (ص) في احاديثه كيف تجري تفاصيل سؤال القبر

١- فكره بن القيم الجوزية، الروح في الكلام من ارواح الاموات والاحياء، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧٩، ص ٥٠

٢- لا ذكر لعذاب القبر في اي من الديانات الاخرى و هذا دليل اقوى على خصوصية الدين الاسلامي . وتاكيد الاسلام براينا على هذه الظاهرة هو حرصه على الاحضار الدائم لوعي الموت في حياة المسلم ترغيبا له في الايمان لان افتقاده يكلف صاحبه العذاب ليس في نهاية العالم البعيدة الحدوث و لكن في فترة وجيزة تعقب وفاة الفرد مما يزيد من فزع الموت والدفع بالفرد الى الايمان و الخوف من الله . وهذا هو العنصر الاساسي الذي يؤسس سيكولوجيا المؤمن المسلم.

كيف يتم سؤال القبر وتعذيبه: "ان الميت اذا وضع في قبره وتولى عنه اصحابه انه ليسمع خفق نعالهم اتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له ما كنت تقول في هذا الرجل محمد اما المؤمن فيقول اشهد انه عبد الله ورسوله ورسوله، قال فيقول انظر الى مقعدك من النار قد ابدلك الله به مقعدا من الجنة، قال رسول الله (ص) فيراهما جميعا، فأما الكافر والمنافق فيقولان له ما كنت تقول في هذا الرجل فيقول لا ادري كنت اقول ما يقول الناس فيقولان لا دريت ولا تليت ثم يضرب بمطراق من حديد بين أذنيه فيصيح صيحة فيسمعها من يليها غير الثقلين (١)

وفي حديث آخر " اذا مات احدكم عرض عليه مقعده غدوة وعشية اذا كان من اهل الجنة واذا كان من اهل النار" والاحاديث كثيرة بهذا الشأن لم نذكر الا اهمها والاكثر وضوحا .

اذن، كلا الحديثين يقران بالقيامة الاولى، اوعذاب القبر او الحياة الاولى السابقة للحياة التي تلي القيامة الكبرى .

فاذا كان القرآن والسنة وما تبع ذلك من النصوص تصور التغيير المتعلقين بالنص الاملي فقط يقرون بعذاب القبر .

فان المديد " من مدارس المتكلمين والفلاسفة يشككون في وجوده ، ينطلق الشيعة في حججهم ضد عذاب القبر من كون ان روح المؤمنين تستقر بجانب الرب حتى يوم القيامة الكبرى "(٢)، حيث تحيا اجسادها ؛ لكل روح جسد لتلقى الحساب لاجل الثواب لمن عمل خيرا ،وعذابا لمن عمل شرا .

يرد ابن سينا على ذلك قائلا :

١- صحيح مسلم ص ١٠٣

٢- نفس المرجع ص ١٦٠

٣- Louis Gardet, Dieu et la destinée de l'homme VRIN, Paris, 1967, P. 254

قـــائـــلا:

" اذا مـــرت علـــى تطهـير مـــزدوج اخلاقـي ومعرفـــي فانها (اى النفـــس) تستمتـــع بالسعادة فـــى زوية الكـــائـــن الاول في مـرآة العقـــل الكونـــي واذا لم تتخلـــص مـــن عـوائـــد الجسد ،تلقـي سلسلـــة من التطهيـرات حتى تصبح قادرة علـى عكس انـــوار المدركـات ،لكـــن اذا تخلـت عـــن الخيـــر فانهـــا ستتعرض للتعاســـة الابديـــة في بحثهـــا اللامتناهـــي عـــن متـاع الجسد الـذى سلـب منهـــا وتعرض الـــى الابـــد للرغبـات غيـــر المحققـــة الغاضبـــة منها والشهوانيـــة"(١) لكـــن يضيف" البلهـــاء البسطـــاء والذيـــن ليس باستطاعتهـــم الحصـــول علـــى التطهيـــر اللازم لكـــن مـــن دون ذنـب منهـــم ، ومـــن المؤكـــد ان هـــؤلاء هم العامـــة ، فانهـــم سيتمتعـــون بسعادة مطلقـــة ذاتيـا لكنهـــا موضـوعيـــا نسبيـــة علـى حسب قدراتهم ،انها ليست التمتـــع بالعالـــم المدرك ، لكـــن تمتـــع خيالـــي مرتبطـــة برغبـات وممارسة الحيـــاة علـــى الارض لكـــن هـــذا التمتـع الخيالـــي يعنـــي وجود وسيـط جسدى "(٢)

ان القـول الذى ذكرنـاه لابـن سينـا ،يستبعـد كل مايسمـــى بعذاب القبـــر .

فالـــروح المطهـرة ترقـي اخلاقيـــا ومعرفيـــا الى السعادة الاسمى وهـي التـــامـــل في الكـــائن الاول .

ان هذا التطهيـــر شرط لتخلصهـــا من الجسد وان حـــدث ذلـــك فانهـــا تمـــر عبـــر سلسلـــة من عمليات التطهير حتـــى ترقـى الى السعـــادة هـــذه .

وعـــن الارواح التـــي لـــم يصبهـــا التطهـــر عن غيـــر ارادتهـــا فانهـــا تتمتـــع بسعادة اقل شأنـــا من الاولـــى ،لعـــدم حصـــول هذه الارواح علـــى التطهيـــر الاخـــلاقي والمعرفـــي .

١- Avicenne, Directives et remarques, VRin, Paris, 1951, P. 478.

٢- Ibidem.

والمعرفي .

يعبر ابن سينا عن هذا الرأى بشكل اكثر ايضاحا في "كتاب الاشارات والتنبيهات"

"والارواح السليمة التي على حسب ما سوتها الطبيعة والتي لم تخثنها ممارسة اشياء هذه الارض تحس بمؤشرات انفعالها عن الجسد بغبطة لاتصور وتنتهش لذلك لما بلغته من الكمال وتعتبر هذه الرغبة من احسن اندفاع والذى يملك لايتضع يسمو بالمعرفة التي ادركها الى الكمال.

ان الذى مهيجه البحث عن الحمد والكفاية يكتفي ببلوغ هذا الهدف كحال متعة العارفين بينما البلهاء اذا كانوا ظاهرين ،يبلغون سعادة تلائمهم وذلك بواسطة جسم"(١)

ربما في غمار هذه السعادة لايستطيعون الاستغناء عن جسد (٢) يصبح مكانا لخيالهم، لكن لاشئ يمنع ان يكون جسما سماويا أو ما يشابهه، ربما يوصلهم هذا الاخير الى التحضير للالتقاء السار بالعارفين ولايمكن لاى جسم ان يستقبل روحا اواكثر .

١- Idem, P. 477

٢- ابن سينا لايعارض ولايذكر على الاقل فيما اطلعنا على فكرة عذاب القبر لكن تلازم عذاب القبر مع عودة الاجساد وهذا مايعارضه ابن سينا الاعلى ما يسميهم بالبلهاء ويجعلنا نفكر بالتأكد على عدم اقتناعه بالفكرة ذاتها لانها لاتتلائم مع نظامه الفلسفي فانتقال النفس الى الكائن الاول هي اعتراف ضمني بعدم الاعتراف بعذاب القبر .

روحـــــا او اكثـــــر.

هـــذا النـــص يؤكـــد ويوضـــح الفـــكـــرة الاولـــى لاكـــلام عـــن عـــذاب القبـــر بـــل الـــروح حيـــن انفصالهـــا عـــن الجســـد اذا بلغـــت الكمـــال مـــن المعرفـــة ،تمتعـــت برويـــة الكـــائـــن الاول.

بينمـــا البلهـــاء من عامـــة النـــاس ،والطاهـــريـــن منهم فانهـــم يبلغـــون سعـــادة تـــلائم طبيعتـــهم ،وذلـــك بواسطـــة جســـم ، يكـــون تبعـــا لغيالهـــم يمكـــن ان تسكنـــه اكثـــر مـــن روح واحـــدة .

ان خطـــاب ابـــن سينـــا حول مصيـــر الـــروح بعـــد المـــوت، يعتبـــر اعمـــق واشمـــل تفكيـــر قـــام بـــه الفـــلاسفـــة فـــي ســـيـــاق البحـــث عـــن ماهيـــة الـــروح ومصيـــرهـــا بعـــد المـــوت الـــذي لايخلـــو مـــن التأثيـــر.

" الواضـــح للفلسفـــة اليونانيـــة في صياغـــة فكرة خلـــود النفـــس مـــا الـــذي ينبغـــي ان يكـــون عليـــه موقـــف الفيلســـوف الحق ازاء المـــوت

ان الفيلســـوف الحق يســـعـــى الـــى المـــوت والاحتضـــار دومـــا لانـــه يســـعـــى وراء الحقيقـــة"

وحيث ان الجسد عائـــق لتحقيـــق المعرفـــة لان حواســـنـــا تشوش رويتنـــا العقليـــة القادرة وحدهـــا على رويـــة نور الحقيقـــة فان بلـــوغ المعرفـــة الحقـــة يغـــدو ممكنـــا فحسب حينمـــا تتحـــرر النفـــس من اغـــلال سجـــن المـــوت وهذا هـــو الموت عند افلاطـــون" (١)

وبلـــوغ المعرفـــة الحقـــة عنـــد ابن سينـــا هـــو رويـــة الكـــائن الاول ، هـــو اللـــه (٢)

فتأثيـــر هـــذه الرويـــة الفلسفيـــة العاليـــة هـــي التي ابعـــدت ابن سينـــا عن الاقـــرار بـــوجود عذاب القبـــر كونـــه يستند على فكـــرة اعادة احيـــاء الجسد بعد المـــوت.

١- جاك شورون الموت في الفكر الغربي ،المجلس الوطني للثقـــافـــة والفنـــون والاداب بالكويـــت ١٩٨٤ ص ٥٥.

٢- Avicenne, Directives et remarques, op cit P489

احيـــاء الجســـد بعـــد الموت

هـــذه الفكـــرة البســـيطة التي يصعب البرهـــان عليهـــا عقليا بعكـــس خلـــود الـــروح المستنـــد علـــى مبدأ ميتـــافيزيقـــي محـــض يستحـــق الجـــدال العقلـــي، والمحاجـــة الفلسفيـــة ومنـــذ كيـــف ان فكرة افـــلاطون تـــؤثر علـــى فكـــر الغزالـــي وابـــن تيميـــة المعادييـــن للفلســـفة الشـــئ الذي لا يمنعهـــم من الايمـــان وباقـــرار فكرة "الـــروح سجينـــة الجســـد" (١) بينمـــا ينكـــر الفلاسفـــة عـــذاب القبـــر فان موقـــف المعتزلـــة لايخلـــو من الشكوك في حقيقـــة وجـــوده ويـــذكـــر ابـــن القيم الـــرأي هـــذا:

" ان النعيـــم والعـــذاب لايكـــون الا علـــى الـــروح وان البـــدن لاينعـــم ولايعـــذب وهـــذا تقـــوله الفـــلاسفـــة المنكـــرون لمعاد الابـــدان وهـــؤلاء كفـــار باجمـــاع المسلميـــن ويقـــوله كثيـــر من اهـــل الكـــلام مـــن المعتـــزلـــة وغيـــرهم الذيـــن يقـــرون بمعـــاد الابـــدان لكنهم يقولـــون لايكـــون ذلـــك في البـــرزخ وانمـــا يكـــون عنـــد القيـــام من القبـــور لكنهم هـــؤلاء ينكـــرون عـــذاب البـــدن فـــي البـــرزخ فقـــط ويقولـــون ان الارواح هـــي المنعمـــة او المعذبـــة في البرزخ فاذا كـــان يـــوم القيـــامة عذبـــت الـــروح والبـــدن معـــا وهـــذا القـــول لطوائـــف من المسلميـــن مـــن اهـــل الكـــلام والحديـــث وغيـــرهم .(٢)"

١- هـــذه الفكـــرة تؤســـس موقـــف المتصـــوفـــة مـــن علاقـــة الروح بالجســـد . ان حلـــول الـــروح في الجســـد بالنسبـــة لهـــم امتحـــان لهـــا لانالجســـد يلهيهـــا عـــن الرغبـــة فـــي بلـــوغ اللـــه باتباعـــه ملاذ الدنيـــا ومغرياتهـــا فالمـــوت هـــي تحريـــر لهـــذه الـــروح لتلتقـــي عالم السعادة بقربهـــا انظـــر: Louis Massignon, Akhbar El Halladj Lib. Vrin, Paris, 1975

٢- ابـــن القيم الجوزية، الروح في الكلام على ارواح الامـــوات و الاحيـــاء، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧٩، ص ٥١ .

وغيرهم "

فالمعتزلة اذن لايسلم بعضهم(١) بمعاد البدن في البرزخ ، وانما معاد الابدان والارواح معها لايكون الا في اليوم الاخر . وحجتهم في ذلك عقلية ، نورد بعضها بما ذكره ابن القيم " قالوا فانا نكشف القبر فلا نجد فيه ملائكة عميا صما يضربون الموتى بمطارق مرجديد . ولانجد هناك حياة ولاثعابين ولاثيرانا تتأجج ولو كنا حالة في حالة من الاحوال لوجدناه لم يتغير ولو وضعنا على عينيه الزئبق ورأسه الخردل لوجدناه على حاله وكيف يفسخ بصره او يضيق عليه ونحن نجده بحاله ونجد ماحته على حد ما حفرناها لم يزد ولم ينقص وكيف يسع ذلك اللحد الضيق له وللملائكة ، وللصورة التي تؤتيه اوتوحيه قال اخوانهم من البدع والضلال وكل حديث يخالف هذا بمقتضى العقول والحس يقطع بتخطئه قائله قالوا ونحن نرى المصلوب على خشبة مدة طويلة لايأكل ولايجيب ولايتحرك ولايتوقد جسمه نارا ومن افترسته السباع ونهشته النسور وتفرقت اجزاءه في اجواف السباع وحواصل الطيور وبطون الحيتان ومدارج الرياح كيف تمثال اجزاءه مع تفرقها وكيف يتصور مسألة الملكين لمن هذا وكيف صفه يصير القبر على هذا روضة من رياض الجنة او حفرة من حفر النار وكيف يضيق عليه حتى تلتئم اضلاعه"(٢)

١ـ القاضي عبدالجبار في كتاب طبقات المعتزله يقول " ان هذا الامر انما انكره اولا نرا بن عمرو وكما كان من اصحاب واصل فانوا ان ذلك ما انكرته المعتزلة وليس الامر كذلك لان المعتزلة رجلان : رجل يجوز ذلك كما وردت به الاخبار والثاني يقطع على ذلك واكثر اصحابنا يقطعون على ذلك ص٢٠٢ ـ والحقيقة ان بعضا من المعتزلة ينفون عذاب القبر بينما القاضي عبدالجبار ومن شايعه المعتزلة يؤكد ويقر بوجوده .

٢ـ نفس المرجع ص٦٢ .

تلتئمه انتلاثه "

ان هذا الموقف الواقعي ازاء عذاب القبر يلاقي ومازال يلاقي ردا عنيفا من قبل الائمة المتعبثين بالاندوكينة فالتساؤل المحير الذي يثيره عذاب القبر انعنصرين يدور حولهما التساؤل ،الروح والجسد فالروح غير مرئية بينما الجسد مرئي وملموس ماديا فاذا كانمصدر حركة لايستطيع انيراها الانسان كذلك انه ليس كل من يموت يدفن ، فهناك من تفترسه السباع وتهشم اجزاءه فلايمكنللروح انتحرك جزءا واحدا ولو كان كذلك لكانت الروح ارواحا مجزئة (١) وهذا منافي للتعاليم الاسلامية وحجج الفلاسفة ورجال الدين فيماهية الروح علىانها غير قابلة للتجزئ.

فما كان رد ابنالقيم :

- " الامر الاول - " ان يعلم انالرسل صلوات الله وسلامه عليهم لم يخبروا بما تتخيله العقول وتقطع باستحالته بل اخبارهم قسمان : احدهما - ماتشهد بهالعقول والفطر.

الثاني : مالاتدركه العقول بمجردها كالغيوب التي اخبروا بها عن تفاصيل البرزخ واليوم الآخر وتفاصيل الثواب والعقاب ولايكون خبرهم محالا في العقول(...) والنفوس لاتفرح بالمحال ، وقال تعالى (يأيها الناس قد جاءتكم موعظة منربكم وشفاء لما في الصدور وهدىورحمة للمومنين قل بفضل الله وبرحمته)فبذلك فليفرحوا والمحال لايشفي ولايحصل به هدى ولارحمة ولايفرح به ، فهذا اخر من لم يستقر فيقلبه خبر ولم تثبت له علىالاسلام قدم وكان احسن اقواله الحيرة والشك (٢)

فما كان علىابن القيم الا ان يلتجئ الىالتفسير اللاهوتي لماطرح له من اشكال منقبل ماتفوه به المتكلمونوالفلاسفة حول عذاب القبر وهو ان يدعونا الى الاكتفاء بالايمان بها منحيثهي منعالم الغيبيات وماالانسان بقادر علي بلوغ معرفتها "ان فالحية تلدغ الميت في القبر كحال النائم الذيرأى حلما والحية تلدغه وهويتألم بذلكحتى نراه يصيح فينومه يعرق جبينه وقد ينزعج من مكانه ، كل ذلك يدركه من نفسه ويتاذى به كما يتاذى اليقظان.

١- ابنالقيم ذاته يقر بعدم تجزء الروح منحيث هي جوهر غير مادي. ونفس الشيء نراه عند الفلاسفة والمتكلمين. وفيهذه الحالة، فان اي جواب يستند الىالنص القرآني وحده دون الحجة العقلية فانه يعجز عن الاقناع.

٢- ابنالقيم ص٦٢.

كما يتأذى اليقظان وهو يشاهده وانت ترى ظاهره ساكنا ولا ترى حواليه حية والحية موجودة في حقه غير مشاهد واذا كان العذاب في ألم اللدغ فلا فرق بين حية تتخيل او تشاهد (١) " هذا كذلك رد في نفس الموضوع من الغزالي الذي سلك نفس المسلك لما حصل له من مأزق للرد على الحجج الواقعية التي اوردها المتكلمون والفلاسفة نفيا لعذاب القبر .

لكن رغم ما اوقعه المتكلمون والفلاسفة نفيا لعذاب القبر . من مأزق فان الفكرة الاولى فكرة الاسلام الرسمي هي التي انتصرت لبساطتها وسهولة نفوذها في عقول العامة

هل كل ميت يجوز بعذاب القبر ام ان هناك اصطفاء لعذاب القبر اسباب .

يقول ابن القيم " ان هناك المجمل من الاسباب : الجهل بالله وارتكاب المعاصي ، فان عذاب القبر وعذاب الآخرة اثر غضب الله وسخطه على عبده .

واما المفصل : فهو النميمة الاستبراء من البول ، ارتكاب السبب الموقع للفتنة بين الناس ولو كان صادقا ، الصلاة من غير طهارة (٢) " ويؤكد الغزالي " ان عذاب القبر يحضر للمغضوب عليهم " . (٣)

واما من كانوا من الشهداء والرسل (٤) فقد نجوا من عذاب القبر اضافة الى الاطفال الذين لم يبلغوا سن الرشد وتكون الحياة في القبر قصيرة جدا حسب ما أقر به الجرجاني وبعضهم من يقول يدومها اربعين يوما بالنسبة للكافر في حين لا تزيد عن ثمانية ايام بالنسبة للمؤمن ، وهناك اراء تتكلم عن دوامها دوام رمضة الميت ، وهناك من يتحدثون ، عن ان المؤمن يتسع قبره ، مشارف الجنة وتفتح له نافذة يتأمل من خلالها على النعيم الذي وعده الله به اما الكافر فينمه القبر حتى يكسر اضلاعه وهذا استنادا الى احاديث نبوية

١ـ الغزالي احياء علوم الدين ص٤٥٦ .
٢ـ ابن القيم ص٧٧
٣ـ الاحياء ص٤٧٠
٤ـ الشهداء والرسل لا يلاقون عذاب القبر لان ارواحهم تتعهد بقرب الله فور موت الاجساد لتستقر في الجنة .

وهذا استنادا الى احاديث نبوية .
طبعا حتى يوم القيامة والبعث الاكبر " اذا مات احدكم عرض عليه مقعده غدوة وعشية ان كان من اهل الجنة فمن الجنة وان كان من النار من اهل النار فمن النار ويقول هذا مقعدك حتى تبعث اليه يوم القيامة" وحديث اخر " عذاب الكافر في قبره يسلط عليه تسعة وتسعون تنينا ، هل تدرون ما التنين ، تسع وتسعون حية لكل حية تسعة رؤوس ينفخون ويلحسون وينفخون في جسمه الى يوم يبعثون "(١)

تدل هذه الاحاديث انه لا انقطاع للحياة في القبر حتى ساعة البعث لكن اين مستقر الروح في هذه الحالة ، الشهداء مكانهم الجنة " ارواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح في الجنة حيث شاءت ثم تأوى الى تلك القناديل فاطلع اليهم ربهم اطلاعه فقال هل تشتهون شيئا ، قالوا اى شيء تشتهي ونحن نسرح في الجنة حيث شئنا ففعل بهم ذلك ثلاث مرات ، فلما رأوا انهم لن يتركوا من ان يسألوا قالوا يارب نريد ان ترد ارواحنا في اجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة اخرى فلما رأى ان ليس لهم حاجة تركوا "(٢)

كما اسلفنا القول فان الشهداء معفون من عذاب القبر ومأواهم الجنة حتى يوم البعث وهذا بحديث النبي (ص) واضافة الى الآية " ولاتحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتا بل احياء عند ربهم يرزقون "

ويبدو ان كافة المومنين يرون نفس المصير ، سئل النبي عن أرواح المومنين فقال " في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت قالوا يارسول الله وأرواح الكفار قال محبوسة في سجين (٣)

ومعنى هذا ان الارواح تبقى حية بعد البعث الاول ، فمنها من تلاقي العذاب ، ومنها من تتمتع بالنعيم .

وهناك بعض من الإراء سردها ابن القيم .

قال كعب ارواح المومنين في عليين في السماء السابعة وأرواح الكفار في سجين في الارض السابعة تحت جند ابليس .

١ـ ذكره الغزالي في الاحياء ج ٤ ص وفي حديث اخر يذكره سليمان الاشقري في كتابة القيامة الصغرى " عن ابي هريرة أن الرسول(ص) اخبر ان الملكين يقولان للعبد المومن بعد ان يجيب الاجابة السديدة " قد كنا نعلم انك تقول ذلك ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعا في سبعين ، ثم ينور له فيه ثم يقال له ثم

تحت جنـــد ابليـــس .
وقالـــت طائفـــة ارواح المؤمنيـــن ببـــئر زم زم وأرواح الكفار في بئـــر برهـــوت .
وقال سلمان الفارسي أرواح المؤمنين في برزخ من الارض تذهب حيث شاءت وأرواح الكفار في سجين وفي لفظ عنه نسمة المومن تذهب في الارض حيث شاءت . وقالت طائفـــة اخرى منهم ابن حزم مستقرها حيث كانت قبل خلق اجسادها "(١) فكلها أراء مختلفـــة حول مستقر الروح لكنهـــا تتلاقـــى في كونها رواح الطاهرة في نعيم والارواح الكافرة في عذاب اليم .
وهنـــا رأى ابي عمر بن عبد البـــر في شرح حديث النبي (ص) ان احدكم اذا مات عرض عليه مقعده بالغـــداة والعشي ان كـــان من اهل الجنـــة فمن اهل الجد ، وان كان من اهل النار فمن اهل النار يقال له هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامـــة ، قال وقد استدل بـــه من ذهب الى ان الارواح على افنيـــة القبـــور (....) وقال والمعنى عندى انها قد تكون على افنيـــة قبورها الى على انها تلتزم ولاتفارق افنيـــة القبـــور كما قال مالك رحمه الله انه بلغنـــا ان الارواح تسرح حيث شاءت (٢)
فاذا كانت على افنيـــة القبور ، فانه لايعني انها تستقر فيها وهنـــاك من يجعل مستقرها هذا مؤقتـــا سبعة ايام من يوم دفن الميت لاتفارق ذلك (٣)
وبأخذ ابن القيم برأيه الخاص في هذه المسالـــة ، مخالفـــا ماسبقـــه ودائما انطلاقا من القرآن والسنـــة مقتربا من رأى السالف الذكر . فاذا استقرت في الافنية فان ذلك موقت لما للروح من حريـــة في الانتقـــال ، فحيـــن يدفن الميت " يفسح القبـــير للمومن ويقبض على الكافر فاذا أراد المومـــن تبشيـــر اهلـــه بما راى فيقال له اقعد هنا مقعدك ولايدل ذلك على ان الروح في القبـــر ولاعلى فنائه دائمـــا من جميع الوجوه بـــل لها اقران واتصال بالقبر وفنائه وذلك القدر ومنها يعرض عليه مقعده فان للروح شأنا اخر تكون في الرفيـــق الاعلى في اعلى عليين ولها اتصـــال بالبدن بحيث اذا سلم المسلم على الميت رد الله عليه روحه فيرد علـــى السلام وهي في الملأ الاعلى وانما يغلط اكثر الناس في هذا الموضع حيـــث يعتقد ان الروح جسم مايعهد في الاجسام التي اذا شغلت مكانا لم يمكن ان تكون في غيره وهذا غلط محـــض بل الروح تكون فوق السموات في اعلـــى عليين وترد الى القبر فترد السلام وتسلم بالمسلم (...) فاما ان تكون سريعة الحركة والانتقال كلمح البصر واما ان يكون لمحل فيها بالقبر وفنائه بمنزله شعاع الشمس وجرمها في السماء وقد تبث ان روح الناثم تصعد حتى تخترق السبع طباق وتسجد لله بين يدى العرش ثم ترد الى جسده "
تبرز من النص هذا فكـــرة انه لاستقرار للروح في مكان وتبقـــى في موضع تتجلى فيه فكرة البرزخ بوضوح فهي لاتفارق ربها الالعـــودة الى ربها الميت بالحياة ويبقى الميت حتى في البرزخ يلاقي الرب تارة ومنتبها الى سلام الاحياء على الارض .
هذا يتحقق بالحركـــة المستمرة للروح بين الرب والقبر ، كما ان ابن تيمية المعروف بوفائه الى التعاليم الاسلامية الاولى يعبر عن نفس الفكرة قائـــلا :

---

١ ابن القيم الجوزية القسم ص ٩
٢ ابن القيم ص ٩١

قائلا :

" ان الروح تنفصل بعد مفارقة البدن خلافا لضلال المتكلمين واذا تصعد وتنزل خلافا لضلال الفلاسفة : وانها تعود الى البدن وان الميت يسأل فينعم او يعذب كما سأل عنه اهل السؤال وفيه ان عمله الصالح او السيء يأتيه في صورة حسنة او قبيحة " (١)

وبهذا نكون قد عرضنا لاهم الاراء التي طرحها مفكرو الاسلام حول عذاب القبر فمنهم من لا يقر به من الفلاسفة وجل المتكلمين الاشاعرة ومعتزلة واستقرينا عند ائمة السنة و المخلصين للتعاليم الاولى التي وضعها القران و ما اتت به السنة . حيث انها الاراء المسيطرة على الساحة الوعي الديني في الاسلام .

١- ابن تيمية ، مجموع الفتاوي ، مكتبة المعارف بالرباط بدون تاريخ ص ٢٩٢ .

- سؤال القبر كما اتى به الاسلام وما تعرف عنه العامة -

يقر الاسلام انه فور وضع الميت في القبر يأتيه ملكان منكر ونكير (١) ليسئلاه سؤلان او ثلاثة لأكثر عن ربه ، عن دينه وعن الرجل الذى ارسل للأمة (رسول الله ص) ، فان اجاب وكان مؤمنا بالايجاب ، وان كان كافرا فانه يجيب بالسلب حتما فيضربه احدهم بين الاذنين بهزوة .

والخيال الاسلامي غني بالصور المرتبطة بسؤال القبر ، وان اجاب العبد المومن بالاجابة الحسنة عند ذاك " ينادى مناد في السماء : ان صدق عبدى ، فافرشوه من الجنة ، والبسوه من الجنة ، وافتحوا له بابا الى الجنة ، قال : فيأتيه من ريحها وطيبها ، ويفسح له قبره مد بصره ، قال : ويأتيه (وفي رواية ، يمثل له) رجل حسن الثياب طيب الريح ، فيقول ابشر بالذى يسرك (ابشر برضوان من الله وجنات فيها نعيم مقيم) هذا يومك الذى كنت توعد ، فيقول له : (وانت فابشر بخير) من انت فوجهك الذى يجيء بالخير ، فيقول انا عملك الصالح (فوالله ما علمتك الا كنت سريعا في طاعة الله بطيئا في معصية الله ، فجزاك الله خيرا) ، ثم يفتح له باب من الجنة وباب من النار ، فيقال : هذا منزلك لو عصيت الله ، ابدلك الله به هذا فاذا رأى ما في الجنة ، قال رب عجل قيام الساعة ، كيما ارجع الى اهلى ومالى (فيقال له اسكن) (٢) .

والمومن هنا وحسب الشرع الاسلامي لايجد من غيث ولاسند الا ما عمله وهذا تبيان لعدالة الله للمتلقي المسلم انه لايثيب ولايعذب دون سبب وفي كثير من الايات والاحاديث نجد هذا التوكيد على ان للعبد الا ما سعى انه لايأخذ من زائل هذه الحياة الا ما عمل سواء صالحا اوسيئا كما سنطرق هذا الموضوع في موضوع الحساب والمحاسبة .

وسنرى كيف ان الكافر يلقي عكس ما يلقاه المؤمن ، اذ انه يسيء الاجابة حتما لانه ليس بمستطاعه الكذب .

١- القصة العبرية لاتجيز الا ملك واحد هو " غزرئيل " عزرائيل ونحن نعرف ان هذا الملك لايظهر الا يوم الحساب بعد القيامة .

٢- عمر سليمان الاشقر - القيامة الصغرى واليوم الاخر - قصر الكتاب البليدة ١٩٩٠ ص ٥٤ نقلهما عن البخاري ، ازار -

EL BOKHARI, TRADITIONS Islamiques, Maisonneuve Paris, 1973.

بمستطاعه الكذب .

" ينادي منادي في السماء ان كذب ، فافرشوا له من النار ، وافتحوا له بابا الى النار ، فيأتيه من حرها وسمومها ، ويضيق عليه في قبره حتى تختلف فيه اضلاعه ، ويأتيه (في رواية) : ويمثل له رجل قبيح الوجه ، قبيح الثياب ، منتن الريح ، فيقول :

، (ابشر بالذي يسوؤك ، هذا يومك الذي كنت توعد ، فيقول: (وانت فبشرك الله بالشر) ، من انت فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر ، فيقول انا عملك الخبيث ، (فوالله ماعلمتك الا كنت بطيئا عن طاعة الله سريعا الى معصية الله) ، (فجزاك الله شرا ، ثم يقيض الله له اعمى أصم أبكم في يده مرزبة ، لو ضرب بها جبل كان ترابا فيضربه حتى يصير بها ترابا ، ثم يعيده كما كان فيضربه ضربة اخرى فيصيح صيحة يسمعه كل شيء الا الثقلين ، ثم يفتح له باب من النار ويمهد من فرش النار فيقول : ربي لاتقم الساعة " (١)

ويجمع الفقهاء على ان هناك اسبابا اخرى تدعو الى عذاب الانسان في قبره وهي عدم التنزه عن البول اى عدم التطهر من البول وصاحب الكلام القبيح (٢) كما يعذب في قبره شخص لم يرد ما عليه من ديون (٣).

لكن حكاية عذاب القبر هذه وان كانت مدمجة في التصور الشعبي للموت الا انها تحكى باسلوب اخر وطريقة اخرى.

١- نفس المرجع ص٥٤- 00 مرة اخرى يبين هذا الحديث الطريقة التعليمية المعتمدة على التجسيم في تبيان عمل الله حتى يكون اكثر فهما للمتلقي بدوى الصحراء ، فالعمل ان كان سيئا او صالح مع كونه فعل انقنى يعاد احياءه على كل رجل يتخذ صفة هذا العمل اوذاك يكون قبيحا شاء ، اذا كان العمل سيئا ووجه بشر وخير ، اذا كان العمل حسنا وسنرى كيف ان المعتزلة هم يعارضون فكرة الميزان كون انا لاعمال لايعاد خلقها يوم الحساب فهي زائلة تحصر وتكتب فقط .

٢- EL BOKHARI, OP. cit, P. 439.

٣- انظر سليمان الاشقر مرجع مذكور .

الا انها تحكي بأسلوب آخر وطريقة اخرى .

" يأتي الميت ملك واحد اسمه عزرين (عزرائيل) ومعه هراوة يسأل الدفين عن ربه من هو وعن الرسول من هو ان كان مؤمنا يجيب بالايجاب ويرد لحاله وان كان جوابه سلبا يضرب بالهراوة حتى يدك في عمق الارض السابعة وتماد له الكرة "

يلاحظ في هذه الحكاية كيف ان المؤمن لايثاب في القبر (١) وعلى النقيض من ذلك يعذب الكافر اشد العذاب وعوض ان يستحيل الى تراب نجد يده في العمق السابع للارض .

ولكن فوق كل هذا يبقى سؤال القبر حيا ثابتا في اعتقاد الناس .

١ـ الحكاية الشعبية لاتذكر ثواب المؤمن بل عذابه فقط حيث كل من مات عذب على ما فعله من اعمال وان تذكر في كتب الدين الرسمي بل يكفي انها تخالف الاداب العامة حكاية شعبية تتكلم عن امرأة عادت من العالم الاخر وقد قطع اصبعها (السبابة) لانها كانت تلعق به القدور .

لقد ذكرنا ان عائشة رضي الله عنها سألت النبي (ص) عن عذاب القبر عندما كلمتها عنه يهودية فكان جوابه بالايجاب طبعا . لكن هذا الحديث يشير لنا بان اليهود ايضا يعتقدون في عذاب القبر ولكن اطلاعنا على التوراة وكل الاناجيل ولم نعثر على صريح هذه العبارة اى عبارة " عذاب القبر " او على الاقل ليس بالمفهوم الذى اتى به الاسلام فالديانة اليهودية في معظم كتابات انبيائها لاشر حتى الى البعث (١) كما اتى في الاسلام والمسيحية بكل تفاصيله

نجد اليهود قبل تأسيس مما ليكهم اوفي المعتقدات التي سبقت ذلك يشيرون الى " الظل" وهو عالم الاموات تحت الارض يعيش فيه هؤلاء تعيسين حزنين (٢) على شكل ضلالات يخاف الناس ان تعود بينهم تعكر صفو عيشهم . ولانجد اشارة الى بعث الاموات الا في بعض النصوص اليكم بعضها .

" في ذلك الزمان يقوم ميكائيل الرئيس العظيم القائم لبني شعبك ويكون وقت ضيق لم يكن منذ كانت امة الى ذلك الزمان وفي ذلك الزمان ينجو شعبك كل من يوجد مكتوبا في الكتاب وكثيرون من الراقدين في تراب الارض يستيقظون بعضهم للحياة الابدية وبعضهم للعار والرذل الابدى " (٣).

وفي نص اخر من سفر المكابيين يهودا يعود من معركة انتصر وعندما هب هو ورجاله لدفن موتاهم رعى المعركة وجد هؤلاء تحت ثيابهم اصناما ويتواصل النص

" فوجدوا تحت كل واحد من القتلى انواطا من اصنام يمنيا مما تحرمه الشريعة على اليهود فتبين للجميع ان ذلك كان سبب قتلهم (...) ثم جمع من كل واحد تقدمة مبلغ مجموع الفي درهم من الفضة فأرسلها الى اورشليم ليقدم بها ذبيحة على الخطيئة ، وكان ذلك من احسن الصنيع واتقاه لاعتقاده قيامة الموتى "(٤).

١- انظر في سفر الجامعة " الاحياء يعلمون انهم سيموتون اما الاموات فلا يعلمون شيئا وليس لهم من جزاء بعد في شيء مما يجرى تحت الشمس" الفصل (٩-٥)

٢- André Caquot, La Religion d'israel in: Histoire de religions I, Encyclopedie de la pleade Flamarion, Paris, 1970, P. 415

٣- سفر دانيال الفصل (١٢- ١- ٢).

٤- التوراة سفر المكابيين الاول ، الفصل الثاني عشر (٣٨) ويستمد الكاتوليك حججهم للبرهنة على وجود " المطهر " بين الجنة والنار ضد خصومهم البروتستانت المعارضين لهذه الفكرة نذكر ان القران يذكر المطهر في الربع الاول من سورة الاعراف .

قيامة الموتى ".

وفي بعض الاسفار فان القيامة لايستحقها الا المؤمنون المخلصون لله " "قال انك ايها الفاجر تسلبنا الحياة الدنيا ولكن ملك العالمين اذا متنا في سبيل شريعته فسيقيمنا الحياة الابدية لحياة ابدية (١) ثم بعد ذلك " ولما اشرف على الموت قال جندا مايتوقعه الذي يقتل بأيدي الناس من رجاء اقامة الله له ، اما انت فلاتكون لك قيامة للحياة (٢) "" وهنا نستجلي التابع التصفوي للقيامة فلا يقوم كل الناس بل بعضهم من المؤمنين بالله والمائتون في سبيل شريعته ويبقى سفر أعمى واضحا فيما يخص القيامة " ستحيا امواتك وتقوم اشلائي ، استيقظوا باسكان التراب ". (٣)

فتأتي بعد ذلك المسيحية لتدخل اليقين بمعتقد القيامة حيث انها تصبح تشتغل كديانة حول محور الموت والانبعاث في حياة ابدية " في رسالة القديس بولس الاولى الى اهل كورنث وها اني اكشف لكم سرا انا سنقوم كلنا ولكن لانتغير كلنا في لحظة وطرفة عين عند الموت الاخير فانه سيهتف فيقوم الاموات عادمي الفساد ونحن نتغير لانه لابد لهذا الفاسد ان يلبس عدم الفساد ولهذا المائت ان يلبس عدم الموت ومتى لبس هذا الفاسد عدم الفساد ولبس هذا المائت عدم الموت فحينئذ يتم القول الذي كتب ان قد ابتلع الموت في الغلبة "(٤).

يوجز هذا النص القيامة بكل تفاصيلها والانتظار على الموت (٥) بعد ثواب الابرار ومعاقبة الاشرار ، وبالاضافة الى الاخرة او القيامة كما اسلفنا فان هناك عالم آخر تجتمع فيه الاموات ويسميه انجيل يوحنا بالجحيم وفي الاناجيل المكتوبة باللاتينية يسمى (Hades) نسبة الى هاديس اله النار الاغريقي .

في هذا العالم يلاقي الاموات عذابا بالنار ويقول لوكاريديه ان الجحيم هو مرادف للشئل اليهودي الذي تكلمنا عنه وهو موطن ظلال

١ـ سفر المكابيين الثاني الفصل (٧ ـ ١ ـ ١٣)
٢ـ نفس المرجع الفصل (٧ ـ ١٤ ـ ١٥)
٣ـ سفر اشعيا فصل (٢٦ ـ ١٣)
٤ـ رسالة بولس الثانية للكورنتس الفصل (١٥ ـ ٥١ ـ ٥٥)
٥ـ نجد نفس هذه الفكرة اي فكرة الانتصار على الموت في الاسلام كذلك فالمسيحية تقضي على الموت بعد الحساب مباشرة . حيث يرمى بالموت في حوض من النار . في الاسلام تاتي في هيئة كبش ثم يذبح

وهو موطن ظلال الاموات وقد ذكر هذا المعتقد في كتاب الملوك الاول حيث يزور رسول الملك احزى "التوابع" الساحرات لتطلب ظل صموئيل واذا بهذا الشبح يخرج ظلـــه من عمق الارض .

لكـن فكرة الجحيم في المسيحيـة لاتعتبر جوهرية في المسيحية ولايشار لها الا في رسالة بولس التي ذكرنا ،ولكن معتقد الظل راسخ في اليهودية كما ذكرنا آنفا وان تكلمت اليهودية عنه لعامة فانها لم تقله في الفراغ بل يعبر عن اعتقاد سائر لدى اليهود ونظلة تفترض ان عذاب القبر الذى تكلمت عنه المرأة اليهودية هو المعتقد المرتبط بالظل وعالم الظلال التعس وانما النبي (ص) اعطاه استنادا الى بعض آيات قرآنية قد ذكرناها بعد اعتقاديا آخر حيث الايمان به اساسي في المعتقد الاسلامي ولد لاحظنا كيـف نشأت بشأنه جدالات واسعة في اوساط مفكري الاسلام .

ويصبح عذاب القبر في الاسلام معطى جديد في البنية المعتقدية التي اسسها الانبياء الاوائل عبر نبواتهم والرسل وكتاباتهم مرورا بالمسيحية التي اغنت الخطاب الميتافيزيقي حول الموت والحياة والخطيئة وتسببها في الموت والمآسي والابتعاد عن الخطيئة والفوز بالجنة والخلود والانتصار على على الموت ، ويأتي الاسلام ليعمق هذا التصور ويملأ ثغـرة لـم تملأها المسيحية ولم تجب عليها كمشكلـة ونفى مصير الروح مباشرة بعد الموت . فالاسلام يفتح القبـر ليزوره الله عن طريق ملكيين يسألـعن طريقهما الميت حول قاعدة ايمانه بالله والرسول .

هذا البعد يعتبـر تكملة لما جاءت به المسيحية حيث ان عذاب القبـر يحـل القيامة او جزء منها في الحياة مباشرة فالمسلم بهذا الشكـل يتعايش مع الموت يوميـا يوميا لانه اذا آمن بعذاب القبر فان الموت تمثل في كل عمل يقوم به وتصبح عنصر ترهيب وترغيب على محاسبة الـذات والتفكر الدائم في مصير الانسـان مباشرة عندما يوارى التراب .

الـــــــفـــرع الثـــــالـــث

ـ ظـــاهـــرة الحـــــاب والمحـــاسبـــــة ـ

أ ـ الديـــن لغـــويـــا :

الدين في اللغة العربية ،مصطلح لاينطبق الا على الاسلام • كونـــه يعكس معنى اقتصاديا لعلاقة دائن بمستدين •

لسان العرب يشرح كلمة دين على انها "الجزاء والمكافئة" يـوم الدين يوم الجزاء ،وفي المثل كما تدين تدان اى كما تجازى تجازى بفعلك وبحسب ماعملت" "وفي حديث سلمان ان الله ليديـــن الجماء من ذات القرن اى يقتص ويجزى والدين الجزاء (...) والديـــن الحساب ومنه قوله تعالى : ذلك الدين القيم : اى ذلك الحساب الصحيـــح والعدد المستوى" (١) •

وانطلاقا من هذا الشرح المستفيض لمفردة دين ،نستخلص ان الدين الاسلامي يعكس حقيقة ممارسة وايمان خاصيين ومتميزين ، عن باقـــي الديانات • الديانة او الدين تعني "العلاقة" باللاتينية "وهـــو مجموع المعتقدات المذاهب والممارسات والمؤسسات التي تؤسس علاقة الانسان بقـــوة الميـــة" (٢) • فالدين اذن بالنسبة للمسلمين وهذا وارد في اللغة هو الجزاء هو الحساب وبالنسبة للغرب هو العلاقة • والتـــي تجد تعبيرها في العقيدة المسيحية فيحب الله "تشبثوا بمحبة الله" (٣) تقول الاناجيل • اما اما الاسلام بما ينطوي عليه من شرائـــع ووصايا يلزم عن طريقها الشخص بعبادة الله • فانه يقيم علاقة دائـــن بمستدين بين الله والمؤمن العبد • وكأن علاقة المؤمن بربه هي علاقة

١ـ لسان العرب ص ١٠٤٤ •

٢ـ Pluridictonnaire Larousse, 1983 "Religion en latin: Religare = relier" mettre en relation

٣ـ Nouveau Testament, ed. Lucerf, 1983, P. 518

هـــي علاقـــة اقتصادية . فوجود الانسان وحياته على الارض نعمة من عند الله والاســـلام يرفـــع الانسان فيا على الدرجات من دون المخلوقات كلها بما فيها الاقرب اليه والملائكـــة . ويجعـــل فيه خليفـــة على الارض وصيا على مخلوقاته الاخرى . " والاسلام جاء ينظم هذه الحياة بين الناس وبينهم وبين الله (١)" لما يحتـــله من شرائع وضوابط اخلاقية تنظم المجتمع موسا به والعلاقات بينا فراده . قواعد تضبط تصرفه في الارض حتى لايفسد فيها . " هو الذي جعل لكم الارض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشـــور "(٢).

وهناك آيات كثيرة تذكر الانسان بنعم الله عليه " فلينظر الانسان الى طعامه ، انا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الارض شقا ، فأنبتنا فيهـــا حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبا ، متاعا لكـــم ولأنعامكم "(٣) . وأكثر من ذلك لقد أمر الله الملائكة أن "" اسجدوا لآدم فسجـــدوا " (٤) .

اذن الاسلام يجعل الانسان فيا على مراتب المخلوقات وخليفة الله على الارض . لكن بالمقابل أمره بان يعمل ما فيه خير للناس والقيام بالعمل الصالح . ان يؤمن بالله ولايفسد في الارض ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر (٥) حسب ضوابط اخلاقية معلنة في القرآن . فيقدر النعم والتفضيل الذي منحه اياه ويعظمه هذه النعمة التي اتاها اياه . كان امره بطاعته وتقواه عظيما .

وبالتالي فان الثواب والعقاب يكون بقدر الطاعة والتقوى . فمـــن عمل صالحا واكثر منه فله الثواب ونعيم الجنة ومن كان مشركا ، مفســـدا مخالفا للشرع يلاقي العقاب ومصيـــره عذاب النـــار .

وعلى هذا النحو تتشكل صورة العلاقة التي تربط العبد بربه . فكـــل عمل صالح يقابله قدر من الاجور يدخرها المومن لان الاسلام يرتكز علـــى مقولتين لخلاص المومن : التوحيد مغـــلي واحدية الله " ومحاسبة : ميـــزان الاعمال التي يفصـــل فيها الا الله " (٦) . وعلى هذه العاكلة تتوضح العلاقة الاقتصادية في علاقة البشـــر بالله وكأن المومن مفروض عليـــه حساب اعماله ومراكمة الاجور دون حدود ليلقى سعادته في اليوم الآخـــر .

١ـ الميتشرق حبيب وعادل العوا ، علم الاديان وبنية الفكر الاسلامي منشورات تعديدات بيروت ١٩٧٧ ، ص ١٣٣ .
٢ـ ســـورة الملك ، الآية ١٥
٣ـ ســـورة عبس الآية ٣٢
٤ـ ســـورة البقـــرة الآية ٣٤
٥ـ ان هذه المقولة " النهي عن المنكر والامر بالمعروف " وجدت لنفسها تعبيرا مؤسساتيا واصبحت تلعب دورا سياسيا ودينيا حيث سميت هذه المؤسسة بالحسبة يقوم الخليفة بممارسة سلطاته عبرها وهي شرطة سيسي رئيسها المحتسب " مكلف بمراقبة الموازين وعدم الغش في المعاملات والاسواق " انظر Dominique Sourdel, L'Islam medieval PUF, Paris 1979, P141 Jean Paul Charnay Sociologie religieuse de l'Islam, Sindbad, Paris 1978, P 78.

يـــــوم القيامـــــة ٠٠ وهنا يظهـر لنا التابع الكمي للاعمال
اذ توازن شرها بخيرها ٠ اذ ان لكل مومن ما سعى يحاسب باعمالـــه٠

الصغائر والكبائر مقاسات ومقادير لدرجات الاعمال السيئة التي وقع عليها التحريم وكل عمل سيء عوقب عليه بالحد . اما الصغائر فهي الذنوب التي تغفر بعد توبة مرتكبها . ويورد خليل الميس في مقدمة تحقيقه لرسالة ابن نجيم ست تعريفات للكبيرة استخلصها من كتابات الفقهاء ورجال الدين من أئمة المسلمين .

١- الكبيرة : ما لحق صاحبها عليها بخصوصها وعيد شديد بنص كتاب وسنة .

٢- الكبيرة : كل معصية اوجبت الحد .

٣- ومنها الكبيرة : ما نص الكتاب على تحريمه أو وجب في جنسه حد ، وترك فريضة تجب فورا والكذب في الشهادة والرواية وكل قول خالف الاجماع .

٤- الكبيرة : كل جريمة تؤذن بقلة اكتراث صاحبها بالدين ورقة الديانة مبطلة للعدالة وكل جريمة لاتؤذن بذلك لاتحبط العدالة .

٥- الكبيرة : كل محرم لعينه فهي عنه لمعنى في نفسه .

٦- ومنها : انه لاحد لها يحصرها يعرفه العباد "(١)

ونظرا لعدم الاتفاق على تعريفها مرجيث انها عرفت تحت ست ست صفات ذكرناها . فان رجال الدين لتفادي التباسات الفهم أجمعوا على تعدادها واحدة واحدة حسب درجة أهميتها رجوعا الى النص القرآني والسنة . ففي حديث نبوي تعد سبع من الكبائر فقط " اجتنبوا السبع الموبقات (...) الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله الا بالحق واكل الربا ،وأكل مال اليتيم ،والتولي يوم الزحف وقذف المومنات المحصنات الغافلات "(٢).

هذا ماذكر في الحديث حرفيا وفي احاديث اخرى متفرقة ذكرت اعمالا سيئة أخرى في عداد الكبائر ،فهناك من اكتفى بالسبع المذكورة في الحديث وهناك من انقص بعضا منها القاضي عبدالجبار يذكر خمسا .

١- زين الدين احمد بن الشيخ ابراهيم بن نجيم المصري ،شرح رسالة الصغائر والكبائر ، تحقيق ، الشيخ خليل الميس ،دار الكتب العلمية بيروت ،١٩٨١ - ص - ٥٩ ١٠ -

٢-ردا على المرجئة الذين يقتصرون في الكبائر على الشرك وحده وكل ما دونه صغيرة " مرجئين " المغفرة من سعة رحمة الله .

يـــذكر خمســـا .
" وقل المتمسكون بالوعيد وتعلقوا بقوله تعالى : ان الله لايغفر ان يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء " فيقال لهم : انه تعالى قد توعد بالعقاب اهل الصلاة خاصة بقوله : (والذين يرمون المحصنات) الآية وبقوله (إن الذين يأكلون اموال اليتامى ظلما) فيجب اثبات الوعيد فيهم ،فأوجب في قوله تعالى :(ان الله تعالى لايغفر ان يشرك به ويجعل قوله مادون ذلك لمن يشاء) على صنائـــر العاصي " (١) .

بالاضافة الى الشرك بالله الذي يعتبر اكبر الكبائر فان القاضي عبد الجبار ردا على المرجئة واستنادا على الاية " وتجتنبوا كبائر ماتنهون عنه" يضيف اربعا وهي :
١ـ قـــذف المحصنـــات .
٢ـ القتـــل العمدي للمؤمـــن .
٣ـ الادبـــار في المعركـــة .
٤ـ اكـــل مال اليتيم .

وقيل هي خمس عشرة وقيل هي الى السبعين وقيل سبعمائة (٢) .
هذا وقد صنف الشيخ العلاني جزءا جمع فيه ماورد في الاحاديـــث النبوية من انه كبيـــرة :
١ـ الشـــرك ٢ـ الزنـــا ٣ـ الزنا او فاحشة بحليلة الجار
٤ـ الفرار من الزحف ٥ـ اكـــل الربا ٦ـ اكل مال اليتيـــم
٧ـ قـــذف المحصنـــات ٨ـ الســـحر ٩ـ الاستطالة في عـــرض المسلم بغير حق ١٠ـ معاداة الـــزور ١١ـ اليمن الغموس
١٢ـ الشنيعـــة ١٣ـ السرقـــة ١٤ـ شرب الخمر ١٥ـ استحلال بيـــت الله الحرام ١٦ـ نكث الصفقـــة ١٧ـ ترك السنة ١٨ـ التقـــرب بعد الهجرة ١٩ـ اليأس من روح الله ٢٠ـ الأمن من مكر اللـــــه
٢١ـ منع ابن السبيل من فضل الماء ٢٢ـ عدم التنزه عن البول
٢٣ـ عقوق الوالدين ٢٤ـ التسبب الى شتم الوالدين ٢٥ـ الاصرار فـــي المعصيـــة " (٣).

ويذكر ابن نجيم المصري اكثر من مئتين كبيرة (٤) اضافة الى ماذكرنا لكن الذي يجمع عليه الفقهاء هي الخمس والعشرون التي ذكرنا لاخلاق بشأنها وان زيد عليهـــا .

١ـ القاضي عبدالجبار فضل الاعتزال الدار التونسية للنشر ١٩٨٦ ص ١٥٤
٢ـ نفـــس المرجع ص ١٠
٣ـ نفس المرجع نفس الصفحـــة
٤ـ هناك ارادة من الفقهاء لوضع حد لكل الاعمال السيئة او على الاقل لمعظمها وذلك لمراقبة الفرد الخارج ومعاقبته على اي عمل يهدد النظام الاجتماعي اذ لاتعتمد الشرع على الجانب الديني فقط بل الى الجانب الزاجر .

وان زيـــد عليهـــا .
وقد اســـس بعض الفقهاء اثـــر بو لوجيا حقيقية لتفسيـــر سيكولوجيـــة الكبائـــر .

يذكر جان بول شارنيه في كتابه " سوسيولوجيا الاسلام " رأى ابا عذبة في كتابه " الروضة البهية فيما بين الاشاعرة والماتريدية " والذى نقلـه عن ابي طالب المكي . ان الكبائر سبعة عشـر ،
أربعة باللسـان : اليمن الغموس ، قذف المحصنات ، شهادة الزور ، الكذب
ثلاثة عن طريق البطن / الهتم : شرب الخمر ، اكل مال اليتيم ، اكل الربا
اثنان عن طريق الجنس : الزنـا واللـواطة .
اثنـان باليـــد : ضيعة : القتل ، السرقـة .
واحدة بالرجل : الحركـة : الهـروب عند الزحف
واحدة بالجسم : عقوق الوالدين : ، اربعة تصدر من القلب مباشرة كمركز للادراك الحسي : الشرك ، الاصرار على المعصية ، الامن من مكر اللـــه اليأس من رحمة الله " (١)

هذا الرأى يذكر سبع عشرة كبيرة خلافا للذى يذكر الخمس والعشرين والذى يلقي كما أنفنا الذكر اجماع الفقهاء ، الا ان الجديد فيه انه يذكر الكبيرة والعمو الذى يقـوم بها لايناح طريقة التحكم فـــي الجسم واجتناب الاعمال السيئة بالتحكم فيه وترويضـه .

ان تبيان الغطاء المنفذة للسيئة الكبيرة يعود الى حرص الفقهاء على الترهيب عندما ، وانطلاقا من خلفية البعث الجسماني (٢) ، والذى مفاده ان المؤمن والكافر يلقيان ثوابهما وعذابهما بمجازاة البدن . فاذا كان مؤمنا تلذذ نعيم الجنة بطعام شهي رطب ، ونكاح الحوريات الساحرات مثلا ، اما اذا كان كافرا ، فان جلده يلقـي لسع حرارة النار الحامية .

١ـ Jean Paul Charnay, Sociologie de l'Islam, op. cit, P. 129
٢ـ مفهوم المعاد الجسماني ينم عن نظرة واقعية للمعاد لايمكن او لم يكن ممكنا ، استيعاب المعاد مستقبلا لعامة ذات المعرفة المحدودة الا بهذا الشكل المجسم البعيد عن التجريد .

حرارة النسار الحاميـــة ٠

هذا من جهة ومن جهة اخرى فان الاسلام يدخل مفهوم الحد في ممارسة الشرع وتسيير شوون المجتمع باتبـــاع تعاليمه ،وتعاليم الشرع ،فالسارق حيث هي اليد التي قامت بفعل السرقة وهي كبيرة فان العضو المنفذ هـــو الذي يطبق عليه الحد : يقطـــع ٠ ويجلد من زنى (١) لان جسمه كلـــه قد اشتهى ٠ ويقتل من قتـــل والحقيقة تعكس هذه الممارسة مقولـــه السن بالسن والتي اتت بها الديانات العبرية الاولى ٠

لنرجع الى القول بان تبيان الاعضاء المرتكبة للكبائر هو تذكيـــر بما يلحق الجسم من عذاب سواء في تطبيق الحد عن طريق الموســـــة القميعية او ما يلحق الجسم من عذاب اليوم الآخر ٠ وتتجلى من خلال هذه النظرة ارادة المجتمع الاسلامي في ترويض ومراقبة الجسد لابعاده عـــن كل ما من شأنه تهديد النظام الاجتماعي ،وتوازن الجماعـــة الاسلاميـــة

وأما الصغائر من السيئات ،فتقع دون ما ذكر من الكبائر ،اذ لم يذكر عليها حد ، ولم تسقط عليها مقاسات الحرام ،ويقول ابن نجيم في هـــذا السياق " واما الصغائر لما فرغ من ذكر الكبائر وشرع في عد الصغائـــر فقالوا هي النظر الى المحرم ـ قال الله تعالى " يعلم خائنة الاعيـــن" وقال الله تعالى " قل للمومنين يغضوا من ابصارهم ويحفظوا فروجهـــم ذلك ازكى لهم ان الله خبيـــر بما يصنعـــون "٠(سورة النساء)

اذن ابن نجيم يعتبر الصغيرة كل من خرج عن عداد الكبائر وللغزالـــي رأي اخر فلنستمع لما يقـــول :" فالكبيرة من حيث اللفظ منهم ليس لـــه موضـــوع خاص ،في اللغة ولا في الشرع وذلك لان الكبير والصغير مـــــن الصفات وما من ذنب الا وهو كبير بالاضافة الى ما دونه ،وصغير بالاضافـــة الى ما فوقـــه ،فالمجامعة مع الاجنبية كبيرة بالاضافة الـــــى النظرة صغيرة بالاضافة الى الزنا ،وقتل يد المسلم كبيرة الى ضربه صغيـــرة بالاضافة الى قتلـــــه (٢) ٠

١ـ المسيحية تستقبح مثل هذا العقاب على الزاني ،الانجيل يذكر حادثة تدخل فيها المسيح ما نعا الناس من رجم احدى الزانيات قائلا :" من منكم لـــم يرتكب اثما في حياته فليرجمها الاول "
٢ـ الغزالـــي ،الاحياء ، مرجع مذكور ،ص ١٩ ٠

يعكس هذا الرأي عند الغزالي رؤية عقلية في التفريق بين الكبيرة والصغيرة ربما يعود ذلك الى تكوينه الفلسفي والارجح هو حرصه في عدم التسامح مع اي مرتكب سيئة خاصة واننا نعرف انه كتب مؤلفه احياء علوم الدين في ظروف سياسية واجتماعية متأزمة وبايعاز من الخليفة المستظهر بالله (١) العباسي . زد على ذلك تعصب الغزالي الديني والذي طبع آخر مراحل حياته .

وما دمنا قد حصرنا الصغائر وعددنا الكبائر فماهو اذن مرتكب الكبيرة او الصغيرة في ادبيات الائمة والفقهاء

"ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه يكفر عنكم سيئاتكم " (٢)

هذا خطاب موجه الى المؤمنين حتى يبتعدوا عن الكبائر ، وان فعلوا ذلك فان الله يغفر الصغائر من الذنوب . ومعنى ذلك ان مرتكب الكبيرة ، لايغفر له الا بالتوبة اما اكبر الكبائر وهي الشرك بالله والخروج عن طاعته وعبادة آلهة غيره فان لاكبيرة فوقها . وصاحبها كما يشير اليه عمله كافر اللهم الا اذا تاب . اما مرتكبي الكبائر الاخرى فان الفقهاء وعلماء الكلام قد اختلفوا في نعت اصحابها أ مؤمنين هم ام كفار .

أول من طرح هذا الاشكال هم الخوارج ، حيث رأوا ان عليا في مواجهته لمعاوية وجيشه (٣) قد اخطأ عندما أمر جنده بغمد السيوف عندما رفع رجال معاوية المصاحف على رؤوس السيوف ، اذ قالوا :" بمبدأ من اخطأ فهو كافر وطلبوا من علي ابن ابي طالب ان يقر على نفسه بالكفر ، وان يتوب من كفره " ويقول الاستاذ مصطفى غرابي " ان مبدأ مناخطأ من المسلمين فقد كفر كان سببا مهما في نشأة الفرق الكلامية (٤).

١- C.F. Henri Laoust, La politique de Ghazali, Paul Geutner Paris, 1970, page 98

٢- سورة النساء الآية ٣١

٣- واقعة الجمل كانت بمثابة القاعدة لمنعرج تاريخي جديد في تاريخ الاسلام حيث ظهر الخوارج كتيقين لمشروعين للملة في الاسلام لا الانتماء الى بيت الرسول ولعصبية بني أمية كفيلة باخفاء الشرعية على الملة فالامام يختاره الامة ولايشترط فيه الا ايمانه بالاسلام

٤- مصطفى غرابي ، تاريخ الفرق الاسلامية ، مطبعة علي صبيح/القاهرة ١٩٥٩ ص ٢٧٦ .

الفرق الكلامية ".

ونستطيع فيهذا الموضوع ذكر ومناقشة بعض من الاراء لبعض الفرق فابالاضافة الى الخوارج المكفرين لمرتكب الكبيرة وحجة في الحديث النبوي " لايسرق السارق وهومومن " بمعنى انمرتكب الكبيرة عند فعلته يفقد ايمانه ويصبح في عداد الكفار ويرى المعتزلة ان ذلك محال.

يقول حسن البصري عن مرتكب الكبيرة لاهو بكافر ولابمومن ،لكن واصل ابن عطاء يقول على انه لامومن ولاكافر ،ولا منافق لكن فاسق (مذنب غير تائب) وجبت عليه التوبة قبل الموت (١) وجميع المعتزلة يتفقون على هذا المبدأ.

فالمعتزلة انفسهم " يتفون هذه المسألة في مجال الشرع ولادخل للعقل فيها مادامت تعالج قضية الثواب والعقاب ،فالانسان خاضع لاوامر الشرع فهو اما من الذين يثابون او المعاقبون فاذا الى فاذا انتمى الى الاوائل كان له ثواب عظيم او ثواب صغير ،واذا استحق الثواب العظيم فهو اما انسان اوليس بانسان. ان لم يكنانسانا فهو ملاكا او مقربا واذا كان انسانا فانه رسولا اونبيا. واذا كان ثوابه اصغر فانه مومن ، تقي واذا كان من المعذبين فانه يستحق العذاب الاكبر فيكون ذلك لانه مشرك كافر ، واناستحق العذاب الاصغر فان ذلك جزاء لكونه فاسق. اذن ينتج عن ذلك ان كلمرتكب كبيرة ،ليسمى مومنا كافرا ،منافقا ،لكن فاسق. وبناء على ذلك لايلقي عذاب هولاء لان حاله وسطا ،من لايقبل هذا الطرح : اما ان يقول ان مرتكب الكبيرة منافق وهذا غير صحيح ،لانا لمنافق هو من يتظاهر بالاسلام ويخفي كفره وهذا ليس حال مرتكب الكبيرة ،او يقول انه كافر كما يقول الخوارج ،وهذا غير صحيح ايضا لان الكافر لايتزوج بالمسلمات ،لايرث ،ولايدفن في مقبرة المسلمين ،واما ان نقولمومنا مثل المرجئة فنقول انه يستحق نفس ثواب المومن وان نقول انه مسلم مومن ونحن نعرف ان صحابة الرسول كانوا يعرفون عن مرتكبي الكبائر "(٢).

يناقش فيهذا النص الدوبك واصل ابن عطاء آراء كل من الخوارج والمرجئة والتي تعتبر متطرفة بالنسبة للرؤية الاسلامية ،والتي تجنح الى الوسط فالخوارج اعتبروا عليا مرتكب كبيرة وكفروه ،والمرجئة الذين يعتبرونه مومنا مثل سائر المومنين (ويقصد به مرتكب الكبيرة بصفة عامة)

وبناء على ذلك ينتقد المعتزلة وجهتا النظر الاثنتان ويعتبرون مرتكب الكبيرة فاسقا (٣) مادامت التوبة تنتظره كحط لخلاصة والتكفير عن معصيته ولكن يلبق عليهم الحد.

١- Henri Laoust, Les SCHismes dans L'Islam. Sned Alger 1979, P.53.
-Abderrahmane Badawi, OP.cit, P31

٢- لتوكيد هذه الفكرة هذه المقولة يرجع القاضي عبدالجبار في فضل الاعتزال الى قول عمار بن ياسر " لاتقولوا كفر اهل الشام ولكن قولوا ظلموا وفسقوا " ص/ ١٦٠ -

ولكن يطبق عليهم الحد في الحياة الدنيا .

فأما التوبة فيرى ابو علي الجبائي " ان التوبة على الصغائر مفروضة من جهة العقل كما من وجهة نظر الايمان(١) ويرى ابنه أبو هاشم ان التوبة على الصغائر ليست مفروضة من وجهة نظر الايمان لان التوبة مفروضة لتفادي الضرر بينما لاضرر في الصغائر . اذن لاضرر في التوبة عنها والبرهان على ذلك ان لاتأثير لها الا في انقاص الثواب . اذا كانت ذنوب الانسان اكبر من صالحات اعماله فانه مرتكب الكبيرة والتوبة عندئذ واجبة ليسقط العذاب .

فالتوبة هي الندم على فعل الشر لانه شر وجب العزف عنه وتركه (٢) وللوصول الى وعي التوبة كظاهرة دينية واجتماعية كطقس للتطهر ، فان المومن في الاسلام يقوم بمحاسبة النفس في حياته قبل الموت لملاقات الحساب الاخير حساب الله .

فمحاسبة النفس واجب المسلم البالغ لله يعمل بكل ما أوتي من قوة لمحاربة وكبت غرائزه والابتعاد عن كل ما من شأنه تهييجها ، ومحاربة الآثام ، والعمل على محوها بالصلوات اليومية ، والصيام في غير موضع رمضان ، وما الى ذلك وفيما يلي شرح لمبدأ المحاسبة في الاسلام .

١- Abderrahmane Badawi, OP. cit, P196

٢- Ibidem

ج- المحاسبة والحساب (*)

ان محاسبة الاعمال في الاسلام كما سبق وان اوضحنا تندرج ضمن علاقة دائن وهو الله ومستدين وهو العبد المومن . فالدائن خلق الانسان وسخر له هذا العالم وبالمقابل فرض عليه طاعته وتقواه بالاضافة تحت تعاليمه والتي جاءت بسجل للاعمال السيئة كما اوردناها سابقا وهي الكبائر التي طلب من المومنين اجتنابها بكل الوسائل وحسبها حسابا معدودا ، ومن جهة اخرى جعل لكل عمل حسن اجرا مقابله ويحلل الغزالي في "الاحياء" المحاسبة وكانها علاقة تجارية بين عقل العبد ونفسه وسنرى فيما بعد كيف ينطبق هذا التحليل على علاقة العبد بربه يقول الغزالي:

١- في كتابه ابن عربي يذهب آسين بلاثيوس الى ان المحاسبة النفس كانت تمارس في وسط البرهان المسيحيين اذ يقول " فهما لاينكران المسيحية لها الفضل في اعطائها حق المواطن في حياة الزهد وتنظيمها باهتمام بالغ ، وقد جمع الاب فتريجان كمية هائلة من المواضع المتعلقة بمحاسبة النفس ، استخرجها من كتابات الرهبان والآباء الشرقية والغربية ولديهم جميعا - القديس بسيل ، والقديس يومنا كليما غوس ، وكسيانوس يتجلى بوضوح انهم حين يوصون بهذه الرياضة لايفكرون في محاسبة النفس التي هي مدخل لاغنى عنه للاعتراف الديني وانما يشيرون الى عمل من اعمال التقوى اليومية ، ففي كل ليلة قبل النوم يجب على النفس ان تستعيد ذكر ما فعلته وما اهملته في يومها ، حتى تحاسب نفسها امام الله على ما ارتكبته من مساوي ونقائص وتعمل على تلافيها في المستقبل " كما ان الرهبان المسيحيين على غرار الغزالي يشبهون محاسبة النفس ب" بحساب الارباح والخسائر ، والدخل والخرج ، الذي يجب على كل تاجر ناجح ان يقوم به" ولكن مفهوم المحاسبة في الاسلام يتسع تطبيقه على كل افراد الامة ليغدو موسسة ذات طابع اجتماعي سياسي واقتصادي ايضا رأى تجسيده التطبيقي في موسسة " الحسبة " كما سنرى فيما بعد .

المصدر :
آسين بلاثيوس ، ابن عربي ، ترجمة عبد الرحمان بدوي ، وكالة المطبوعات دار القلم ، الكويت ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ١٥٧ .

يقـــول الغزالي :

" اعلم ان مطالب المتعاملين في التجارات (١) المشتركين في البضائع عند المحاسبة سلامة الربح وكما ان التاجر يستعين بشريكه فيسلم اليه المال حتى يتجر ثم يحاسبه فكذلك العقل هو التاجر في طريق الآخرة وانما مطالبه وربحه تزكية النفس لان بذلك فلاحها (...) وانما فلاحها بالاعمال الصالحة والعقل يستعين بالنفس في هذه التجارة اذ يستعملها ويستخرها فيما يزكيها ،كما يستعين التاجر بشريكه وغلامه الذي يتجر في ماله وكما ان الشريك يصير خصما منازعا يجاذبه في الربح فيحتاج ان يغارطه اولا ويراقبه ثانيا ويحاسبه ثالثا ويعاقبه او يحاسبه رابعا ،فكذلك العقل يحتاج الى مغارطة النفس اولا فيوظف عليها الوظائف ويشرط عليها الشروط ويرشدها الى طريق الفلاح ويجزم عليها الامر بسلوك تلك الطرق ثم لايغفل عن مراقبتها لحظة (...) ثم بعد الفراغ ينبغي ان يحاسبها ويطالبها بالوفاء لما شرط عليها ،فان هذه تجارة ربحها الفردوس الاعلى " (٢).

يوجز هذا النص علاقة العقل بالنفس . فالعقل هو العارف والمدرك للشرائع والقواعد الدينية ،يراقب النفس التي هي بمثابة الشريك في التجارة يتغارط معها على ان لاتقارب الحرام والسيئات على ان تدخر اقصى الحسنات ،لكن النفس أمارة بالسوء فوجب عليه عندئذ محاسبتها وعقابها وفي هذه العلاقة التجارية بين العقل والنفس ،خدمة العلاقة اوسع وهي علاقة العبد بربه . ويعتبر الاسلام ان تدقيق الحساب " مع النفس اكثر من تدقيقه في ارباح الدنيا "(٣) .

ويتجلى عندئذ احتقار الاسلام لكل ماهو دنيوي ان لم يكن في خدمة اليوم الاخر .

١ـ قد تكون فكرة الحساب قريبة من الممارسة التجارية التي طبعت العرب قبل الاسلام ، وابان الحضارة العربية الاسلامية. وبالتالي فان شرح التعاليم الدينية "للعامة" كان بالضرورة يشابه المماثل بالنماذج البسيطة ،وفي مسألة علاقة الله بالعباد ،تغالب مشابهة هذه العلاقة بالتجارة. كما شبه الغزالي علاقة العقل بالنفس بعلاقة التاجر بشريكه ، على غرار من سبقه من رهبان المسيحية .

٢ـ الغزالي ، الاحياء ، ج ٤ ، ص ٣٦٠ .

٣ـ نفس المرجع ، نفس الصفحة .

في خدمة اليوم الآخر.

فمطلوب من العقل التعامل مع النفس لترشيدها للطريق السليم طريق الايمان بالله وطاعته سلوكا ومعاملة باجتناب الاعمال السيئة والسعي الى الكسب، كسب الاعمال الحسنة وادخار الاجور التي توصل الفرد الى نيل مرضاة الله وثوابه. ولم يأت باكثرها تعبيره العقاب.

فالمؤمن يعمل دائما في حياته وقد حضرت في وعيه الموت ويوم القيامة باستمرار. وفي عدة آيات تضاف عبارة السعي والكسب والمفاهيم اخلاقية لكل امرئ ما سعى "لا يكلف الله نفسا الا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت"(١) ويتأكد تشابه السعي الاقتصادي والسعي الاخلاقي مثل ما أتي به الاسلام هو استعمال هذين المفهومين لمعالجة الظاهرة الاقتصادية عند الاشاعرة وبعض من فلاسفتهم وأشهرهم ابن خلدون في مقدمته (٣).

في سورة المطففين يوعد الله المؤمنين بنعيم الجنة. لمن عملوا الصالحات وينصح الناس على التنافس على الاعمال الصالحة، لكسب حسنات واجور اكثر للفوز بالجنة.

" وفي ذلك فليتنافس المتنافسون " (٢). وهذه الدعوة توضح اكثر لزومية ادخار اكبر عدد ممكن من الحسنات من قبل العبد واستباق امثاله في الاستكثار من الاجور لكسب مرضاة الله.

لذا فان الاسلام بالاضافة الى تأسيس قواعد شرعية تعاقب وتجازي الفرد تحت سلطة الدولة، المجتمع والجماعة فانه يحرص على تنشئة الفرد بحيث يختلج ايمانا بالله والذي هو في الحقيقة اختلاج لطاعة واحترام هذه القواعد باتجاه احترام النظام والحفاظ عليه (٥) وأعادة انتاجه.

فالمحاسبة تنعكس اجتماعيا وتتجلى عبر مؤسسات القمع شرطة حبس وقواعد تشريعية التي ما هي الا امتداد لشرع الله المنصوص عليه في القرآن والسنة. وأيديولوجية تستعمل فزع الموت ونار الجحيم العالم الآخر. كما تستعمل نعيم الجنة لتأسيس سيكولوجية اجتماعية، تجد ترجمتها عبر حرص الفرد المسلم على اجتناب كل ما حرم الله وكل ما من

١ـ سورة البقرة الآية ٢٨٦

٣ـ انظر مقدمة ابن خلدون والدراسة القيمة للفكر الاقتصادي الذي احتوته في كتاب : عبد المجيد مزيان ـ النظريات عند ابن خلدون ـ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ١٩٨١م.

٢ـ سورة المطففين ١٠ الآية ٢٦

٤ـ Cf. Louis Gardet, Les hommes de l'Islam ed. Complexe, Bruxelles, 1984, notamment le chapitre intitulé "Communauté musulmane et son idealité"

وكـــل ما من شأنه تهديد توازن الجماعة واهتزاز النظام " اذ يتحدد سلـوك المسلمين اتجاه بعضهم البعض سلوكهم في الحياة الاجتماعيـة في شكل سلوك محلل ومحرم من قبل الاله ، في سلوك مأجور عند الله وسلوك معاقب عليه من قبله " (١) .

فالعبد كما ينص عليه الاسلام مسلم (٢) من جهة ومؤمن من جهـة اخرى . مسلم يحترم القواعد الخمس ويتبع شرع الله واولياءه القائمين بهذه السلطة على الارض ، ووجوب طاعتهم . فهم قائمون بتسيير أمور الجماعة انطلاقا من النصوص الدينية قرآنا وسنة . يطبقون الحد على كل فاعل معصية ومن جهـة فالاسلام الحقيقي هو اختلاج الايمان لدى العبد ، يراقب على اثره نفسه المعرضة للزلات والغواية الشيطانية ، وذكر الله في كل وقت والابتعاد على سائر المحرمات . واذن فان النظام الاخلاقي الشرعي (٣) في الاسلام يرتكز نظريا على هذا التوازن اسلام ـ ايمان ، هذا التـوازن الذي لم ير النور في الممارسة ابدا حيث كانت له عواقب وخيمة في حياة وتاريـخ المسلمين .

واذا كانت المحاسبة بين العقل والنفس تتجسد في الممارسة الاجتماعية للمسلم ، تجاه الله والجماعة (المؤسسة السياسية والشرعية) . فانها ترتكز على مخيال اجتماعي يمثل اساس وجود الفرد المسلم ، الا وهـو الحساب والعقاب في اليوم الاخر ، يحدد هذا المخيال مجمل هذه الممارسة التي تكلمنا عنها حيث يجمع الله الناس يوم القيامة للمحاسبة ليحاسبهم

١ـ محمد جعفر زين ـ التكنولوجيا والدولة ـ الفرابي ـ بيروت ١٩٨٥ ص ٤٩

٢ـ كل المذهب السني مبني على هذه الثنائية ـ ايمان / اسلام ـ ظاهر / باطن ، باتجاه الميول الى الباطن وهو عدم الاقتصار على القراءة السطحية للنص القرآني والاكتفاء بظاهر الشريعة بل البحث عن الباطن الى معرفة تتعدى ظاهر النص .

٣ـ لوصف المنظومة الاخلاقية في الاسلام يستعمل مرسيل بوازار في humanisme de l'Islam . هذا المفهوم ، يقترن القانون الشرعي في الاسلام بالمعيار الاخلاقي وجهان لعملة واحدة .

على اعمالهم ... لكل امرئ ما سعى ... كل فرد تفتح كتبه ليحاسب على ما سجل له من اعمال سيئة كانت ام حسنة والمجازاة على ذلك رتب ودرجات كل حسب عظمه او صغر العمل اكان صالحا اوسيئا وتتضح العلاقة التجارية بين العبد والاله عبر الموازين .

توزن الكتب وحسب رجحان الكفة يكون الثواب او العقاب فمن مالت كفة حسناته على حساب كفة السيئات كان "سعيدا" اى استحق الثواب وان عكس ذلك فانه يستحق العقاب" فاما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية " (٢) بمعنى ان مصيره عذاب النار. واختلف الفقهاء وعلماء الكلام والائمة في معنى الحساب فمن السيئات اكثر وحسنات اقل يدخل النار ومن اكثر من الحسنات على حساب السيئات يدخل الجنة ؟

يقول الغزالي :" فان الناس بعد السؤال ثلاث فرق (فرقة) ليس لهم حسنة (...) تبتلعهن النار وينادى عليهم (شقاوة) لاسعادة بعدها (وقسم اخر) لاسيئة لهم (...) يسرحون الى الجنة ، ثم يفعل ذلك باهل قيام الليل ،ثم بمن لم تشغلهم تجارة الدنيا ولابيعها عن ذكر الله (...) ويبقى قسم ثالث هم الاكثرون خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا وقد يخفى عليهم وليس على الله ان الغالب حسناتهم اوسيئاتهم ولكن يأبى الله الا ان يعرفهم ذلك ليبين فضله عند العفو وعدله عند العقاب" (٣) ويواصل بعد ذلك على انه يراعي الى اى جهة مالت الكفة ام من جهة الحسنات ام من جهة السيئات ولكل جهة حسابها وجزاءها ثواب اذا كانت للحسنات وعقاب للسيئات .

١- سورة القارعة الآية ٥ الى ٨
٣- ابو حامد الغزالي ، مرجع مذكور، ص ٤٧٣ .

يقول بهذا الخصوص الامام ابي يعلى الحنبلي « الله تعالى يضع ميزانا يوم القيامة توزن به الصحائف التي تكون فيها اعمال العباد مكتوبة وله كفتان و احدهما للحسنات وهي تهوى الى الجنة والاخرى للسيئات وهي تهوى الى النار ولسان يكلمه به ويخبره عما تزن به الحسنات ويجعل رجحان طاعاته علامة على انه من اهل الجنة وخفتها علامة على شقاوته » (١).

واذا كان كل من الغزالي وأبا يعلى الحنبلي وغيرهم من الائمة يقتصرون في شرح الحساب على فكرة الميزان المستوحاة من النص القرآني الصريح ، الذي ذكرناه سابقا ، ومن الاحاديث النبوية ، فان بعضهم وخاصة علماء الكلام المعتزلة نراهم تجاوزوا يقول القاضي عبدالجبار :

« ان الحسنات والسيئات هي الاعمال ، وقد ثبتت ولا يصح فيها الاعادة ولو صح فيها ذلك ان الله تعالى ذكره واراد به العدل (يقصد به الميزان والوزن) ـ٢ـ لما كان الميزان طريقا لمعرفة العدل ، وهذا لا يمنع من اثباتها وانما يمنع من دون ذلك » (٣) ودائما حول مسألة رجحان الكفة امن جهة الحسنات او السيئات ويكون على اثر ذلك العقاب او الثواب ويواصل « ليس في ذلك خبر قاطع فيجوز ان يجعل علامة كفة الحسنات النور ، وعلامة كفة السيئات الظلمة وقد يجوز غير ذلك من العلامات » (٤).

ومن المعتزلة ايضا من يجري عمليات حسابية بالناقص والزائد وحاصل هذه العمليات هو الذي يقرر مصير العبد . وأهم ما جاء في هذا الشأن هو الجدال الذي دار بين علي الجبائي وابنه ابو هاشم حول تقييم العقاب والثواب حيث ان مقادير الثواب تسقط بعضا من مقادير العقاب وأتى على لسان ابو علي الجبائي كما يلي :

١ـ ابو يعلى الحنبلي ، كتاب المعتمد في اصول الدين دار المشرق ، بيروت ١٩٨٦ ص ٢٧٠.

٢ـ ملاحظة من صاحب البحث .

٣ـ القاضي عبد الجبار ـ فضل الاعتزال ـ مرجع مذكور ص ٢٠٤ .

٤ـ نفس المرجع نفس الصفحة .

مـــا يلـــي :

" اذا قام الانسان مثـــلا بعمل صالح يستحق عليه ١٠ نقـــاط مـــــن الثـــواب ويقوم بعمـــل سيء يستحـــق عليه ٢٠ نقطـــة عقـــــابـــــا فانه يعـــود الى الله وحده ان يسقط العشر نقاط ثوابا من العشرين نقطـــة عقابا حيث لا يبقى للعبد سوى ١٠ نقاط عقابا " (١) .

ويرد عليه ابنه ابو هاشم انه ليس من صفات الله وانه ليس بوسعه الا ان يسقط عليه العشر سيئات مقابل حسناته فلا يبقى لديه الا عشرا من العقاب " (٢) .

فاذا كانا لا يتعارضان في مبدأ حساب الحسنات والسيئات فانهما فقط لا يتفقان على مشيئة الله في ذلك ، فاذا كان أبو علي يتركها الـــى مشيئة الله فان ابنه واثقة منه في رحمة الله وعدم اتصافه بالظلم (٣) فيرى ان يوسع الله ان يحسب العشرات حسنات باتجاه انقاص مـــا يقابلها من السيئات العشرين لكي لا يبقى منها الا عشر وعلى العموم يتجلى عبر هذا الرأي الميول لدى المعتزلة نحو تأسيس حساب رياضـــي حقيقـــي للافعال يعتمـــد العقـــل .

١ـ Abderrahman Badawi, op. cit, P.194.

٢ـ Ibidem

٣ـ من صفات الله انه لا يمكن ان يكون ظالما بل عادلا وهذا من الاراء المميزة للمعتزلـــة بخصوص صفات الله . بينما يرى الاشاعرة عكس ذلك تماما حيث لا تنقص حسنات الفرد من سيئاتـــه فمـــــن عمل سيئات اكثر عوقب بقدر ما حيث يدخل في الاعتبار حسناته والعقاب والثواب يتـــرك لمشيئة الله عكس ابن تيمية الذي يقر بان حسنات الفرد تخفف من عذابه وهذا رأي اقرب للمعتزلـــة .

وحسب الاعمال ودرجاتها وما ادخره العباد من حسنات وسيئات يكون ثوابهم وعقابهم بمقادير ودرجات كذلك فالجنة درجات والنار درجات وكل يكون هذه الدرجات بحسب اعماله .

د ـ الجنة والنار ودرجاتهما (١)

منطق الاستحقاق الذى نحن بصدده التكلم عنه يدخل حتى في ترتيبات سكني الجنة والنار يقول الغزالي :

" ثم ينبغي ان تكون خلع الفائزين متفاوتة الدرجات بحسب درجاتهم في الخدمة واهلاك المالكين اما تحقيق بجز الرقبة او تنكيلا بالمثلة بحسب درجاتهم في المعاينة وتعذيب المعذبين في الحقة والمدة وطول المدة وقصرها واتحاد انواعها واختلافها بحسب درجات تقصيرهم ، فتقسم كل رتبة من هذه الرتب درجات لاتحصى ولاتنحصر فكذلك فافهم ان الناس في الآخرة هكذا يتفاوتون فمن هالك ، ومن معذب مدة ومن ناج يحل بدار السلامة ومن فائز والفائزون ينقسمون الى من يحلون في جنات عدن او جنات المأوى او جنات الفردوس والمعذبون الى من يعذب قليلا والى من يعذب ألف سنة الى سبعة آلاف سنة وذلك آخر من يخرج من النار كما ورد في الخبر " (٢)

١ـ الجنة والنار فكرة ظهرت في الديانات المصرية القديمة لأوزريس الاله اوزريس يحاسب الناس حسب اعمالهم وعلى اثر ذلك يدخلون الجنة ان كانوا محسنين اتقياء والنار اذا كانوا مفسدين.

٢ـ ابو حامد الغزالي ج ٤ ص ٢٤ ـ وعن فكرة كل حسنة لها جزاءها من الجنة وكل سيئة لها جزاءها من النار فان الغزالي يستند الى حديث نبوي يقول محمد (ص) : " وعند خفة كفة الحسنات تقبل الزبانية وبأيديهم مقامع من حديد عليهم ثياب من نار فيأخذون نصيب النار الى النار ويعيده في ذلك الكاعرة حيث يرون صاحب الحسنات وكثير من السيئات يدخل الجنة بعفو الوقت بقدر حسناته ثم ينقل الى النار مقابل سيئاته .

وفي هذا الصدد استطعنا جمع بعض الاعمال التي تقابلها مستحقات من الأجور او الاثام من القرآن وأحاديث النبي (ص)

نوع العمل	الاجر المستحق او الاثم
ـ الدعاء الى الهدى	ـ أجر واحد + ١
ـ الدعاء الى الظلال	ـ إثم واحد +١
ـ " من قال " لا اله الا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير " في اليوم مائة مرة	ـ ثواب واحد + ١٠٠ حسنة ناقص ١٠٠ حسنة
ـ العمل الصالح في شهر رمضان	ـ حسنة واحدة x ٧٠٠ x ٢
ـ صيام رمضان	ـ صفر سيئات (تغفر كلها)
ـ من فطر صائما	ـ أجر واحد
ـ المجاهد في سبيل الله	ـ أجرا عظيما و١٠٠ درجة في الجنة
ـ من تصدق بناقة للقتال في سبيل الله	ـ ٧٠٠ ناقة يوم القيامة
ـ قوم غازية تنزو وتغنم	ـ ٢/٥ من أجورهم
ـ عبد اطاع سيده واحسن عبادة الله	ـ أجر واحد x ٢
ـ من اعتق جاريته وتزوجها	ـ أجر واحد x٢

المصادر :

ـ القرآن الكريم
ـ صحيح مسلم
ـ احياء علوم الدين (ابو حامد الغزالي مرجع مذكور)

وعلى حسب الاعمال يرتب الغزالي الناس يوم القيامة الناس درجات منهم من يعاقب الى مشاب يتصرف منها .

الرتب	المستحقات من العقاب والثواب
ـ الرتبة الاولى	ـ هالك آيس من رحمة الله ، جاحد مكذب بالله الدرك الاسفل من النار وآخر من يخرج منها بعد سبعة آلاف سنة .
ـ الرتبة الثانية	ـ مؤمن قصر في الوفاء بمقتضياته يتفاوت مكوثه بالنار من اليوم ، الاسبوع ، الى سبعة الاف سنة قد يحل حسابهم الى المناقشة او ضرب الصراط .
ـ الرتبة الثالثة	ـ المصابين ، المرضى ، المتوهين لم تصلهم الدعوة لسبب او لآخر وكذلك الصبيان مكانهم بين الجنة والنار .
ـ الرتبة الرابعة	ـ الفائزون ، العارفون اللامقلدون والمقربون السابقون ، الرسل ، الانبياء ، الاولياء ، الشهداء مصيرهم الجنة بدون حساب والجنة منازل وكل منزلة تستحق بدرجة قرب العباد باعمالهم الى الله .

وانطلاقا من النص السابق للغزالي يمكننا رسم درجات الجنة :

الجنة
- الدرجة العليا : الانبياء ، الرسل ، الشهداء يدخلونها بدون حساب
- الدرجة الثانية : المؤمنون النقاة من عملوا سوء الصالحات ، اولياء
- الدرجة الثالثة : لمن غلبت حسناتهم سيئاتهم ذاقوا النار حسابا لسيئاتهم ثم اسكنوا الجنة .

قراءة سوسيولوجية للوحتين تظهر لنا العلاقة المباشرة بين هذين المحاسبة ،وضرورة الالتزام اعطاء الانجام للجماعة الاسلامية ،والحرص على توليد النظام الاجتماعي ،الذي حددت النصوص قواعده ، عن طريق الاغراء بنعيم الجنة لكل عمل صالحا ، والوعيد بالنار لمن ارتكب السيئات .

يمكن انطلاقا من اللوح الاول اعمالا تصنف حسب وظيفتها على مستويين ماكروسوسيولوجي ومستوى ميكرو سوسيولوجي .

فالاعمال التي تعمل وظيفتها على مستوى ماكرو سوسيولوجي يمكن تصنيفها انطلاقا من اللوح كما يلي:

١- من قال " لااله الا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير في اليوم مائة مرة .
٢- الجهاد في سبيل الله والتصدق بناقة للقتال في سبيل الله الغزو والتنيمة .
٣- صوم رمضان والعمل الصالح في رمضان .

اما الاعمال التي تعمل وظيفتها على مستوى ميكرو سوسيولوجي فهي:
١- الدعاء للهداية .
٢- طاعة العبد لسيده ،وحسن عبادة الله ،عتق الجارية وتزوجها .
٣- افطار الصائم .
المجموعة الاولى من الاعمال مثابة بقدر اكبر من مستحقات الاجور والثانية بقدر اقل .

ذلك لان المجموعة الاولى من الاعمال تتعلق مباشرة بوجود الجماعة الاسلامية او لتنقل الامة :

- الجهاد في سبيل الله والمساعدة على الجهاد والغنيمة ، اعمال تساهم في فرض وجود الامة من حيث ان الجهاد هو توسيع لرقعتها ونصرا لمثلها وحمايتها من الغزو الخارجي " (١) .

- التذكير اليومي او مايسمى بالذكر لله الواحد هي ادماج وتأصيل متواصل للفرد في كنف الامة لان هذه الاخيرة لايشتد انجاعها الا حول محور الله الواحد .

- صوم رمضان والعمل الصالح اثناءه " ان صوم رمضان يربط رمزيا كل المومنين الذين يمتنعون عن الاكل والشرب حسب توقيت متشابه ، انه زيادة على ذلك دعامة للعبادات الاسلامية التي تفرض الصوم على الغني كما تفرضه على الفقير ، الزكاة موجهتها تساهم في هذا التصور من الوحدة والانسجام لدى الامة " (٢) .

اما المجموعة الثانية فتتمثل على مستوى ميكرو سوسيولوجي على مستوى العائلة والعلاقات الاجتماعية داخل الامة ، او الجماعة الاسلامية . وان كانت وظيفتها مثل الاولى هي دعم انسجام المجتمع الاسلامي واعادة انتاج العلاقات الجماعية بين المسلمين .

- فافطار الصائم - الهداية لله ،

- طاعة العبد لسيده وعبادته لله وعتق الجارية وتزوجها هي تدعيم علاقة التعاون والتناصر بين افراد الجماعة الاسلامية والقضاء تدريجيا على العبودية اذ لايحق لمسلم ان يجعل من اخيه عبدا واذا اعتق رقبة فله حسنات ، وان تزوج جاريته فانه ساهم في بناء المؤسسة الاولية .

١- Louis Gardet, Les hommes de l'islam, op.cit p. 84

٢- Marcel Boisard, L'humanisme de l'islam op. cit, p. 72

والتي تساهم بدورها في اعادة انتاج القاعدة البيولوجية للامة عن طريق الانجاب (١) . فكل فرد يولد في كنف الامة هو قوة باتجاه توسعها وتأكيدها .

والجنة بتقسيماتها ماهي الا انعكاس لحالة الامة في الحياة الدنيا ، فالذين يحتلون اعلى مراتب الامة يحتلون اعلى درجات الجنة رسل ، انبياء ، وشهداء . من لم يعملوا الا صالحا من الاولياء فلهم أدنى الدرجات من الانبياء والشهداء .

الاكثرون من الناس من اختلطت حسناته بسيئاته وكانت حسناته اكثر وهم العامة من الخلائق ، وفي كل درجة مراتب كذلك ، فالانبياء مثلا درجات " تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات " (٢) . وهكذا يرتسم نظام محاسبي يندمج فيه المؤمن كحافظ لكيان الجماعة الاسلامية عن طريق تطبيق مقولة النهي عن المنكر والامر بالمعروف وادخال نفسه في جدال يلعب فيه ايمانه دور المحاسب لكل افعاله في سبيل الاعمال الحسنة واتقاء الاعمال السيئة . الصرف عن كل مغريات الدنيا ، طمعا في نعيم الجنة ، يلقى فيه كل من حرم نفسه من مغريات الدنيا وكل ماحرم عليه في الدنيا . (٣)

١- حديث نبوي " تناسلوا تكاثروا حتى اباهي بكم الامم "
٢- سورة البقرة - الآية ٢٥٣ .
٣- يلقى الناس في الجنة حور العين منهن السبعين مقابل مجاهدة النفس على الزنا في الدنيا يجدو ديانا من الخمر مقابل عزفة عنها في الدنيا كذلك .

ـ الفصل الثاني

ـ أزمة الموت في المجتمع الحديث

ـ الفـــــــــــرع الاول ـ

ـ دافـــــــع المـــــوت / دافـــــع الحيـــاة ـ

يرجع الفضل الى الكشف عن الظواهر اللاشعورية في الحياة النفسية للفرد الى فرويد (١) الذى ابدع نظرية التحليل النفسي او ما اسماه هو كذلك " بعلم النفس الماورائي "
فبالاضافة الى الشعور فان هناك هيئة اخرى من المنظومة النفسية تتحكم في سلوك الانسان وهي اللاشعور .
وأهم هيئة في اللاشعور هي " الهو " الذى هو مستودع الدوافع والهو ليس له اتصال مباشر بالعالم الخارجي بل ان وظيفته النفسية لاتتحقق الا بارتباطه بهيئات اخرى سنطرقها فيما بعد .
وفي كتاب معالم التحليل النفسي يقول فرويد " وتنبط الغرائز البدنية في داخل الهو . وتتكون هذه الغرائز نفسها من امتزاج قوتين أوليتين وفي نسب مختلفة ومهما (أيروس وغريزة الهدم) .
وتتميز الغرائز عن بعضها البعض على اساس علاقتها بالاعضاء او بمجموعة من الاعضاء . والمطلب الوحيد لهذه الغرائز هو فقط الاشباع الذى يمكن الحصول عليه ببعض التغيرات المعينة التي تحدث في الاعضاء بمساعدة اعضاء موجودة في العالم الخارجي .

١ـ Jean Laplanche et J.B. Pontalis, Vocabulaire de la Psychanalyse, P.U.F, Paris, 1984, P.197

٢ـ ترجمة غرائز لاتفي بالمعنى المطلوب اذ لاتترجم الكلمة الالمانية التي تعني الدوافع لهذا نستعمل كلمة دافع بدل غريزة .

غير ان اشباع الغريزة اشباعا مباشرا وبدون اكثرات كما يطلب الهو قد يودى غالبا الى صراع خطير مع العالم الخارجي ،وقد يودى الى الهلاك " (١)

فالدوافع اذن لاتخضع لاى تقييد فهجانبا لهو الذى يؤطرها فوظيفتها الاساسية هي الاشباع باى ثمن دون الاكثرات لمخاطر العالم الواقعي . ولذا نشأ التعارض بين مطالب الهو ، والخاضعة لمبدأ اللذة ،والعالم الواقعي والذى يصطلح له في التحليل النفسي بمبدأ الواقع ،ويحدث التعارض بين هذين المبدأين بشكل يعرض للهلاك .

اذن أمامنا مبدأين " مبدأ اللذة وهوالذيقود ويحدد مختوى الهو ونزوعاته . ومبدأ الواقع الذى هو مبدأ ضابط للعمل النفسي يتظاهر ثانويا كتغيير لمبدأ يتمثل فيعدة تكيفات يتلقاها الجهاز النفسي : تطور الوظائف الشعورية ،انتباه محكم ،ذاكرة تبذل ،الضغنة حركية لفعل قصده تحويل مناسب للواقع ، ولادة الفكر ،والتي تمد " نشاط امتحاني ،باين تنقل كميات استثمار صغيرة الشئ الذى يوحي بالتحول منطاقة حرة الى طاقة مقيدة " (٢)
ويتمثل مبدأ اللذة في " مجموع الدوافع دافع الحياة ودافع الموت "

أ- دافع الحياة -
xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx
وهو مجموع الدوافع الجنسية الهادفة الىحفظ النوع ،ودوافع حفظ الذات وهي دوافع الانا .

١- فرويد،معالم التحليل النفسي ،د . م،الجامعية،الجزائر، ١٩٨٥،ص ١٢٥
فيهذا الموضوع يقول فرويد " العمليات التي تجرىفي الهو لاتخضع لاى قانون منطقي للفكر : فمبدأ التناقض بالنسبة لهذه العمليات لاوجود له "
" في الهو لاشيء سابق لمفهوم الزمن،لا وجودولاتأثير لمفهوم الزمن " ص٩٩ و ص١٠٠ من كتابه:

-Freud, Nouvelles conferences sur la psychanalyse, o.cit.
-Jean. Laplanche et J.B. Pontalis, op. cit, P.336

واذا كانت تتمثل الاولى في العملية الجنسية فان الثانية تخص حفظ الذات بالجوع بالعطش، طرح الفضلات.
ويجسمها فرويد تحت مصطلح أيروس نسبة الى اله الحب اليوناني وخاصة الدوافع الجنسية وحفظ الذات. او دوافع الايروس " هي عكس دوافع الموت لاتسعى فقط الى الحفاظ على الوحدات الحيوية الموجودة بلكن الى تشكيل انطلاقا منها لوحدات اكثر شمولا. على هذا الاساس يوجد على مستوى الخلية نزوع يذهب الى تثبيت وتدعيم انسجام اتسام المادة الحية. هذه النزعة توجد في العضوية الفردية التي تبحث على تدعيم وحدتها ووجودها (دوافع حفظ الذات بليبيدو نرجسي) الجنس تحت اشكال يتحدد كمبدأ اتحاد (اتحاد الافراد في التزواج اتحاد الميولي اثناء الاصاب) ـ2ـ

اذا دافع الحياة الذي يشكل السمة الجوهرية مثل كائن حي هو دينامية طبيعية اذ يحتوي استعدادات بيولوجية وراثية تميز الكائن الحي وتدعم جوهره ككائن حي فهدفها هو الحفاظ على ذات الفرد "(2)، اذ تومن توازنه في علاقته مع الوسط. وابنا البحث من الاتحاد بلاجل انتاج وحدات حيوية اكثر شمولية واتساع.

1- J. Laplanche, J.B. Pontalis, Vocabulaire de la Psychanalyse, op. cit, P.378.

2- فبعد ان كان فرويد يقول بالتعارض بين دافع الحياة ودافع حفظ الذات سابقا هاهو يوكد ان الغرائز الجنسية " تعمل أيضا غرائز حفظ الذات التي يجب ان تنسب الى الأنا بوالتي كانت لدينا في بداية ابحاثنا التحليلية مبررات قوية لوضعها مقابل الغرائز الجنسية " ص٦٧ من كتابه: الأنا والهو ه ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر ١٩٨٥.

ـ ب ـ دافـــع المـــوت ـ:

على العكس من دافع الحياة فان دافع الموت هدفه افنـاء الفـــرد "إذا اقربنا ان الكائن الحي اتى بعد اللاحي وخرج منـه . فان دافع الموت يتطابق مع الصيغة التي مفادها أن كل دافع ينزع للعـــودة الى حالة اولى . وبناء على ذلك فان كل كائن حي يموت من جراء اسباب داخلية ، وفي الكائنات الكثيرة الخلايا يلتقي الليبيـــدو بدافع الموت او العدم المسيطر لديها ، والذي يتجه نحـــو تفكيك هذا العضو الخلوي ويؤدي بكل خليـــة الى استقرار لاعضوي (...) مهمتها جعل دافع العدم هذا غير مضر فلنتخلص منهـــا فانها تدفع جزءا كبيرا منها نحو الخارج بتوجيهها نحـــو موضوعات العالم الخارجي بمساعدة جهاز عضوي خاص وهو العضلات وعندئذ فان هـذا الدافـــع هو دافع العدم ، دافـــع الاستحـــواذ ، ارادة القوة جزء من هذا الدافـــع يوضع في خدمـــة الوظيفة الجنسيـــة والتي لديها دور كبيـــر تلعبـــه . السادية في معناها الصحيح وجزء آخر لايتبـــع هذا الانتقـــال ، يبقـــى في الجهاز العضوي مرتبط ليبيديا وفيـــه يعرف ما يسمـــى بالماسوشية الاولية ، المبتيـــة " (١) .

ـ ج ـ ديناميكيـــة الدوافع ودورها في الجهاز النفسي :

فاذا كنـا قد وصفنا كلا الدافعين فان ميكانيزم ظهور هذا الدافع او ذاك يجب ان نبينهما للتوضيح اكثر .

يُقع بين مبدأ اللذة ومبدأ الواقع ، هيئـة يسميها فرويد بالأنـا . " والتي قد نعأت في البنيـة القضويـة للهو وفي تبعلة بـه " (٢) وتقع على المستوى التبلصور والتصوري وهي التي تتخزن فيها دوافـع حفظ الذات . ولها علاقة مباشرة بالعالم الخارجي ، فتلعب دور الحكم بين متطلبات الهو الدوافعية الباحثة عن اشباع اللذة . ومطالب الواقـع الخارجي وحفاظا على الذات . ولكي لايضيع الجهاز العضوي ضحيـــة اصطدام بين دوافع الهو والعالم الخارجي ، يتدخل " الأنا كمنظـم "(٣) لهذه العلاقـة ويستخدم القلق كمنبـه لتعديل علاقة الهو بالعالم الخارجي

١ـ Ibid P.372

٢ـ Herbert Marcuse, Eros et civilisation, Seuil, Paris, 1971 P.39

٣ـ فرويد الكف والعرض والقلق ، ديوان المطبوعات الجامعية ، و م (و ل) الجزائر ، ١٩٨٥ ، ص ـ ٦٣

بالعالم الخارجي وبين مبدأ اللذة ومبدأ الواقع وعمل الأنا بعلاقته بالأنا الاعلى الذى يمثل قيم المجتمع واخلاقياته القامة . والذى يعتلي فوق مبدأ الواقع ويمثله ، ويخضع الذات لطاعته ، يقوم بتهذيب الهو حفاظا على الذات فهو يؤجل او ينظم او يقمع تماما مطالبه " وتتخلص وظائف الأنا السيكولوجية ، في الارتفاع بالعمليات التي تجرى في الهو الى مستوى ديناميي اعلى (وربما يتم ذلك بتحويل الطاقة المتحركة بحرية الى طاقة مقيدة ، وهي الحالة التي تناسب حالة قبل الشعور ، وتتخلص وظيفة الأنا الاعدائية في ابخاله بين مطلب الغريزة وبين العمل الذى يشبعها ، نشاطا عقليا يحاول بعد تقدير الظروف الحاضرة والخبرات السابقة ان يحسب النتائج التي ستترتب على هذا العمل ، مستخدما في ذلك بعض الاعمال التجريبية ويصل الأنا بهذه الطريقة الى قرار فيما اذا كان من الواجب تنفيذ محاولة الاشباع او تأجيلها ، او فيما اذا كان الأمر لايلزم قمع مطلب الغريزة قمعا تاما باعتبار انه أمر خطير (وهذا هو مبدأ الواقع)" (١) .

وهكذا فان الأنا يثبت توازن الذات بين مبدأ اللذة ومبدأ الواقع (٢) وعن طريق تدخل الأنا في العمليات النفسية ، والتي مصدرها الهو ويوازن في نسبها بين السيطرة والخضوع فتخزين الليبيدو طاقة الايروس وعدم اشباعها وهي دافع الحياة ، البحث عن حفظ التوتر داخل الجهاز العضوى يؤدى الى غلبة دافع الموت فهو كذلك " يبحث عن وسيلة لحفظ التوتر والرجوع به الى الصفر " (٣)

١- فرويد سالم ، مرجع مذكور ، ص ١٢٧

٢- الأنا له السيادة على منافذ العالم الخارجي بالنسبة للهو ، لكنه باعد بين الحاجة والفعل مدة ضرورية لتكون الفكر ، مدة يستغل فيها الذكريات المترسبة والتي تكونت عبر الخبرة ، وبناء على هذا يليح بمبدأ اللذة الذى يسيطر بصفة مطلقة في الهو وعوضه بمبدأ الواقع الذى يصبح وسيلة في تحقيق الامان والنجاح " انظر: Freud, Conferences...., O.P.cit, P.403.

فالدافع الاول ينزع الى حفظ التوتر عن طريق الاشباع . والدافع الثاني وهو دافع الموت ينزع الى نفس الهدف لكن بالعودة الى الحالة اللاعضوية وهي مبدأ " النيرفانا " ، وعلى هذا المنوال " كان عمل غريزة الموت قاصرا على الداخل فهي تظل صامتة ، ونحن نفطن اليها فقط حينما تتجه الى الخارج وتصبح غريزة هدم . ويظهر انّ اتجاه هذه الغريزة الى الخارج وهو امر يستخدم فيه الجهاز العضلي شيء ضروري لبقاء الفرد وعندما يبدأ الأنا الاعلى في التكوين يتثبت قدر كبير من غريزة العدوان داخل الأنا حيث يعمل بطريقة تؤدي الى فناء النفس وهذا هو احد الاخطار التي تهدد الصحة والتي تتعرض لها الانسانية اثناء تقدمها في طريق الحضارة وقمع مشاعر العدوان على العموم مضر للصحة ومسبب للمرض وغالبا ما يبين الشخص الذي يتملكه الشعب كيف يحدث الانتقال من حالة العدوان المكبوت الى حالة افناء النفس وذلك بتوجيه عدوانه الى نفسه ، فنراه يقطع شعره ويدلم وجهه بقبضة يديه وهي اعمال كان يفعل بلا شك ان يوجهها الى شخص اخر . ويظل جزء من غريزة افناء النفس باقيا في الداخل بصفة دائمة حتى ينجح اخر الامر في افناء الفرد ، ربما بعد ان يكون الليبيدو قد استهلك او تثبت بطريقة مضرة وهكذا يمكن ان نظن على وجه عام انه الفرد انما يموت بسبب مراعاته الداخلية " (١)

وهكذا فان حياة الفرد صراع داخلي بين دافعين اولهما يحوي منطق الحياة الاتحاد بين العنويات والحفاظ عليها . ويشترك فيه الهو والأنا بدوافع المصلحة والتي تشترك مع الدوافع الليبيدية في جلب اللذة للكائن الحي والتخفيف من التوترات لديه . والدوافع الاخرى وهي دوافع العدوان ودوافع الاستحواذ التي هدفها تخفيف التوترات الداخلية لكن ليس كدوافع الأبروس مع الابقاء على

١ـ فرويد، معالم، ص ٢٥ـ ٢٦

بالابقاء على الحياة وتمديدها عموديا وافقيا . بل عن طريق الرجوع بها الى الحالة الاولى حالة اللاحياة حالة اللاعضوية الاولى (١) . ان عدم اشباع الحاجات الجنسية للفرد مباشرة يؤدي بالأنا الى تصريفها بشتى الوسائل وهي تبديل موضوعات اشباعها (٢) لاسقاط التوتر الداخلي ولكن اي ليبيدو غير مشبع طبيعيا يخزن وتستحوذ عليه كطاقة دوافع الموت . ويتظاهر بشكل عدواني موجه الى الخارج على موضوعات لكن بشكل عدواني سادي . و" بمن هذه الطاقة يبقى في الداخل يلازم عضوية الفرد متجها الى فنائه " (٣) ومن هنا فان الاحباط الناجم عن عدم اللذة وتلبية الحاجات الجنسية وكذلك حاجات مرتبطة بالأنا يؤدي " الى النزوع الى العنف والعدوانية لان الكائن العضوي لابعاد الموت التي تغزو زيوجها الى الخارج "(٤) واذا كان مفهوم دافع الموت ودافع الحياة عند فرويد في تفكيره النظري لايستند الى اي تجربة اكلينيكية مثبتة ما ادعا هو فانه يبقى مجرد اطار عام اخذت تتجلى ملامحه عبر حياة فرويد الفكرية حتى أواخرها " (٥) لكن " هذه المفاهيم التي استعملها في نظرية الدوافع بامكانها ان تشكل منظومة مفهومية تنطبق على التجربة التاريخية للمجتمعات " (٦) في تحليل السلطة والقمع الذي تمارسه على الفرد لتغييره في خدمة واقع (مبدأ الواقع) محدد تاريخيا يكون فيه المجتمع بمثابة الفرد الخاضع للتحليل النفسي ، فالمجتمعات هي التي توفر للفرد الاطار الذي يتحرر فيه او يتقيد فيه ازاء مشروعه الحضاري . انها تقمع او تحرر طاقاته الليبيدية لخدمة مشروع معين لجماعة مسيطرة على مؤسسات المجتمع . انها تقنن اللذة وتجعل الالم اساسا لخدمتها ، فكل الطاقة الليبيدية يجب ان تسخر للحضارة ، بايلام الفرد والتذج به في نهاليز القلق قلق الوجود بين الحياة والموت ، والبحث عن معناهما .

---

١ - نقول فرويد في الانا والهو ص ٦٧ ما يلي : وتكون كل من هاتين المجموعتين من الغرائز مرتبطة بعملية فيسيولوجية خاصة (عملية الهدم و البناء) .

٢ - Herbert Marcuse, Eros..., Op cit, P.41.

٣ - فرويد ، مقالة ، مرجع سابق ص ٥٢ .

٤ - Franco Fornari, Psychanalyse de La situation atomique Gallimard, Paris, 1965, P. 30.

٥ - C.F. Pulsion de mort, in: Vocabulaire..., Op cit.

٦ - Herbert Marcuse, Eros..., Op cit, P. 34.

الدوافع الفرويدية (المجتمع الغربي كنموذج)

تطورت نظرية التحليل النفسي بعد فرويد لتدخل مجال تحليل الظواهر الاجتماعية ، اذ لايمكن تحليل الظاهرة الاجتماعية دون طرق العلاقة الجدلية بين الفرد والمجتمع وتحليل ظاهرة الاستيلاب على ضوء ديناميية دافع الموت ودافع الحياة وكذلك لان المفاهيم الفرويدية هي اساسا مفاهيم ذات مضمون تاريخي (١) .

وأهم المفكرين الذين استعملوا الجهاز المفهومي الفرويدي في تحليل الظاهرة الاجتماعية هما كل من فيلهالم رايش وهوبرت موكوز فكلاهما حاول تزويج الفرويدية بالماركسية على اساس ان كلا النظريتين اتيتا لمعرفة ظروف تعاسة الانسانية تحت نير الاستغلال ، حيث ان حاجات الغذاء والجنس كمبدأ اللذة تتلقى منعا من جانب الرأسماليين ضد العمال عند ماركس . وعند فرويد فان متطلبات الحضارة وقمع السلطة يولدان الاحباط لدى الفرد بتكريس المنع على اشباع الحاجات المرتبطة بمبدأ اللذة . يقول فيلهالم رايش مبررا المضمون السوسيولوجي للنظرية

١- HERBERT MARCUSE, EROS ET CIVILISATION, OP. CIT, P. 17

١- ليس هؤلاء فقط بل هناك مفكرين آخرين ساهموا في تأسيس علم اجتماع على اساس فرضيات التحليل النفسي نذكر منهم ايريش فروم ، جان بول سارتر في اطار فلسفته الوجودية ، ماكس هوركيمر ، تيودور ادورنو انظر بهذا الصدد

ERICH FROMM, LA CRISE DE LA PSYCHANALYSE, DENOËL PARIS 1973. NOTAMMENT LE CHAPITRE 1ER

للنظرية الفرويدية :

" كان فرويد يفرق بين الدوافع مجموعتين نفسانيتين رأسيتين غير قابلتين للتجزئ ابعد من ذلك وهما دافع البقاء والدافع الجنسي بالاستناد الى التفريق الشعبي بين الجوع والحب . وجميع الدوافع الاخرى كحب السيطرة ،الطموح ،الشره المربح الى آخره يعتبرها فرويد مكونا ثانويا ،تفرعات هاتين الحاجتين الرئيسيتين ،وبالنسبة لسيكولوجيا المجتمع سيكون لنظرية فرويد ،بان الدافع الجنسي يظهر في البدئ استنادا الى الدافع للغذاء اهمية كبيرة ،فيما لو امكن ايجاد صلة معقولة مشابهة لماركس بان الحاجة الغذائية تمثل في الواقع الاجتماعي ايضا ارضية للوظائف الجنسية للمجتمع (١) .

وعلى هذا الاساس يبني فيلهالم رايش نظريته الفردو ماركسية باعطاء مفهوم الدوافع مضمونا سوسيولوجيا فيصبح بذلك البحث عن اشباع الحاجيات المرتبطة بالدوافع الجنسية محقرا على كفاح الانسان من اجل الحياة والبحث في اطار البحث عن اقصر واسهل الطرق لاشباعها سواء كانت جنسية ام غذائية ،وتصبح عملية البحث هذه مركز للصراع الاجتماعي وبناء الاستراتيجيات المختلفة بين الجماعات في الاستيلاء على وسائل هذا الاشباع .

وفي نفس المضمار لكن بشكل اكثر عمقا قام هربرت ماركوز بنفس التجربة في دراسة مشكل الانسان الغربي في صراعه من اجل الحياة بحثا عن الحرية والسعادة الانسانيتين صراع بين دوافع الحياة ودوافع الموت والذي هو " حرفيا " صراع بين الموت والحياة ،تشترك فيه النفسية والجسد، الطبيعة والحضارة ،هذه الدينامية البيولوجية والسوسيولوجية هي مركز النظرية الفرويدية " (٢) في محور انثربولوجيا الانسان .

١ـ فيلهالم رايش، المادية الجدلية والتحليل النفسي ، تر- بوعلي ياسين، دار الحداثة ، بيروت، ١٩٨٠ ، ص ٢٢ـ .

٢ـ Herbert Marcuse, op. cit, P.31. L'edition de Minuit, Paris, 1970.

ويبـدأ نظريتـه منهجيـا انطلاقا **بين** من مستويين للتحليـــل الفرويـدى المستوى الفردى والمستوى الجمعـي.
ـ أ ـ منشـــأ الفـرد: نمو الفرد المقمـوع منذ الطفـولـــة الأولى حتى الوجود الاجتمـاعي الـــواعـي .
ـ ب ـ منشـــأ الجماعـــة : نمو الحضارة القمعية منذ العشيـــرة البدائيـة الى غاية الحالـــة البالغة التحضر (١) .
هذين المستويين متداخلين وهذا نجده مختصر في القولـة الفرويـديـة لعودة المكبـوت في التاريخ : الفرد يعيد تجربـة الاحداث الصدميـة لتطـور النوع والدينامية الغريزية تنعكس في الصراع بيـن الفرد والنوع (بيـن الخاص والكوني) ـ٢ـ"
وكل جدليـة الفرد والمجتمـع تشتغـل بيـن هذين المستويين.

وردا على منافسيه الذين اتهموه بالبعد عن مفاهيم فرويـد الاصليـة من حيث ان مشروعه لايستند او لايتوافق مـع المعطيات الكلينيكيـة (٣) ،ولكنه يرد عليهم " هدفنا ليـس الاتيان بتفسيـر تصحيحي اوتحسيني لمفاهيم فرويد ،ولكـن تحديد تأثيراتها الفلسفيـة والسوسيولوجيـة . فرويد يميـز بيـن فلسفته وعلمه بوعي الفرويديـون الجدد قد غضـوا الطرف عن القسم الاكبر من فلسفتـه .
ونستطيع تبرير هذا الرفض بكل جدارة استنادا على قواعد علاجيـة ولكن اى حجـة علاجيـة لايمكنهـا الوقوف في وجـه بناء نظـرى الذى هـدفـه ليـس معالجـة الامراض بل تشخيص الفوضى العامة ".(٤)

١ـ Ibid,P.30
٢ـ Ibidem.
٣ـ ERICH FROMM, OP.cit P22
٤ـ HERBERT MARCUSE,OP.cit P.19

كلية العلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية * جامعة ابو بكر بلقايد - تلمسان * مكتبة الكلية

وبعد اعطاء كل المبررات النظرية لمشروعه يبدأ بتعديل على مستوى المفاهيم الفرويدية كمبدأ الواقع ومفهوم القمع « لانهما لايعبران عن واقع التمايز بين الطابع البيولوجي والطابع السوسيو تاريخي للدوافع » (١) . ويختار مفهومين وجب تعديلهما .

أ ـ القمع العالي : وهو المنع الذى اصبح ضرورى بحكم السيطرة الاجتماعية ويجب تميزه عن القمع الاساسي اى « التغيير » الذى يحصل على الدوافع والذى هو ضرورى بالنسبة للبشرية لتعيش ضمن الاطار الحضارى .

ـ ب ـ مبدأ المردودية (٢) : هو الشكل الخصوصي لمبدأ الواقع في المجتمع الحديث وعلى هذا الاساس يأخذ مبدأ الواقع مبدأا انسانيا مبدءا نسبيا . اذ يخضع لسلطان الزمن والتاريخ فكل مرحلة تاريخية تفرض مبدءا معينا للواقع ومبدأ المردودية هو الشكل الذى يميز مبدأ الواقع في المجتمع الحديث في الغرب هذا المجتمع الذى تسيطر عليه طبقة معينة تفرض تسييرا معينا للحاجيات وكيفيات اشباعها اذ ان وراء مبدأ الواقع هذا تختفي « الخصاصة » « الخصاصة السائدة في كل حضارة (وان كان تحت انماط مختلفة) قد نظمت بطريقة لايوزع فيها المنتوج الاجتماعي بصفة تتوائم والاحتياجات الفردية داخل الجماعة ،نفس الشيء بالنسبة للانتاج المواد الاساسية الضرورية لاشباع الحاجات لم تنظم بطريقة تسد بها الحاجات المتنامية للافراد »(٣)

وهذا التسيير للخصاصة الغير عادل واللامتكافيء تختفي وراءه قوة مسيطرة « ان توزيع الخصاصة ،وكذلك مجهود تجتوزها (نمط العمل) قد فرض على الافراد بدءا بالقوة ولاحقا بالاستعمال العقلاني للسلطة . لكن مهما كانت العقلانية مستعملة مزاجل تقدم الجميع فانها كانت دائما عقلانية السيطرة » (٤) .

١ـ HERBERT MARCUSE, OP. cit, P.44

٢ـ Ibidem

٣ـ Ibid, P.44-45

٤ـ Ibidem

ان التغلب على الخاصة المتنامي قد كانت وراءه السيطرة وكان هذا التنامي دائما لصالحها.

" السيطرة تختلف عن الممارسة العقلانية للسلطة بهذه الممارسة المرتبطة بكل تقسيم اجتماعي للعمل منبعها المعرفة والمحددة في ادارة الوظائف والمؤسسات الضرورية لتقدم الجميع "(١).

ولكن السيطرة بنظر مركوز " تمارس من قبل جماعة او فرد خصوصي لغرض الاحتفاظ بحالة من الامتيازات وتنميتها "(٢) هذه السيطرة لاتعني غياب التقدم التقني والمادي والفكري " ولكنها منتوجات من الدرجة الثانية حتمية ،ولكن هذه السيطرة تحافظ على البؤس والقهر اللاعقلاني " (٣).

ثم بعد ذلك يشرح كيفيات تغاير انماط السيطرة والذي يتبعها تغاير على مستوى اشكال مبدأ الواقع " مثلا ،مجتمع كل افراده يعملون بصفة عادية لكسب عيشهم يحتم اشكالا اخرى من القمع بالنسبة لمجتمع آخر يكون فيه العمل مقصور على جماعة معينة (٤) وبنفس الشكل فان القمع يتغاير اتساعا او كثافة حسب توجيه الانتاج الاجتماعي للاستهلاك الفردي او الربح حسب سيادة اقتصاد السوق او اقتصاد مخطط حسب نمط الملكية اكانت فردية او جماعية : هذه الاختلافات تؤثر في مضمون مبدأ الواقع ،لان كل شكل لمبدأ الواقع يتجسد في نظام من المؤسسات والعلاقات الاجتماعية قوانين وقيم توصل وتفرض " تعديلات " ضرورية للغرائز " (٥).

١- Ibid-HERBERT Marcuse, Eros.... P45

٢- Ibidem

٣- Ibidem

٤- Ibidem

٥- Ibidem

ونفس الموقف نجده عند رايش في مفهوم " مبدأ الواقع" الذي يأخذ عند فرويد صفة مطلقة باسم الحضارة .
ويرى رايش في نفس الموضوع ان اعطاء صفة المطلق لمبدأ الواقع هو تسليم بالمجتمع الرأسمالي وتبرير لما ينجر عنه من بنيات استغلالية من ظلم وقهر وحد للحريات واستيلاب الانسان ويرى ان اشكال القهر التي تميز المجتمع الرأسمالي هي التي افرزت الامراض النفسية واشكال الاستيلاب وخاصة لدى الطبقة العاملة .

" مبدأ الواقع في العصر الرأسمالي يتطلب من البروليتماري اقصى التقييد لاحتياجاته (...) وهذا يعود الى العلاقات الاقتصادية ، فالطبقة الرأسمالية مبدأ واقع وهو مايحفظ سلطتها ،واذا ما ربي البروليتاري على مبدأ الواقع هذا ووضع امامه باعتباره صالحا بصورة مطلقة ، باسم الحضارة مثلا فهذا يعني بقبول استغلال البروليتاري ، القبول بالمجتمع الرأسمالي (١) " . ونرى نفس منطق التفكير مع بعض التغيير بالنسبة لايريش فروم الذي يقترح " الطبع الاجتماعي"(٢).

١- فيلهالم رايش ،مرجع سابق ، ص ٢٦.
٢- ايريش فروم ناقدا مركوز يقترح مايلي : " مبدأ الواقع بالنسبة لفرويد هو تغيير لمبدأ الواقع " ويضيف " مبدأ الواقع ليس هو قيم المجتمع : يستطيع مجتمع ان يمارس رقابة شديدة على الرغبات والنزوات الجنسية ،فيهذه الحالة فان مبدأ الواقع يتجه الى منع الشخص من ايلام نفسه يجعله يقمع رغباته . مجتمع اخر عكس الاول لايتجه الى مثل هذا النوع النزوع القمعي ." مبدأ الواقع " بالمعنى الفرويدى يبقى هو نفسه وانما تتغير البنية الا الاجتماعية وهذا ما اسميته " بالطابع الاجتماعي " لمجتمع معين . مثلا مجتمع حرابي ينتج طبعا اجتماعيا تفضل فيه الدوافع العدوانية ولاتقمع بينما تقمع فيه نزوعات الحنان والحب . وفي مجتمع سلمي يسوده التعاون فان العكس هو الصحيح " ص ٣٣-٣٤ .

ERICH FROMM, Crise de la psychanalyse, Petit.

الذي يقترح الطبع الاجتماعي .

مع ان رايش لايؤمن بما يسمى بدافع الموت وحتى ان كون دوافع العدوان ملازمة لدوافع الايروس يقول في موضع آخر، « لاشك في ان دافع العدوان هو ايضا أداة للدافع الغذائي وان الدافع العدواني يتصاعد عندما لاترضى الحاجة الغذائية بشكل كاف . ان دافع التهديم هو حسب رأي تكوين متأخر للعضوية ثانوي يتحدد من خلال الظروف التي يتم فيها ارضاء الدافع الغذائي والحاجة الجنسية » (١) .

عموما فان الرقابة والمنع المفروضين على دوافع الايروس والتي تخص كل من دوافع حفظ الذات والدوافع الجنسية في سبيل اخضاع طاقة الانسان لمبدأ المردود تسهل طريق سيطرة دوافع الموت التي تتجلى عبر نزوعات العنف والهدم سواء باتجاه الداخل بتدمير الذات او الخارج بتسليط العنف ضد الآخر فاقصى النزعتين تولد اما الانتحار او القتل .

ان قمع دوافع الأيروس هي اخضاع لشخصية الفرد تحت نير المؤسسة سلب لحريته باتجاه قبول الوضع الاجتماعي والاقتصادي باتجاه دعم السيطرة لجماعة معينة .

١ـ فيلهالم رايش . المادية الجدلية ..... مرجع سابق ص٢٤

يقول احد الاطباء النفسيين بهذا الخصوص « ابعادا للموت عن ذواتهم يقوم الناس بالقتل . فيقذفها الى الخارج فانهم يتصورونها كعدو يريد قتلهم لهذا فان كل جريمة قتل تستوحي من وهم القدرة على التغلب على الموت بالقيام بقتل العدو » ص٢٣.

- Franco FORNARI, Psychanalyse de La situation atomique, OP. cit.

ان مبدأ المردود الذى نشأ نتيجة تطور طويل مع تقدم في وسائل السيطرة المعقلنة التي تطورت عبر تقسيم للعمل الصارم وذلك لانتاج مواد لتغطية احتياجات متنامية حسب مجهوداتهم في العمل . عمل لايراقبونه انهم يعملون لصالح جهاز لايراقبونه ووجب عليهم الخضوع له اذا أرادوا الحياة . « الناس لايعيشون حياتهم ، لكن يقومون بوظائف محضرة مسبقا اثناء عملهم لايقومون بسد احتياج معنوى ما بل يعملون في الاستيلاب في المجتمع يصبح العمل عند ذلك عاما كمواطف مفروضة على الليبيدو : ان زمن العمل ، الذى يمثل القسم الاكبر من الحياة لدى الفرد ، يصبح عملا شاقا لان العمل المستلب هو غياب للاشباع ، نفي لمبدأ اللذة » (١) .

وبالتالي فان الأنا الاعلى المتمثل في المؤسسات الاديولوجية ، التربية ووسائل الاعلام الكبرى تعمل على تقنين ما تبقى للفرد من وقت لتوجه اللذة واشكال البحث عن السعادة ولكن مبدأ اللذة الذى منبعه الهو لايعترف بالزمن ولا بأى تقنين وتنظيم . ولتنظيم اوقات الفراغ هذه فان المجتمع صنع اماكن لممارستها وزمنا لاشباع ما تبقى من دوافع للذة ع

ولكن الحضارة تستعمل النزوعات العدوانية عند الفرد لتصرفها في العمل والبناء والتقدم التكنولوجي وبهذه الطريقة يصبح دافع الموت في خدمة دافع الحياة ولكن العمل الموجه للآخرين يفقد اللذة ويصبح ألم .(٢) .

١- Herbert Marcuse, Eros et civilisation, Op. cit P.52

٢- Ibid, P 83

« الثقافة تفرض تصعيد مستمر : وتضعف بهذا أيروس البانى للثقافة • وان عملية تغييب الوظيفة الجنسية ،باضعافها أيروس تحرر الدوافع الهدامة وبهذه الطريقة تصبح الحضارة مهددة بقمع الغرائز والتي يقوم دافع الموت جاهدا للتغلب على دافع الحياة » ١ـ

وهكذا فان عقلانية السيطرة تفرض تقييد الغرائز العدوانية باتجاه العمل الضرورى اجتماعيا جالبة طاقتها من قوى الأيروس • ولكن طابع السيطرة التي تخضع هذه القوى لاغراض خارج اهتمامات الفرد تجعل هذا العمل مولما وبالتالي تضعف قوى ايروس المائلة الى الجمع والائتلاف باتجاه الهدم والتفكيك بتقوية نزوعات دافع الموت وتوجيه هذه النزوعات في شكلها العدوانى اما الى الخارج بممارسة القتل او توجه الى الداخل بالانتحار ونجد مايشابه هذا الطرح •

الكبت الجنسي يدعم الرجعية السياسية بجعل الفرد لايكترث للسياسة " يخلق كذلك في بنية الانسان قوة ثانوية مصلحة مفتعلة ، والتي بدورها تدعم النظام المتسلط لان الجنسي ، الذى يرفض سيرورة الكبت اشباعه كما تمليه الطبيعة تلتفت الى شتى انواع الاشباعات البديلة وعلى هذا المنوال تتحول العدوانية الطبيعية الى سيادية عنيفة » (٢)

١ـ Ibid, P85

٢ـ Wilhelm Reich, La psychologie de masse du fascisme, PbP, Paris, 1977, P.51

ان مبدأ الواقع المبني على المردودية يخضع حتى غرائز حفظ الذات لسلطانه وسيطرته بعد ان اخضع الجنس " ان المستوى الاعلى للعيش في مجال الرأسمال الكبير له طابع تقنيقي بمعنى سوسيولوجي مجسد بالسلع والخدمات التي يشتريها الافراد توجه لحتياجاتهم وتصعق استعداداتهم . يبدل الافراد عوض المواد الاستهلاكية التي تقيهم ليس فقط عملهم ولكن حتى وقت فراغهم .

ان احسن مستوى معيشي تعوضه اشكال رقابة شديدة على حياة الافراد " (١) ان المجتمع الاستهلاكي يسلب الانسان حرية تحديد واشباع حاجياته باغراقه بحاجيات مفتعلة . " وتمنعه من ان يمي بانه قادر على العمل وفي نفس الوقت تحديد حاجاته واشكال اشباعها بنفسه " (٢) .

الفكرة الاساسية التي تخلص اليها من كل ما سبق عند مركوز هي ان مبدأ المردودية باخضاعه لطاقة الايروس لاغراض انتاجية ومراقبة وتقنين اشباع حاجات الايروس هي غلبة لدوافع الموت لدى الفرد وسلب لحريته باتجا القضاء على وجوده لان " دافع الموت يثبت مبدأ اللاوجود (نفي الوجود) وأيروس (اثبات الوجود) - (٣) .

١- Herbert Marcuse, Eros et civilisation, op.cit P.99

٢- Ibidem

٣- يقول برونو بتلهايم :" حتى عند قضاء وقت فراغهم بصفة نمطية فان الناس يفعلون ذلك حسب ما تمليه عليهم وسائل الاعلام . بعد ان فقد حريته في تنظيم عمله ها هو يرتبط بآخرين لتنظيم أوقات راحته"
Bruno Bettelheim, Le coeur conscient, R. Laffont, Paris, 1972 ص ١٣٢

٣- Herbert Marcuse, EROS..... op.cit P.120

فاذا كان اللاوجود مرادف للعدم الذى هو الموت الا يمكن القول ان السيطرة تنزع الى قتل الانسان بسلبه او قتل كل نزوعات التمرد لديه الا يمكن القول على غرار لوى . ف . طوما انها تمارس الموت الاجتماعي (١) يقول صاحب كتاب الموت والسلطة :

" كل سلطة مهما كان مصدرها هي دائما سلطة الموت التي يحملها الأمير ، الطبقة المسيطرة ، جهاز الدولة ، الراهب ، رب العمل ، الاب ، الام الخاصية وعليه فان السلطة تحدد تتحدد بالسطوة على الآخر فردا او جماعة ، او على شيء . انه يفترض القدرة على انتاج أثير يكسر او يعدم ارادة الاخر والذى يغير المجرى العادى لظاهرة ما . اكان ذلك عن طريق الانبهار او النفور ، سيطرة ، استيعاب ، تحويل او تهديم ، انه يعرقل نبع الحياة او الحتمية الطبيعية . وكما سميناه في تقديمنا ، السلطة المطلقة تنزع الى الموت التي هي سحق الكائنات والاشياء " -(٢) .

يلتقي المؤلف هنا مع ماركوز في كون ان السيطرة تلقي الموت على الافراد عند تسلبهم حرياتهم وارادتهم وعندما يحصل الموت الاجتماعي يصبح الموت الفيزيقي " اللاحدث " اذ ان مبدأ المردود المعتمد على عقلانية الانتاج يعصي منطقيا الموت من الخطاب مرجيث انها تمثل نهاية للآلة المنتجة التي هي ذلك الانسان المستلب .

١- Louis Vincent Thomas, Mort et Pouvoir, opcit, P.19

٢- Ibid, P50

نجد شبيه هذه الفكرة عند نيتشه حيث يقول " ان سلطة الاخلاق تتجه نحو قتل دوافع الحياة " في كتابه .

Crepuscule des idoles, Denoël, Paris, 1973, P43

" المجتمع العصري يكره الموت بشدة . وكما ان اهدافه هي الانتاج ، التراكم الخيرات ، والبحث عن الاسماء والشهادات فان هذه الاشياء تتبدى خالية من اى معنى وغير مجدية امام الموت التي تمثل نهايتها . فلذلك نجد ان موت البطل او النجيم والزعيم هي الوحيدة التي تمثل خسارة بصفة خاصة ومن ان موت المنتج البسيط تمثل فاجعة يوسف لها ولكن الموت التي لاتحرك ساكنا ولاتعبر عن المرارة هي موت المقصيين ، المنحرف ، الوهمش والمشرد وموت الشيخ المسن لانه بدون وظيفة " (١) .

ان المجتمع الغربي التاجر كما انه يجر الفرد الى متاهة اللاوجود او الموت الاجتماعي فانه لايرى فيه الا اداة للانتاج متى توقفت عن الحياة اخرجت من سياقها لتنسى وتلقى جانبا . وفي ظروف غياب الحياة الكثيفة والزخمة (٢) وتحكم الانسان الغربي في مصيره الحياتي ووعي فناءه وغياب كل مرموز يحجب عنه شبح الموت ينتابه قلق الغيبوبة في اعماق العدم الذى تمثله الموت العارية .

" في مجتمعنا الغربي الحداد المرضي ، القلق غير المجمن وعن طريق الجنون يعبر الوعي الصامت عن نفسه كلما ازداد الرمز ضعفا ، زادت الصورة السائدة في المجمع فراغا من معناها الاصلي كلاهما تجدان في آخر المطاف انفسهما ضحية عدوان الوعي الصامت " -٣- بمعنى انه مهما آضمحل الرمز المخفف من نزع الموت فان هناك وعي وثورة صامتتين يردان الفعل باتجاه مواجهة الموت وتسجيلها في كتاب المصير الذاتي .

١- Louis.V.Thomas, Mort et Pouvoir, op.cit P.56

٢- Herbert Marcuse, EROS... op.cit P.215

٣- Jean Ziegler, Les vivants et la mort, op.cit, P.41

ان المجتمع الصناعي الاستهلاكي يجعل الانسان مجرد طاقة محركة وسلعة تباع وتشترى وبمجرد وقوف هذه الطاقة عن الاشتغال فانها ترمي . فالموت اصبحت مجرد توقف آلة الانسان عن الحركة (١) فقط فمتى يموت هذا الانسان يصبح ثقلا على المجتمع . هذه الجثة الهامدة وجب التخلص منها فيغيب الرمز في السلوك اليومي ويصبح كل شيء عاريا .

الموت عاريا لامجال ولا وسيلة للتغلب عليه فيظهر الفزع والقلق من قدومه ويعلق زيقلر على ذلك قائلا " بدل ان تفرض سلوكا جماعيا تطهيريا للنزاعات والهواجس ، والقلق الذي يسكننا فان المجتمع الرأسمالي يرفض الكارثة الموت ، موديسا حسب ما أثبتته البحوث النفسية الى نتائج عصابية مدمرة في الحياة اليومية للناس "(٢) فالصورة للانسان السلعة اصبح يعيها الانسان كجوهر لحياته وفقد انسانيته ولم يصبح يطيق فكرة موته لان الموت لديه هي الانتقال النهائي الى العدم الى اللاشيء ، وفي غياب منظومة رمزية تطمئنه وتجعله يتقبل الموت يجد الانسان المستلب في الغرب نفسه وحيدا امام حتمية نهايته فكم من انسان يموت لوحده في مستشفيات

١- " اذا اصبح العمل لعبا ، اذا استوعبت الطبقات النشطة ، اذا تولدت المساواة في ميدان الاستهلاك هذا لايعوض الشيء الذي بصدده اصبحت قرارات الحياة والموت الامن الشخصي والوطني تؤخذ على مستوى ليس للافراد رقابة عليها . ان عبيد المجتمع الصناعي المتقدم هم عبيد مترفعين لكن هذا لايعني انهم ليسوا عبيدا لان العبد لايمكن تعريفه " ليس بالطاعة ، ولا بمشقة الاعمال لكن بمكانته كاداة وتحول الانسان الى حالة الشيء " وهذا هو الشكل الاستبعاد الخالص : الوجود كشيء حتى لو كان هذا الشيء متحرك " ص ٥٨ في

٢- Herbert Marcuse, L'homme unidimensionnel, Minuit, Paris, 1968

٢- Jean Ziegler, Les vivants et la mort, op. cit p. 42

في مستشفيات تجهل الطابع الانساني والاجتماعي(١) للموت ،يموت على فزع المواجهة العصبية لفترة نومه الابدى ،فالموت في هذه المستشفيات الكبيرة هي مجرد مشكل طبي فحتى الزيارة العائلية للمريض تعد بالدقائق وما من شد اشبه بالموت مهجورا وحيدا دون مواساة الاقرباء .

وعندما يموت الانسان فان الصورة الاجتماعية التي يحملها لاثنا رقه فملامح المجتمع تقرأ حتى على قبور الموتى (٢) . الاغنياء يدفنون في مقابر وقد زينت بالرخام تأخذ شكل المنزل بفخامتها ويصف زيقلر بدقة مقبرة في البرازيل وبالنبط في ريودى جانيرو " زيارة الى الكامبو سانتو ، مقبرة الاغنياء في بوتافاغو ،ثم اخرى الى مقبرة قرب المدينة مقبرة للفقراء تجربتان متناقضتان قمت بهما في يوم واحد . فنلقي الصدمة المزدوجة لادعاء ينفي الموت من قبل العائلات الحاكمة وبؤس القطيع المجهول من الفقراء ولقيت اجسادهم المهانة في حياتهم وحتى في مماتهم . في باهية ( ) الكامبو سانتو يمتد على هضبة جميلة في حين ليبرتاد ، البحر قريب ريح خفيفة تهب على سقف القداس ، الكامبو سانتو يمثل صورة واضحة عن الفروقات بين الاموات ،هنا ك طوابق تمثل كل واحد منها انتماء اجتماعيا فالطابق الاعلى

١- Louis.V.Thomas, Mort et Pouvoir, o.Pit, P.65

٢- لوي فاطوما يقول في هذا الموضوع " انه خلير ينظر السلطة كل ما يساوى بين الناس ،لكن الراعي والملك كلاهما يجد نفسه مستسلما امام الموت ولذلك تجد السلطة في نفيها للموت ،تعيد ادخال اللامساواة قبل ،اثناء وبعد الموت " ص٥٥ وهذا ما يفسر التفريق بين المقابر والقبور فيما بينها في الزخرفة وشاخة البناء - نفس المرجع -

تتواجد قصور أموات الأولى رشيا وقد زينت بالرخام الاسود والوردى بداخلها اجساد بارونات السكر الالباء ،مربي المواشي وتجار الرجال والاقفال السود . زوجاتهم خاضعات حتى في الموت ويشغلن على العموم قبور ملحقة بالضريح . المزارعين الاجانب السادة الالمان والسويسريون المحتكرين للكاكاو والتبغ ،انخلوا على هذا المجتمع المتناقد نكهة اخرى . وللتذكير بان الدم الافريقي او الهندى لم يجر في عروقهم فان اضرحتهم اقيمت عن مكان اضرحة الأولى رشيا المحلية وتحت ظل اشجار ضخمة حيث يفصل بينهما طريق ، سلم محائط وباب كبير رغم تواطئهما في الظلم والقمع .

في وسط الهضبة تتواجد قبور البرجوازية المتوسطة ثم يليها الى الاسفل من ذلك التجار الصغار ثم الاصغر ، الموظفون وموظفي صغار الكتابات على هذه القبور محتمة ،الملالات ،حقيقية ام خيالية ،قصيرة القصور قليلة بلالة كبيرة وبسيطة نحوتات للملائكة تماثيل للأموات من البرونز عوضت هنا بزهور من البلاستيك (٠٠٠٠) في الخلاء قرب الوهار ، في الاراضي الجرداء المحمدة دون سياج ولازخرفة دفنت عوام الناس المجهولة ،لايلقون الراحة حتى في مناهمهم الاخير رأيت

عمـــالاســـود يحفـــرون الارض بحثـــا عـــن الاقاعـــي يقـــومـــون بقلـــع الحشـــائـــش ثـــم نبـــش القبـــور حيث تجمـــع عظـــام الامـــوات لتـــرمـــى فـــي فـــرن وتحـــرق ثم ترمـــى في مهـــب الريـــح " (١) .

وبعيـــدا يقـــول :" لابـــرجـــوازيـــة باليرمو ولا الطبقات الحاكمـــة فـي غـــوانـــابارا او باهيـــا يستطيعـــون اليـــوم ان يخفـــوا المســـاواة الاساسيـــة الشبـــه اجتمـــاعيـــة لكـــل النـــاس امـــام المـــوت ، بنيـــة افقيـــة متكاملـــة تنهـــار عنـــد ذلـــك الخطـــاب المتجانـــس ووحيـــد تشـــرذم تحـــت ضغط الصـــراعـــات الطبـــقيـــة " (٢) .

ان وهـــم الفـــوارق الطبقيـــة الطبيعيـــة ينهـــار امام حتميـــة التـــاوى امـــام المـــوت فكـــل النـــاس مهمـــا كانـــت اوضـــاعهـــم الاجتماعيـــة وانتماءاتهم الطبقيـــة فان مصيـــرهم واحـــد ولو حاولـــت الطبقـــات العليـــا رســـم المخطـــط الطبقـــي للمجتمـــع على مساحـــة المقـــابـــر فان حتميـــة لقـــاء المـــوت ينـــال جميـــع النـــاس باختـــلاف وضعهم الطبقـــي فالفـــروقـــات الطبقيـــة لاتـــؤثـــر فـــي هـــذه الظـــاهـــرة الطبيعيـــة و مصيـــر كـــل النـــاس عند المـــوت ، اذن الفـــروقات الاجتماعيـــة لاتستطيـــع حيثـــا امام القـــدرة الســـاحقـــة للمـــوت والمســـاويـــة للمصيـــر النهائي للبشـــر .

١- Jean Ziegler, Les vivants et la mort, O P. cit, P53-54

٢- Idem, P54

" حتى الموت اصبح مصدر للربح اذ تباع الجثث للمخابر العلمية بشكل مربح للغاية أو لتوظيفها في عمليات جراحية اذ تستأصل منها اعضاء لتنزرع في اجسام مرضى آخرين ، تباع جثث الاجنة الى المخابر بثمن قيمته خمسة وسبعون دولارا للجثة الواحدة " (١) في كولومبيا ظهر صنف من الحرفيين قد اطلق عليهم اسم آكلي الجيفة مهمتهم البحث عن الجثث ، او الاستيلاء عليها قبل ان تتحلل عليها شركات منافسة وفي الولايات المتحدة سباق عنيف يجرى بين مختلف الشركات في المتاجرة بحاجات الميت كالملابس الخاصة بتكفينه وحاجات اخرى تزين القبر ولوحات تذكارية توضح على قبور الموتى حيث تعقد صفقات اثناء حياة المتوفي وتتعدى الخدمات المعروضة الى امكانية التخنيط وحفظ الجثة لمدة معينة .

ودون احتشام اصبح اقتصاد الموت معروضا للاشهار في التلفزيون فهناك شركات تبيع قطع الاراضي وتحجز الى حين يموت صاحبها فيحفر قبره في ذات القطعة المحجوزة " وهناك لوحات اشهارية لغرض ذلك : " حضر لمستقبلك ، اشترى قطعة من حديقة الطهارة "(٢) وفي نفس النطاق فيلم اشهاري يعرض على شاشة التلفزيون لحافلة تمشي وقد كتب عليها " جنات السلام " وصوت يقول " تعالى تزور قبل فوات الاوان ، فكر في الباقين على قيد الحياة " وهناك شعار اشهاري في الغرب مشهور " مت وعلينا الباقي " كما انا سواقا في اليابان تبيع لوازم الجنائز مع باقي السلع الاخرى " ٣" ، فالموت لم يصبح مسألة مصير انساني بل مجرد وسيلة كباقي الوسائل التي تجلب الربح .

١- Louis.V.Thomas, Mort et pouvoir, op. cit, P108

٢-

٣- Ibid, P.109.

- Ibidem ٣-

ان هـــذا التعامـــل المستلب مع الموت في غرب الرأسمالية التـاجرة جعلـــه عاريا امام الانسـان في وحدته وفردانيته المسلـوبـــة وهاهي الموت تتربـــص به في "المجهولية" (١)

وتتـــرجم هذا الفزع والقلق ازاء الموت في كتابات الفلاسفة والأدبـــاء وسنذكـــر على سبيـــل المثـــال مفكريـــن وأدبييـــن عظمييـــن كيف انعكـــس فزع الموت في أدبياتهم وهمـــا ألبيـــرت كامو وجان بولسارتر ٠

لم يكن كامو فيلسوفا كباقـي الفلاسفـــة ،اذ لم يكتب كتبا فلسفيـــة تعبـــر عن اتجاهـــه بل كان أديبا روائيا ومسرحيـــا عبقريـــا لكن اعمالـــه الادبيـــة كانـــت تنطوى على نظـــرة للعالم والحياة فريـــدة يبحث فيها ابطالـــه عـــن معنى للحياة وعن مصائرهم وعن جوهر الانسـان وفعلـــه وعن معنـــى التعاســـة والسعادة ٠ فاعمـــال كامو تعبر بحـــق عن أزمـــة حياة الفـــرد في المجتمـــع الغربي وخاصة بعد الحرب العالمية الثانيـــة التي كانت بحق عبث للانســـان والتاريـــخ حيـــث خيـــم الموت على الغرب طيلـــة خمـــس سنـــوات ٠(٢).

روايتـــه الطاعون خير معبر على هذه النظرة العبثـــــة للحيـــاة وصفـــه لوهران هو وصف لمكان يشم رائحـــة الـــأم والموت ، فوهران التي اعطت ظهرها للبحر حتى لاتترك اى متنفـــس لساكنيها وسخـــة تسودها حرارة توحي بالاشمئـــزاز والقلـــــق غياب اوقلـــة الاشجار في هذه المدينة خير معبر عن ارادة هذه المدينة في حبس ساكنيها لتعليهم الموت الطاعون هي الخيار الصعب والحتمي بين عالم لم يسبح له اى معنى والموت بنهاية مريحة ٠

١ـ Anonymat

٢ـ في كتابة الانسان المتمرد، دار نشر عويدات، بيروت، ١٩٨٠، ص٨ يقول كامو "ففي العهود الولية السالفة حيث كان الطاغية يمسح مدنا باكملها لاعلاء مجده ،وحين كان العبد الموثق بعربة المنتصر يسير مصيرنا في شوارع المدن المختلفة باعياد النصر ٠ وحين كان يرمي بالعدو الى الحيوانات المفترسة امام جموع الشعب المحتشد ،نقول ازاء جرائم يمثل هذه السذاجة كان في وسع الوجدان ان يكون ثابتا وفي وسع الحكم ان يكون جليا اما ان تقوم معسكرات العبيد تحت رايات الحرية وان تبرر المجازر بمحبة الانسان او الميل الى انسانية مفتوقة فهذا العمر ما يعيبي يوجه ما ،قوة التمييز او الحكم ، حينما تتزين الجريمة بالبراءة ،وذلك بحكم طريقة مقلوبة غريبة يتميز بها عصرنا ،يطالب الى البراءة ان تقدم مبرراتها".

فـــي روايتـــه الغريب نستشـــف نفـــس الجو الفـــارغ المعنـــى هما هـــو مارســـو فـــي المستشفـــى عندمـــا ماتت أمـــه يقابل الحدث بلامبـالاة مقرعة التي تمثـل في هربـــه للقهـــوة والسيجـــارة بكـــل اطمئنـــان وكـــأن لاشيء حـــدث وما هو عملـــه هذا يؤاخذ عليـــه لحـــد الان انـــه يحاكم مـــن اجل جريمـــة يرتكبهـــا ضد عربي (جزائـــري) يقتلـــه لأتفـــه الاسبـــب وتصبـــح القهوة والسيجارة جريمـــة أخرى تلعب ضده اثنـــاء المحاكمـــة . هذه اللامبـــالاة امـــام المـــوت هـــي لامبـــالاة امـــام الحياة لامبـــالاة لانـــه لامعنـــى لا لهـــذه ولا لتلـــك .

أسطـــورة ســـيزيـــف تعبـــر عن رؤيتيـــن الحياة وتكـــرار افعالنـــا حتـــى افرغـــت في كـــل معنى ويبـــدو " مـــن خـــلال هـــذه الروايـــة ان الاستنتـــاج الاكثـــر مناقيـــة عنـــد اكتشـــاف العبثيـــة الكونيـــة هو الانتحـــار " (١) . الـــذى يعنـــي القبـــول عند حدوده ، اى " ان الانســـان ، قـــد عـــرف مستقبلـــه المرعـــب والوحيـــد ، دون اجـــل وقد بلـــغ قمـــة العبث فيندفـــع اليـــه معلنـــا نهايتـــه التـــي تجعـــل التاريـــخ غبنيـــا " (٢) .

الحيـــاة عند كامو قلق دائـــم يبحث فيه الانســـان عـــن معنى لكـــل ما يفعـــل ولكـــي لايستـــولي عليه رعـــب المعانـــاة فيستعمـــل ارادتـــه للخـــروج مـــن اللامعنـــى

١- Emmanuel Mounier, Malraux, Camus, Sartre Bernanos, ed. du seuil, PARIS, 1970, P.77

٢- Idem, P78

من اللامعنى الى انتصار العقل الذي برهن على عدم نجاعة الدين والعالم الآخر في علاج قلق الانسان في الموت والحياة المكرسة للاغتراب اذ ان العبثية تكمن في طلاق الانسان مع العالم . " (١)

فالموت عند كامو ليست قدرا بالنسبة له او سلاما تستقبله بل هي فعل معين ،نقول فعل لان كامو يهتم بالموت المعطاة جريمة او انتحار . فهي موت تجرنا الى " اتهام من يعطي هذا الموت مجرما يجب ملاحقته والتنديد به " (٢) . لكن اذا كان هذا الكلام صحيحا بالنظرة الساحية الى اعمال كامو فان عمق تفكيره ينم عن رفض للعالم لامعنى له فالقاتل عند كامو لايقتل ليعذبه ضميره بل انه يقتل وكأن هذا السلوك مثل اى سلوك آخر كالاكل والمشي(٣) اذ يفقد الموت والجريمة معناها المستقل فالمنتحر كذلك يسلك نفس السلوك ازاء نفسه ،لان الحياة مرة لانطاق ويبقى الانتحار نهاية سعيدة لها . عكس سارتر الذي يرى الامل كدواء عند الاحساس بعبثية الحياة .

فالموت عند سارتر هي غريبة وخارجة عن الانسان ليست من ضمن امكانيته . وهو بذلك يرد على المسيحية التي تقول بانتظار الموت وتوقعه حتى نتدرب على مواجهته وقهر الخوف منه .

١- *Idem, P.80*

٢- *Ibidem*

٣- في كتاب الانسان المتمرد : يقول كامو : " ان بيت القصيد ان نعرف هل البراءة ،اعتبارا من قيامنا بعمل ، لايسعها ان تمتنع عن القتل ، فنحن لانستطيع ان نقوم بعمل الا ضمن اطار زمد منا ،وبين الناس المحيطين بنا . ولن نعرف شيئا مادمنا لانعلم هل لنا الحق في ان نقتل هذا الانسان الاخر الموجود امامنا ،او في ان نوافق على مقتله ،وبما ان كل عمل في يومنا هذا يودي الى القتل ،المباشر اوغير المباشر لذلك لانستطيع القيام بعمل قبل ان نعلم هل ينبغي لنا ولماذا ينبغي لنا ان نقتل " ص٨.

يرى سارتر ان انتظار الموت والاستعداد له هما أمران يسهل طرحهما لا اتباعهما ولايرجع ذلك الى الضعف الانساني وانما الى الموت نفسه حيث ان المرء فيما يؤكد سارتر يستطيع ان ينتظر موتا محددا لكنه لايستطيع ان ينتظر الموت باعتباره كذلك اى بحسبانه موتا ." (١)

ويذهب سارتر الى ان اعادة الاعتبار الى الموت واستبعاد الخوف منه والقلق ازاءه هو ان وعي الموت الذى يريد ان يعيد له الاعتبار لايقوم الا في منظور الذاتية ، فذاتيتي هي التي تجعل موتي كذلك اى تجعله موتا متعلقا بي فسارتر يريد للانسان المغترب المنزوع الحرية ان يعيد الاعتبار لذاته ووعيها بتحرره من القيود فالانسان منذ ولادته محكوم عليه بالحرية .

" لاتتجسد هذه الحرية الا من خلال وضع اهداف في حياة الانسان حسب امكانيته . اما الموت فهو مسألة طارئة تداهم الانسان هي خارجة عن مشروعاته اللهم الا اذا اراد الاستشهاد الانتحار ، النزعة البطولية " (٢)

١ـ جاك شورون ، مرجع مذكور ، ص ٢٥٨ .
يعارض هنا سارتر اهم فكرة اتى بها فيلسوف النهضة مونتاني فاذا كانت فكرة انتظار الموت هي تعايش معها وهذا ما تعبر عنه الاناجيل ويرفعه مونتاني شعارا لمحاربة خطا الفزع الذى كانت تنشره الكنيسة مستغلة الموت اذ يقول عن الموت " فللانتظارها في كل مكان ، ان التأمل في الموت هو تأمل في الحرية ، من تعلم كيف يموت جعل الاستعباد ، ان معرفة الموت تحررنا من الذاتية والقهر " ص ٨٥ من
Montaigne, oeuvres completes, Gallimard, Paris 1962
٢ـ جاك شورون مرجع مذكور ص ٢٦٢ .

فتسمى هذه مشاريع لانها من محض ارادتي وامكانياتي . اما الموت الطبيعي فهو خارج عن انطولوجية الوجود لاجل ذاته لاني لست حرا في ان اموت اذ يمكن للموت ان يداهمني في اى وقت فهو كالولادة محكوم علي ان اولد او ان اموت وهذا خارج عن ارادتي وليس الموت هو تناهي الذات بل انا منتهي بمجرد اني اخترت مشروعا في حياتي وعندما اموت فان حياتي تصبح محل حراسة الآخر(١) .
فحياة الموتى لاتكف عن التغير ، ولكن الامر انتهى بالنسبة لها وانها ستتعرض لهذه التغيرات دون ان تكون بعد مسؤولة عنها فلاشئ يمكن ان يقع لها من الداخل . اذ هي مغلقة تماما ولاشئ يمكن ان يلجها بعد الآن . لكن معناها لايكف عن ان يعدل وان كان هذا التعديل من الخارج(٢)

فالموت هو انتصار الآخر الذى لايراني الا موضوعيا فهو ينفي ذاتيتي اى حريتي . فالموت هي سلب الحرية ، ان الموت لايعطي معنى لحياتي بقدر ماهي هدم وافراغ لحياتي من اى معنى ومن الاجدر القول بان كلا من ولادتي وموتي عبث لكن الحياة جديرة بان تعاش ولن تعاش الا بالحرية فهي الوحيدة التي تمنحها معنى . فالموت هو انتصار على حريتي .(٣) وما دام ليس من امكانياتي فلا معنى لما يوحيه لي من ذعر وخوف فهو خارج على بنيتي الانتلوجية . وعلى هذا فان الموت تقضي على كل شئ كالكارثة فلانها خارجة عن الوجود من اجل ذاته فانها تقضي على كل معنى الحياة ، فحتمية الموت تجعل الحياة دون معنى لان مشاكلها لاتلقي اى حل ولان دلالة المشاكل بحد ذاتها تبقى غير محددة في هذه العبثية العامة

١ـ نفس المرجع نفس الصفحة
٢ـ نفس المرجع نفس الصفحة
٣ـ قد تصبح الموت مشروع وموضوع اختيار الانسان وما دام الانسان محكوم عليه بان يعيش حرا فاعليه كذلك ان يناضل من اجل حرية الاخر " حرية الانسان مطلقة الانسان لايختار افعاله وحيث ، لكنه يخترع القيم التي تبررها " ص ٧٣ البروليتاري يثور ليس لتغيير ظروفه لانه طبقا يموت بروليتاري ولكن موته تساهم في تحرير طبقته " ص ٧٧ والموت هنا تصبح عامل تحرر اذ كانت وسيلة اختارها البروليتاري بكل حرية لتحرير طبقته وهنا تصبح الموت مشروعا فعلا له كل مبرراته ، انظر كتاب

-Pierre Henri simon, L'homme en procés, Malraux, sartre, Camus, Saint Exupery. P.b.P, PARis 1973

العبثيـــة العامـــة المتمثلـــة في ان كل موجود يولد دون غرض مـــا ويمتـــد بواسطة ضعف ويمـــوت صدفـــة . وهذا لايحل من عزيمة سارتـــر الذى في الانهيار يرى الحريـــة الساطعـــة تشرق لتعطي املا للحيـــــاة ومعنى لها ،فالان الموت خارجة عنا فانها تحررنا من قهرها المزعوم . فالان التناهي ليس مربـوط بالمـوت تصبح الحرية ممكنـــة .

"الموت لايمكن ان يدخل ضمن مشروعاتي اى انه يفلت مني وان مشروعاتي تفلـــت منه" (١).

لايقترح شيئا جديدا لتحرير الفرد من فزع سارتر يبالغ في الامـل والتمتـــع بالحريـــة لدرجـة انه يقترح استبعـاد الموت مـــن مجال الحيـــاة فاذا كان يعارض فكرة انتظـار المـوت وتوقعهـــا واستـــدل على ذلك بمجموعـــة من الحجـــج فانه ينفيهـا مـــن جهـــة اخرى ، فاذا اخفقـت المسيحيـــة في الاجابـــة على مشكـــل الموت فان العقـــل عن طريق سارتر غرب الموت تماما وجعلـه عبثـا فسارتـــر وكامـو يلتقيـان في مجـرى واحـد وهـو ان الاول يجعـــل من الموت والولادة عبثـــا الا ان الحيـاة جديـرة بان تعـاش لكـــن ها هو معنـــاها يضمحـــل وتتـــلاشى بمجـــرد حدوث المـــوت وبالتـــالي تصبح الحياة عبثـا فينطلق مـــن كون المـوت هو مصيـــرنا فالتـــأخذ الحيـــاة معناهـا يجب نفـــي المـــوت وتناسيهـا لكن هـــل ذلك ممكـــن
وكـــامو يذهب مـن كـون الحيـاة عبث لامعنـى لهـا . لان نشتـم رائحـة الروتيـن والوحـدة القاتلـة ولان الموت يحاصـر الانســان فالمـــوت تبقـــى هـي الخـــلاص .

- Edgar Morin, L'homme et la mort, op.cit P. 320-321

أندري مالدو أديب وجودي آخر يسكنه هاجس الموت يحاول ان يتغلب عليه عبر كتاباته الأدبية ويريد اعطاء الحياة معناها من خلال بعض مؤلفاته "أغواية الغرب"، "الأمل"، "الغرط الانساني"، "السبيل الملكي" (١)

مالدو عكس سارتر لايريد اقصاء الحياة من الحياة بل يجب اقحامها كمعطى يحفز على الحياة الزخمة فبدون الموت لامعنى للحياة فلأن الموت موجود يجب التفكير فيه باتجاه حياة مليئة، فالوعي عند مالدو بكل القلق الذي يحمله فانه لايستسلم لليأس والنهاية والمأساوية للانتحار بل يحمل حماسة الحياة، احد أبطاله يقول " ليس افكر في الموت لأموت بل لأحيا "(٢) فحضور الموت في وعي الانسان ليس استسلاما لها كما تقترحه المسيحية بل نفكر في مدى المعنى الذي يعطيه الانسان لحياته.

" نهذا هو المشكل : عبثية، مقاسة ومنتهية الحياة هي " مادة " والأهم ان نعرف مانصنع بها، يجب ايجاد الوسيلة التي تجعلها رخمة، وبهذه الزخامة نفسها نتجاوز قلق الموت، واذا استطعنا هدم جدران الوحدة " (٣). ولكن هذه الوسيلة لايمكن ان تحقق الهدف اذا كانت الدين، فمالدو ذاته ملحد ويرى ان الدين يكرس الاستسلام للموت. وهو يرى في اول الأمر الوسيلة الانسجام في

١- Pierre Henri simon, op.cit, P.29.
٢- Ibidem.
٣- Ibidem.

المخـــدرات ، الكحـــول وكل وسائل تغيـــيـــب الوعـــي يرفضهـــا لانها تعبيـــر عن ضعـــف واستســلام لعبثيـــة الحيـــاة وحتميـــة الموت . ويقتـــرح الحب "لكـــن حب مـــالدو فيزيقـــي سلحـــي محـــد و د في لقـــاء معـــدود الـــاعات والايـــام لايلبـــث ان يتـــلاشـــى تاركا وراءه عاشقيـــن محبوسيـــن في وحدة بعد فراق تراجيدى"(١).

وأخيـــرا يجد الوسيلـــة الناجع للتغلب على قلـــق المـــوت المغامـــرة . "انهـــا الوسيلـــة للتغلب على الموت والوحدة وفـــوق كل ذلك المغامرة الخطـــرة الجســـورة . ليســـت بالمعنـــى الباسكالي ، ملهـــاة سهولـــة لاجـــل نسيان البـــؤس والموت(...) ليســـت " هروبـــا " بل "حيـــدا " اثبـــات ارادى لقوتنـــا وبكـــل دقـــة انهـــا تحـــد للموت ، فاذا لم يكـــن للانســـان سبيـــلا للتغلب على الموت فان بمستطاعـــه مواجهتهـــا . متأكـــدا مـــن عدم تجنبهـــا " (٢) دائما فانه يبقـــى حرا في مواجهتهـــا والسيطرة عليها باحتقارها ، فالحـــل الأكيـــد للتغلـــب علـــى قلـــق الموت هو مواجهتهـــا ومعاملتها باحتقـــار عن طريـــق البطولة كـــل ابطـــال مالدو في اهم اعمالـــه " لايتكلمـــون الا عن المغامرة القـــوة والشـــدة "(٣) لان مالـــدو عاش احـــداث الحرب الثانيـــة في صفـــوف المقـــاومـــة الفرنسيـــة ضد الاحتـــــلال النازى وكـــل ابطالـــه هم ابطـــال المقاومـــة والبطولة والاستشهاد " ان عمـــل المغامرة ليس فقـــا الوسيلـــة المفضلـــة لتجـــاوز لتجـــاوز الموت بعـــد الرضـــا عنها ، انها التعبير ذاته عن الحياة والشكل الاكثر ملاءمـــة للوجود ، لانه ينتج عنها استعمـــال الحريـــة وتلك المقدرة الخلاقة التي عـــن طريقهـــا يتســـع لـــدى

١- Ibid, P. 32.
٢- Ibid, P 33.
٣- Emmanuel Mounier, Malraux, Camus.... op. cit, P. 44.

يقول في الصفحة ٢٥ شارحا مالرو " عالم عبثي والمحدود جدا بسبب الموت يبســـا كل قوانـــا واقتنا على هذه المغامرة الوحيدة التي هي الحياة دون تناخير ولاغد".

يتسع لدى الانسان بسط ذراعيه اعتناقا للموت" (١)

اذا يختار مالدو رغم اعتناقه للاتجاه الوجودي طريقا آخر ضد الموت اعلاء قيمة للحياة عن طريق العيش باتجاه المغامرة وذلك بحثا عن الحرية بمعانقة الموت بالتضحية بشحن الوعي بمفهوم الموت لان حضور الموت الدائم في الوعي والتفكير فيه دوما هو مناجاة للحياة واستقصاء عما يجب ان يعمل بها وفيها الفرد .

فاذا كانت الحياة بالنسبة لكامو عبثا وملكا مفروضا على الانسان لاخيار له فيه ولاحرية حياته وموته تتماثلان فان سارتر يجعل الحياة البحث الدائم عن الحرية واستبعادا هاجسا لكل ما يمت للموت بصلة لان هذه الاخيرة عائق للحرية فان مالدو يقحم الموت كموشر وحيد للحياة والذي بدونه لايمكن للحياة ان تأخذ معنى لكن شريطة ان تعاش بمدة فائقة . ويبدو الفرق بينه وبينهما "هو انه استوحى كل تأمله من عمل ، من عمل سياسي ، بينما عندهما فان تأملهما اتى من كتب اوتجارب حميمية العقدة بين رؤية العالم لديه والالتزامات

١ـ Pierre Henri Simon, L'homme en procés ..... Op. cit, P. 33.

في هذه الحالة يبلغ الانسان ذروة السعادة والحرية وذلك لانه تمكن من سبره ونخل اعماق الحياة والتجربة لان مجابهة الموت واعتناقها ليس انتحارا ـ من اجل هذف معين يتجاوز أنانية الشخص ليتدفق على الجماعة هي كسر لكل قيود الخنوع والمذلة لان المستبد المستعبد يستعمل مساومة الموت لبسط سلطانه والتحكم في رقاب الناس .

الالتـــزامات السياسيـــة هي اكثر متانـــة " (١) .
رجل جرب الموت بمواجهتها يوميـا مراجل حياة حرة ضـــد النازيـة فكونـته لديـه رويـة ثاقبـة حول معنى الحيـــاة والموت .

فمـــاذا نستطيـــع ان نستنتـــج بعد كل ماسبـق معنـا الحيـــاة في الغرب المبنـي على منطـق المردود حصـــر حيـــاة الافـــراد في ضرورات الاقتصـاد التاجـر المتجهـــة منافعـــه الى جماعات السيطـــرة الاقتصاديـــة الاجتماعيـــة والثقافيـــة قـوضت جسـد الانسـان لتسخـــره لخدمـــة الآلـــة المنتجـــة على حساب مقومات الحيـــاة حسب جدليـة السيـد والعبد .
فالعبد الآلـة المتحركـة لاتملـك اى تصـرف في حياتها .
لامعنـــى لحياتـــه الا عبر زاوية السيـــد .

في هذه الحالة أقصي مزوعي الانسان فنـاء وموتـه لان المؤسـة ترفضهـا لانها لاتشتغـل الا بمنطـق المردود وانتاج مقـومـات الحياة الذى يحتكـرها صاحب السلطـة العليـا . غاب خطـاب الموت من فضاءات الحياة ولم تصبـح الموت معطـى طبيعيـــا يطبـع سيـرورة الفـرد بل مصيـرا غريبـا نخيـــلا لامعترف به فكـل من التقـى به ممارسـة او عن طريق التفكيـر فيه اصابـه الفـم بالموت اصبحت لاتطاق اصبحت عاملا يهـز كيـان الفـرد ووجوده يترجـم فزعـا عن طريق الظاهرة العصابيـــة والجنـــون الهاجسـي .

١- Emmanuel Mounier, ... o P. cit, P. 28

ـ الفــــــــرع الثـــــــانــــي ـ

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

ـ عنـاصـر أزمـــة المـوت لدى اهالــي منطقـــة سعيـــدة ـ

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

لايمكن طرق هذا الموضوع الا بالقيام بتحليل بنية المجتمع الكلي الجزائرى لانها الطريقة الوحيدة التي تعطينا اضاءة لفهم المجتمع المصغر لمنطقة سعيدة والتي لاتختلف فيحقيقة الامر عن اى منطقة من مناطق الجزائر • لكن لايتم هذا العمل الابالقيام باجتهاد باتجاه اقلمة المفاهيم الفرويدية ماركسية التي عرضناها على واقع المجتمع الجزائري •

هذه المفاهيم التي رأت ميلادها في مجتمع مختلف تماما عن هذا المجتمع الذى نعيش فيه وهوالمجتمع الغربي • (١)

١) مبدأ الواقع : لقد اشرنا ان مبدأ الواقع فيالنظرية الفرويدية ماركسية عند كل من رايش وماركوز ليس مطلقا بالصورة التي أتت على يد فرويد • بل ان مبدأ الواقع متغير بتغير الظروف التاريخية ومستوى التطور المادى للمجتمع وكذلك تطوره الثقافي والروحي عامة كذلك يتحدد مبدأ الواقع بمدى قدرته علىتسليط السيطرة والقمع على الفرد • فاذا كان مبدأ الواقع فيالغرب يتميز بسيطرة الاقتصاد على كافة ميادين الحياة الاجتماعية ،بالارتقاء بالتصنيع عن طريق تطور التكنولوجيا الى حد الأتمتة ادت الىإخضاع الانسان للآلة وبالتالي فقدان سيطرته علىسيرورة العمل ،واستحالته الىشئ تابع لها وفقدانه للذة العمل ، فهذا الاخير اصبح عذابا ومصدرا للألم حيث يعمل المجتمع علىتصريف كل قدرات الانسان لصالح

---

١) الفكرة الاساسية لكل علم اجتماعي ـ او احسن من ذلك كل دراسة اجتماعية موسعة تتطلب اطارا تاريخيا للتصور وايضا استعمال شامل للأدوات التاريخية نفهم ان " كل خروج عن الحقل التاريخي يجعل مستحيلا (...) فهم السمات الحالية لمجتمع معين ،والذى يشكل بنية يستحيل فهمها الا اذا استهدينا بالمبدأ السوسيولوجي للخصوصية التاريخية " كلام لرايت ميلز مذكور في

-Anouar Abdelmalek, Dialectique sociale, ed Seuil, PARIS, 1972, P.133

لصالح المصالح العليا لمبدأ المردودية على حساب اللذة . واذا كان الحال على هذه عند الغرب . فما هي وضعية المجتمع الجزائري المتخلف . انه كبقية مجتمعات العالم الثالث يعاني علاقة التبعية (١) للغرب المصنع والقوى اقتصاديا فاذا كانت علاقة العبودية تجمع العبد بالسيد فان هذا الاخير يتحكم فيه كما يشاء لاحرية ولا ارادة له . له فيه حق الموت والحياة ، فاننا نستطيع تطبيق نفس نمط العلاقة على مستوى الامم والشعوب ، فالامم التي تملك مصادر القوة من مال ومتاع مادي ، وجبروت عسكري ، تسلط كل انواع السيطرة على الامم الضعيفة لتدعم موقفها السياسي والاقتصادي في العالم ، وتملك عبر علاقة السيطرة هذه ، قوة التحكم في حياة الشعوب التي تسيطر عليها .

فالدولة القوية تسلط كل وسائل التجويع والتقتيل كسبيل لاخضاع الشعوب المتخلفة . وتمثل هذه العلاقة نموذجا لعلاقات الافراد بينهم كما اوضحها التحليل النفسي لكنها هنا تعمل على مستوى العلاقات بين الأمم . فالأمم المسيطرة تقذف دافع الموت خارج احتاءها حتى لاينخرها من الداخل عن طريق أزماتها الدورية . ويدخل على اثر ذلك الصراع بين دافع الموت ودافع الحياة على مستوى عالمي كوني .

والجزائر ليست خارج نطاق هذه العلاقة بل انها داخل صميم علاقة التبعية هذه ، انها لاتملك وسائل انتاج حياتها اقتصاد مريض غير انتاجي سوق لاتمون ذاتها وسائل التموين ومصادره تقريبا

١ـ يصيغ سمير امين هذه العلاقة اقتصاديا يسميها النموذج غير المتكافئ للتراكم " التمفصل الذي يميز التراكم هو التمفصل بين نمو قطاع الانتاج للاستهلاك وقطاع انتاج وسائل الانتاج المتماشي مع زيادة الاجور الحقيقية الموازية لزيادة انتاجية العمل " وهذا التمفصل يميز ما اسميته التراكم المتمركز على ذاته " كما قلت ان " التمفصل الذي يميز الاطراف هو التمفصل بين الانتاج للتصدير والانتاج للاستهلاك الطرفي " ومضمون التشويه في التنمية يجد نفسه في هذه النقطة ، فهذا النموذج للتراكم " محلك محرك من الخارج " اي بعبارة اخرى فان العلاقات الدولية للمراكز خانعة لمنطق حاجيات التراكم المتمركز على ذاته بينما عملية التراكم في الاطراف عملية تكييف لاحتياجات الاول " انظر: سمير امين، علاقة التاريخ الرأسمالي بالفكر الايديولوجي العربي، دار الحداثة ـ بيروت ١٩٨٣/ص ٩٨ .

ومصادره تقريبا كلها من الخارج . وعن هذه الوضعية ، تنبأ الاستاذ بن عودة هامل في اطروحته حول الجهاز الانتاجي الجزائري للاخطار التي تهدد استقلال البلاد . بالاضافة الى اعتماده على البترول لتمويله والذي لاترقى مردوديته الى الاربعين بالمئة .

" ان جمود الانتاج في القطاع الصناعي (خارج البترول) المضاف الى العجز الحالي للفلاحة على تحقيق فائض الانتاج يؤثران على بدورهما على قطاع البتروكيمياء ويساهمان في الاستراتيجيات الفتاكة للشركات المتعددة الجنسيات ، في الزج به اكثر الى التثمير على مستوى دولي . ان حتمية ضمان تمويل التشييد الصناعي واستيراد المواد الفلاحية ، عن طريق قطاع البيتروكيمياء ، تودي الى استحواذ هذه الاخيرة على موارد مالية هامة " (١) .

باختصار يريد الباحث ان يقول بان الجهاز الانتاجي في الصناعة والزراعة وضرورة تمويله وتغطية عجزه تودي الى اعتماد اكبر على مداخيل مبيعات البترول . اي ان الاقتصاد الجزائري اقتصاد مبني على الريع البترولي . لكن سعر البترول انخفض وكل ما كان يدره من مال على الجزائر ، قد تقلص وكل مداخيله تصرف في تغطية الديون الخارجية ، واستيراد المواد الاساسية ." في سنة ١٩٩١ بلغت خدمة المديونية ٩،٣٥ مليار دولار وتصرف الجزائر ٣،٠ مليار دولار لضمان استيراد المواد الغذائية من الخارج . " (٢) .

---

١) - Bengouda Hamel, systeme productif Algerien et independance nationale, O.P.U, Alger, 1983, P.583.

٢ - Source: Abdelmadjid Bouzidi, "Economie Algerieme entre chomage et inplation" Lenatin N°144, du: 04-03-92.

اذن كيف يمكن وصف مبدأ الواقع هذا المتميز باقتصاد مريض لايعتمد مردودية انتاجية ،بقدر مايعتمد على مداخيل بيع البترول الى الخارج وفي هذه الحالة مفهوم المردودية لايلقى وظيفة في التحليل عند دراسة هذا الاقتصاد .
فكيف يتم وصف اقتصاد ويشتغل بميكانيزمات الريع .
يقول عبدالرحمان مبتول :" الجزائر تعاني الدورة الجهنمية للاستدانة الفائقة ،تضخم سريع واختناق لاقتصادها (...) الدعامة الاساسية للنظام الاحتكاري المعتمد اساسا على الريع البترولي والغازي " (١) .

اقتصاد ريعي كما يتفق معظم الاقتصاديين على تحديده . لايعتمد المردودية والاستثمار المنتج ،بل تصدير البترول والاستفادة من عائداته . يحكمه جهاز موساتي قمعي قوامه العسكر والبيروقراطيين المستفيدون الأوائل من ايرادات المداخيل البترولية . والقائمين على توزيعها ، جهاز موساتي فرضته ظروف تاريخية كان العنف فيه ذو دور بارز . حيث كان هدفه التحرر من الاستعمار حيث تبوأت جماعة اجتماعية ذروة سلم السلطة باسم الشرعية الثورية . واصبحت تمارس السلطة وتراقب كل دواليب الاقتصاد والمجتمع . لاباسم مبدأ المردودية او باتجاه مشروع اجتماعي حضاري بل باسم اعادة انتاج علاقة سلطة بين جهاز بيروقراطيي عسكري (٢) وباقي فئات المجتمع .

-Abderrahmane Mebtoul, "Surendettement et-nécessité du reechelonnement", In: El watan, N° 864, du 09-8-93.
- Addi Lahouari, "Nouvelle stratégie petroliere en Algerie" In El watan du 18-05-1992
- Lies Boukraâ, Reflexion sur le concept de secteur d'etat", actes du colloque de Sociologie, Alger du 28 au 30-04-86, In: sociologie, N°03, ap.u Alger 1987, P.184-185

وفي هذا الموضوع يقول الاستاذ سامي ناير :
" ان الدولانية - الاجتماعية الجزائرية ، تظهر اقتصاديا معتمدة على نموذج تراكم ، مستند على عقلانية مزدوجة متناقضة (والتي نصفها بالسياسية من جهة ، واقتصادية من جهة اخرى الاولى تخضع الثانية) ويتحرك كنموذج للتراكم الداخلي التراكم يحقق خارجيا باستثمار جزئي للريع الطاقوي النابع من سيرورة تثمير الموارد البترولية والغازية في السوق العالمية " (١) وعلى هذه الصورة تكتمل صورة النظام الاقتصادي الريعي يسيطر فيه السياسي على كل مجالات النشاط الاجتماعي الاقتصادي يشتغل الاخدمة للسياسي " فالعقلانية الاقتصادية (كهدف) تسيطر عليها وتحددها في اخر المطاف العقلانية السياسية (كمعيار) الخصوصية بالجماعات بالجماعة ذات المصالح السائدة (الزوج جيش - بيروقراطية) " (٢) . وتظهر هنا الجماعة المسيطرة على دواليب السلطة في الزوج الجيش والبيروقراطين وتصبح بالتالي الشرعية الاجتماعية او الشرعية الطبقية لاتحددها مصالح اقتصادية انتاجية ، مبنية على التراكم بل شرعية تاريخية بالنسبة للجماعة الاولى الجيش والثانية شرعية توزيعية للريع تحت غطاء الاشتراكية كخطاب وباسم شعبوية ايديولوجية " لان التكفل بسياق تثمين رأس المال يبدو ثانويا بالنسبة للتحكم في السلطة الباب السياسية لان هذه الاخيرة تعتمد في بناءها على متغيرات غير اقتصادية متغيرات اثنية ، جهوية ، دينية الخ ..." (٣) .

وأمام هذا الواقع لايسعنا الا ان نختار مكان مبدأ المردودية

١- Marc Ecrement, Independance politique et liberation economique, O.P.U.-P.U.G, Alger-Grenoble, 1986, P281

٢- Ibidem.

٣- Ibidem.

مبدأ السيطرة لان العلاقات الاجتماعية الانتاجية تخضع لعلاقات سياسية (١).

وعندما ضعف الاقتصاد الريعي بانهيار اسعار البترول ضعفت شرعية (٢) هذه السلطة لانها بالاضافة الى الشرعية التاريخية تستمد شرعيتها من خطاب شعبوي يعتمد منطقا توزيعيا للثروات، حيث نقصت مداخيل الافراد والجماعات المقصاة من السلطة. وانخفضت قدرتها الشرائية وازداد الفقر والبطالة، لدرجة ان هذه الجماعة المسيطرة لجأت الى تقوية سيطرتها بتقوية جهازها القمعي. لخنق ثورة الشارع، وحتى يمكن لها اعادة بناء العلاقة التوزيعية على اسس اخرى تقضي فئات كبيرة من المجتمع.

وبالتالي فان مبدأ الواقع في الجزائر كبلد متخلف اقتصاديا لايعكس علاقة اقتصادية مبنية على عقلانية انتاجية. بل هو واقع يعكس علاقة فوق اقتصادية، علاقة سياسية، علاقة سيطرة، اذن يمكن ان نقول اخذا بعين الاعتبار هذا الواقع ان الهيئة العليا التي تتعارض مع مبدأ اللذة في مجتمع متخلف الذي هو المجتمع الجزائري هي " مبدأ السيطرة ".

فاذا كان مبدأ الواقع مثل ما اشار اليه مركوز متغير تاريخي حيث ان مضمونه يتغير بتغير المرحلة التاريخية المعينة والمجتمع المعطى تاريخيا. فان المفاهيم الاخرى كمبدأ اللذة يتحدد بجدليته مع مبدأ الواقع فيما له الواقع من امكانيات اشباع حاجاته. لكنه على نفس دينا ميكية دينا ميكيته بغض النظر عن تغير المجتمع او تطوره.

١- ان تلازم علاقات الانتاج واندماجها في علاقات ايديولوجية سياسية هي الميزة الاساسية لعلاقة الدولة بالمجتمع في المجتمعات الما قبر أسمالية "
غودولييه موريس يصف علاقة دولة الأنكا بالمجتمع المكسيكي القديم الأنكا القبيلة المسيطرة المستمدة لسلطتها من المؤسسة الدينية (الأناكا الاله ابن الشمس) حيث الديانة تشكل عنصرا داخليا للعلاقة الاجتماعية للانتاج، تستغل كمكونات داخلية للعلاقة الاقتصادية السياسية لاستغلال الفلاحين من قبل الارستقراطية القابضة سلطات الدولة " ص ٢٣٨ من كتاب - Maurice Godelier
Horizons, trajets marxistes en anthropologie, Maspero, PARIS, 1977

٢- برهان غليون يعلق على الاثار البالغة التي نتجت عن الريع البترولي في دعم مواقع الطبقات الحاكمة في العديد من الدول العربية خاصة في عملية انفصام الدولة عن المجتمع والقمع المسلط على فئات عريضة منه حيث أن "تراكم امكانات مالية ضخمة جعلت المسؤولين السياسيين يعتقدون ان التنمية هي مسألة استثمار وخيارات تقنية، بينما يفحي بقيم الانسان، دورة، ذكاءه، قدرته الابداعية ووعيه " ص ٩٩ من كتاب:
- Burhan Ghalioun
Le malaise arabe, etat contre nation, E.N.A.G
Alger, 1991

يعمل مبدأ السيطرة على اخضاع مبدأ اللذة لمصالحه العليا وهي اعادة انتاج علاقة السيطرة في المجتمع باضعاف قوى الايروس عن طريق المؤسسات القمعية هي الدين المدرسة الشرطة ووسائل الاعلام فبينما كانت السلطة السياسية بمثابة الموزع الاساسي لوسائل الثروة بدون منازع خدمة لدوافع الأنا الخاصة بالدفاع عن الذات والحفاظ عليها عن طريق توزيع الريع البترولي كانت في نفس الوقت تقمع الدوافع الجنسية للايروس (١) .
وفي كلتا الحالتين كانت النتيجة اعادة توزيع مواقع السيطرة على المجتمع . ان السياسة التنموية التي تبعت سنوات الاستقلال حتى بداية الثمانينات كانت تنضوي تحت لواء التحرر الاقتصادي وبناء اقتصاد مستقل توزع فيه الثروات على كافة الشعب بالتساوي . ضمان الشغل لكل الناس ، والوعد بحياة افضل لقد كان الخطاب السياسي السائد مكرس للحياة ويتغنى بالسعادة لكافة افراد الشعب .(٢)

ومن جهة اخرى كان ولايزال يسلط القمع الشديد على الحياة الجنسية للافراد باسم الاخلاق والقيم الاسلامية ،زعم الليبرالية النسبية التي شهدتها العلاقة بين الجنسين في المدارس الجامعات والمؤسسات الاقتصادية والادارية . فالوصول الى اشباع الحاجة الجنسية لايمر الا عبر المؤسسة الرسمية وهي الزواج وبالتالي يصبح بلوغ اللذة الجنسية محكوم بجهاز قمعي من المحظورات ولايمكن القيام او الدخول في علاقة جنسية الا من خلال رقابة المؤسسة الرسمية للزواج هذه المؤسسة الموطرة للعائلة هذه الاخيرة التي بدورها تعيد انتاج علاقات

١- أريش فروم يعتبر دوافع حفظ الذات اهم من الدوافع الجنسية هذه الاخيرة يمكن تصعيدها وتأجيلها بطرق عدة ،بينما دوافع حفظ الذات تتطلب اشباع فوريا ولاتقبل لا التصعيد ولا التأجيل والاحداث والاحداث الموت ولكن يقول " انهما مرتبطان مرتبطتان بعلاقة متبادلة عند غياب امكانية اشباع احداها ،فان اشباع الاخرى يكون ممكنا لاغراض داخلية اوخارجية " في كتاب أريش فروم ص ١٤٧ Erich Fromm, Crise de la psychanalyse, OP. cit

انتـــاج علاقات السلطة في المجتمع سلطة الجماعة الحاكمة من جهـــــة وسلطة الرجل (١) التي تدعمها كأساس ايديولوجي يؤطر البناء الاجتماعي والذي من خلاله ترتسم كل المؤسسات الاجتماعية القاهرة .

" الحياة الجنسية لاتصبح اخلاقية الا اذا سخرت للتوالد ،لامعنى لاى شيء خارج التوالد " (٢) .

تلقي هذه الرؤية خلفيتها في ايديولوجية وبنية خانقة ابن تيميـة والغزالي لايريان في العملية الجنسية الا مطية جعلها الله للانســـــان حتى ينجب نســـلا لاعمار الارض .

انا الرؤية الرجوليـة وهي رؤية المجتمع للجنس ماهي الا رؤيـــة نفعية الهدف هو الانجاب واعادة انتاج للقاعدة البيولوجية للمجتمع ليس الا ويبقى الجنس ذلك المحرم القبيح ذلك الشيء الذي يتجسد فيه كل الشر ومعروف انا الاسلام - والذي تبرر السلطة السياسية موقعها انطلاقا منه - يعاقب اشد العقاب الجنس خارج مؤسسة الزواج ،فالزاني يجلد ومن مارس مع امرأة متزوجة يرجم الرجل ومعه المرأة في هذه الحالة حتى الموت

١- الأبوسينة هي ثابت اجتماعي متحذر بعمق في كل الاشكال الاخرى السياسية الاجتماعية والاقتصادية " تكون فيه العائلة وحدة للانتاج وخاصة للاستهلاك وحدة سياسية تحت سيطرة الرب الوحيد وهو الاب " ص ٩٢ من كتاب Samia Ramzi Abadir, La femme arabe au maghreb et au machrek, Enal, Alger, 1986.

٢- Ibid, P154

٣- حول هذه الفكرة يقول نور الدين طوالبي " الواحدية الاسلامية تعمل على قمع الدافع الجنسي ولايتم تحريرها الا في اطار الزواج لدرجة ان الزنا وقذف المحصنات بالنسبة للعقيدة الاسلامية محرمات يتعرض صاحبها رجلا او امرأة يعاقب بالقتل ولكن هذه العقيدة ذاتها تعيد الاعتبار للدافع الجنسي وترى فيه منبع للايمان حيث انه عندما يتحرر عند الزواج وفيه وفي نطاقه فقط يصبح عاملا لدعم الامة " ص ٩٣ من كتاب - Noureddine Toualbi, Le sacré ambigu, E.n.a.l, Alger, 1984.

وعند بلوغ رشدها تحجب الفتاة عن الانظار (١) وتبقى في البيت لاعين لها على الرجل ،ولاعين للرجل عليها . ويعلم الفرد في مجتمع رعوي فلاحي - مثل منطقة سعيدة محافظ على هذه القيم المفرقة المميزة بين الجنسين ،فلا تجد في الاطفال مختلطين فكل من البنات والبنين لهم مجالاتهم للعب وطرقهم . كذلك يعلم الطفل على التحقير بالمرأة (٢) ويدرب على ذلك منذ صغره ،حتى اذا كبرا يصبح اتصالهما محرما مقموعا .(٣)

ويلعب الاب كحافظ للايديولوجية الدينية ،وكامتداد للسلطة الاخلاقية للمجتمع ،بتجسيد هذا المنع ،زيادة على كل هذا فان تطور الحركات الاسلامية وتجذرها في الوسط الحضري المعصرن جعلها ترد بالعنف على كل مظاهر الاختلاط في الشارع والمؤسسات الادارية والاقتصادية . اذ احيت مبدأ النهي عن المنكر والامر بالمعروف حيث تجند الشباب المنتمي الى هذه الحركة لمحاربة اشكال الاختلاط بالقوة حيث يعامل بالعنف كل من وجد من فتى وفتاة مختليان واصبح حضورهم اكيد في الشارع ،حيث اضطرت الفتيات في معظمهن الى لباس الحجاب والعزف عن مخالطة الفتيان في سنهن ،لقد تدعمت العقلية الريفية المحافظة بأيديولوجية دينية اكثر تزمت وتعصب الى حد تشريع العنف وتزكيته

١- Nafissa Zerdoumi, dans son ouvrage: Enfant d'hier, Maspero, PARis, 1982.

تعتبر الاحتجاب طقس مرور " منذ سن الثانية عشر تبدأ الفتاة في تعلم وضع الحجاب " ص ٢١٢

" منذ صغرهم الذكور من الاولاد تجدهم شديدي الغضب والالحاح باتجاه الام والاخوات وهذا سلوك تعتبره الامهات عاديا برهان على الرجولة " ص ٩١ في كتاب

- Camille Lacoste dujardin, des meres contre les femmes, Boucher jeu 1991

٣- في ماض ليس بالبعيد كانت الشرطة تقبض على كل شاب وشابة يمشيان في الشارع او يتنزهان في الحديقة العمومية .

فاذا كان الغرب يقنن ويتسامح بالاختلاط الجنسي فاننا رأينا كيف انه يقنبه ويخضعه لوتيرة المردود الاقتصادي الذي يجد مبدأ الواقع الفرويدي . ورأينا كذلك كيف ان مبدأ الواقع هذا يتجسد في الواقع الجزائري المتخلف بمبدأ السيطرة كيف يتعامل الانا الرفيع المتجد في الموسسات القمعية مع الدوافع الليبيدية للايروس خدمة لمبدأ السيطرة هذا .

وهنا لامناص من الاستنجاد بفيلهالم رايش الذي حلل المجتمع الالماني المتأزم اقتصاديا وتحت السيطرة السياسية النازية على السلطة في سنوات الثلاثينات . ويرى فيلهالم رايش كمقدمة لدراساته حول القمع الجنسي ووظيفته الاجتماعية

" ان استقرار المجتمعات المنقسمة الى طبقات يعتمد على خضوع واستسلام حر للطبقات المستغلة اذا قفت هذه الاخيرة كل وقتها في اعادة النظر في النظام القائم ومحاولة قلب الطبقات الحاكمة بالقوة ، فان اى سلم اجتماعي لايصبح صالحا . اذا يجب على الطبقات الواقعة في السلم الاجتماعي ان تقبل وضيعتها بفقدان حتى الاحساس بالاستغلال لما يحصل هذا التحول السيكولوجي ويكتمل ، تصبح سيطرة الطبقات الحاكمة أمرا واقعا تتمأسس ولاتصبح مدركة انذاك كشئ مفروض من الخارج " (١)

١- Michel Cartier, Ce que Reich aurait dit, Hafabout université, Paris, 1974, P. 107-108

وعن طريق الاب الممثل للسلطة العائلية يتم تكون هذه البنية الطبائعية المبنية على الخضوع للنظام السائد ،تتركز هذه التربية خاصة على الحياة الجنسية للطفل فكل نزوع طبيعي لديه الى لمس وتحسس اعضاءه الجنسية يتبعه قلق التهديد بالخصاء وكلما عاود على ذلك يقمع " لكن كل عقاب تكون نتيجته ربط احاسيس القلق بالسلوكات الممنوعة وينجر عن ذلك ان الضجر المرتبط بالتعبير عن الحاجات الجنسية له علاقة بالقلق الذى تزكيه نزوعات التمرد لان الجنس والتمرد كلاهما قمعا بدون تمييز من قبل المربين (١) .

اذن ترتبط كل ارادة لتخطي المنع بقلق يؤدى بالفرد في مرحلة الطفولة الى كبت رغباته وحسب راشين فان اى رغبة لتخطي المنع الجنسي اى نزعة للتمرد تعاقب لان رغبة تخطي المنع الجنسي (٢) قاعدة لكل تمرد اذا قمعت تم السيطرة على اى نزعة للتمرد قد قمعتا من قبل الاب رمز الاول للسلطة سلطة الجماعة المسيطرة على المجتمع ويمكن ان نستخلص مع ميشيل كارتيه الافكار الاساسية لراشين في هذا الموضوع :

١ـ القمع الجنسي يخلق افرادا مرعوبين من قبل السلطة .

٢ـ الكبت الجنسي ،الذى ينتج عن استيعاب القمع الجنسي يضعف الانا لان الفرد الذى يجب عليه استثمار طاقته بانتظام لمنع التعبير الواعي عن حاجاته الجنسية ينتقص قسما كبيرا من قدراته " (٣) .

١ـ Michel Cartier, OP. cit, P. 124

٢ـ يعتبر فرويد القمع الطفولي للجنس هو اصل لكل اضطراب عصابي لاحق هذا الاضطراب العصابي الذى يميزه القلق والفزع الشديدين.

٣ـ Michel Cartier, OP. cit, P. 125

ان ضرورة السيطرة من لدن الطبقات العليا تستدعي خلق سيكولوجية الخضوع لدى المسيطر عليه حتى يتقبل هو ذاته هذه السيطرة معتبرا اياها طبيعية . هذه السيكولوجية تخلقها ديناميكية ميكانيكية منتظمة متكونة من المدرسة ، العائلة الدين ووسائل الاتصال وغيرها . ويشبه رايش الطبقات المسيطر عليها " بالاغنام في حقل احيط بسلك كهربائي كلما اقتربت هذه الاغنام من هذا السلك الكهربائي تتلقى شحنات كهربائية كلما عاودت الكرة كانت الشحنة اكثر قوة وتأثير فيصبح السلك بذلك مؤشر لعدم الخروج من الحقل من دون داع للراعي او الكلب كذلك المجتمع تحكمه شبكة من الاسلاك الكهربائية اللامرئية وهي قيم الطبقات المسيطرة (١) " انها تمنع اي محاولة للمساس بها او تجاوزها وعلى اثر ذلك يتربى في الفرد فعل مشروط للخضوع والاستسلام وقبول السيطرة .

وتلعب العائلة دورا كبيرا في تلقين هذه القيم بدعم هذه الافعال التلقائية التي انتجتها التربية العائلية عن طريق مجازة الفعل الحسن ومعاقبة الفعل السيء المنافي "للاخلاق السائدة اخلاق الاسياد الاقوياء (٢) .

وهذه هي الطرق التربوية العائلية المبنية على تطبيع الطفل على سلوكات معينة وتدخل هذه التربية في سنوات مبكرة عند الطفل حيث يكون في طريق التدرب على نظام طبائعي يهيكل بنية الفرد الطبائعية (٣).

١- Ibid , P.108

٢- Wilhelm Reich, L'irruption de la morale sexuelle, P.B.P, Paris 1974, P.188

٣- يركز رايش كل تحليله في ميدان علم الاجتماع التحليلي على تحليل البنية الطبائعية للفرد.

وعلى هذا الاساس يؤكد رايش على الطبيعة والوظيفة الاجتماعية للقمع الجنسي " ان الكبت الجنسي يدعم الرجعية السياسية على الطريقة المبينة اعلاه ، يجعل الفرد لاميال ، لاسياسي ويخلق اضافة لذلك قوة ثانوية في بنية الانسان ، مصلحة اصطناعية تدعم مجانبها وبصفة نمطة النظام المطاعي لان الجنس الذي يريد الكبت منعه من الاشباعات الطبيعية يلتفت الى مختلف الاشباعات المعوضة (١) .

هذه الاشباعات المعوضة اذا طبقت على مجتمعنا والمجتمع الصغير لمنطقة سعيدة تجد تصعيدات على مستوى اجتماعي ، حيث تتظاهر عبر اشكال العنف لان الكبت كبت دوافع الايروس الجنسية كان يدعمه الاشباع الجزئي المتمثل في توزيع الريع لكن ازمة النظام الريعي التي تزامنت مع انخفاض اسعار البترول أدت الى اقصاء اعداد هائلة من الناس وتهميشهم (٢) حيث نقصت امكانية التشغيل وتراكمت المشاكل الاجتماعية كالسكن وغيرها وغلاء المعيشة مما ادى الى انفجار عدوانية هدامة فكل الدوافع الهدامة قذفت الى الخارج قذف الموت الى الخارج هو سعي الى اكتساب أمال الحياة . وكان ان اندلعت احداث اكتوبر ١٩٨٨ وشملت كامل الوطن وكان الموت الفعلي في الموعد . فخرجت الآلة القمعية للدولة لكبح عدوانية الجماهير عن طريق الزجر الفيزيقي ونستطيع القول ان احداث العنف هذه والتي اخذت الان اشكالا اكثر مأساوية سببها هوان :

-Wilhelm Reich, La psychologie de masse du fascisme, op. cit, P. 51.

٢- " في كل مجتمع هناك مركز ، فئات متوسطة وفئات مهمشة ، الهوامش تجدها تنشط بدرجة او اخرى لكن فوق ٢٠٪ يمكنها ان تثور على النظام في كليته (...) وظاهرة التهميش قد بلغت في بلدنا نسبة ٣٠٪ " الكلام لعلي الكنز في حوار اجرته معه جريدة الوطن
-El watan, N° 629, du 16-17 oct 92

سببهـــا هو ان :
١) قمع الدولـة لافراد المجتمع ،بلغت اعدها ،لان الريع البترولي الذى كان مخفضـا ومخففـا للتناقضات المخزونـة في دافع المـوت قد استنفـذ مهمتـه وكان نتيجـة ذلك انه رمى مئـات الآلاف مـن الناس الى موت اجتماعـي سببه اليأس والتهميـش.

٢) ان هذا التهميش واليأس المولدان للفقر والبؤس مضاف اليهما أزمة الهوية اى ازمة الوجود اضعفت من سيرورة الجمعنـة ، لقد رمت الفـرد في وحدة قاسيـة ضعف فيها دافـع الحياة ،وسيطـر عليها دافع الموت لان الانسـان لايسيطـر عليه قلق الموت الا في وحدتـه لان الحيـاة الاجتماعيـة هي كبـت ونسيـان للموت في غمرة الحياة المكثفة والزخمة.

٣) ان رفض التهميش هو رفض الموت الاجتماعي ويكون نتيجة ذلك اما التغيير عن طريـق العنف ،باتجاه حياة افضـل او الموت رافضا الموت الاجتماعي (١) الاقسـى من الموت الفعـلي.

وتبقـى على اثر احداث اكتوبر الحياة السياسيـة والاجتماعية في الجزائر موسومة بالموت ، فالحيـاة السياسيـة اكثر ما يميزهـا هو فقـدان انخـراط افراد المجتمع في البرامج المسطـرة من قبل الدولـة (٢) وحقيقـة الامر هي اننـا اذا دققنا النظر

١ـ تخلق هذه الظروف روح الاستشهاد فالشهيد الذى يقذف بنفسه للموت من اجل الجماعة يقوى مقاومة الجماعة ويبقى حيا في المخيال الجماعي كمثل اعلى لهذه الجماعة.
٢ـ انظر بهذا الصدد تحليلات برهان غليون حول المجابهة بين الدولة والامة في العالم العربي في كتابه Le malaise arabe..., op. cit.

على غرار رايش فان اهتزاز ثمانية وثمانين ومالحقها من عنف الاغتيالات هو " تمرد لاشعوري على الاب " (١) الطاغية والذي تتجسد صورته في الدولة (٢) .

انا الدولة هي المثل الاعلى للجماعة نظريا :

" الدولة تحتكر السلطة لان الافراد رفضوا استعمال العنف باسم القانون بصفته المثل الاعلى للجماعة (القانون كموضوع حب) والسماح للدولة باستعماله على تكل عقاب ضد كل من تعداه والذي يشكل خطرا على الجماعة بالمساس بالمثل الاعلى لهذه الجماعة اي ان في هذه الحالة فان احتكار الدولة للعنف يسمح لها بالحفاظ على القوانين بما ان هذا الاحتكار يقودها الى ارجاع هذا العنف الى الافراد الذين نقضوا العهد الاول بوضعهم الموت خارج ذواتهم "(٣)

اذن بهذه الصفة تقمع الدولة النزوعات السادوماسوشية لدى الافراد بتجريد العنف على كل فرد بقدر ما وضعه هذا الاخير خارجه اي في موسسة الدولة وهذا هو جوهر القانون . وضع الناس متساوون امام القانون (الموت) .

لكن عندما يقوم الحكام بمزق المثل [illegible] العليا للجماعة اي العدل بالقوانين باستعمال القانون في سبيل الظلم فان الثورة تصبح شيئا لامفر منه لاعادة القانون الى طابعه العادل .

١- فيلهالم رايش / المادية الجدلية ..... ، مرجع مذكور، ص٨٣

٢- في الطوطم والمحرم يوكد فرويد بان العشيرة الاولى تميزت باستبداد الاب على الابناء واحتكاره للنساء وكان ان تمرد الابناء عليه وقتلوه ثم ندموا على ذلك وجعلوا الاب طوطما يعبدوه وعبره اتبعوا قواعد اولية للتنظيم الاجتماعي وما الدولة الا شكل او صيغة للطوطم الاول .

٣- Franco Fornari, psychanalyse de la situation atomique, op. cit, P.57.

" بما ان الحكام يراقبون القوانين ،يغيرونها ،يخرجونها عن مسارهـــا وتصبح قوانين غير عادلة . يحولونها الى اداة في خدمة العنف البدائي ومقابل ذلك فان الثورات ما دامت تعبر عن طموح المحكومين الى اعادة الحقوق الى نصابها العدل والمساواة ،فانها تمثل بذلك القضاء المؤقت لاحتكار الدولة للعنف وترمي الى اعادة الاعتبار للمثل العليا الذي ضرب عرض الحائط وذلك في اطار الدولة " (١) .

وكانت احداث اكتوبر وما تبعها من ممارسة للعنف من قبل المحكومين هي ممارسة الهدم والموت تجاه اجهزة الدولة الظالمة المستبدة باتجاه تثبيت شكل اخر من الحكم . ومع تفاقم الوضع الاجتماعي المتردي بانتشار البؤس والظلم والزيادة في صفوف الفقراء اكثر من مليوني عاطل عن العمل تزايدت ظاهرة اللجوء الى الدين لانه المنفذ الوحيد من اليأس المفضي الى الانتحار (٢) باتجاه انتحار اجتماعي اذ غرق غالبية الجماهير في شعارات دينية سلفية ،تحقر الحياة وتمجد الموت المنفذ باتجاه خلود بقرب الله وتمتع بملاذ جناته ، وتبلور هذا الوعي الى مستوى اصبح فيه معبر عن برنامج سياسي في اطار منظمات دينية تعبر حقا عن الدوافع العدوانية لافراد يئسوا من ظلم المجتمع واللامساواة الصارخة .

هؤلاء الافراد فضلوا الانتحار في الحياة بالابتعاد عن ملذاتها

١- Ibid, P. 59

٢- C.F Emile Durkheim, Le suicide, P.U.F, Paris, 1969, notemment Le Livre II, CH II

الانتحار محرم قطعا في الاسلام قضى على روح ليست ملكه فهي ملك لله وعجل اجلا ليس يتحكم فيه الا الله وحده فالانتحار في هذه الحالة تحد لارادة الله ،ومن جهة اخرى فان المنتحر بفعله هذا رفض قدر الله في عباده ورفض بالتالي العيش ضمن امة الاسلام اذن فهو متمرد على النظام الاجتماعي الاسلامي برمته .

بالابتعاد عن ملذاتها (١) أملا في حياة اخرى خالدة قرب الله فهذه التنظيمات السياسية لم تطور برنامجا اقتصاديا اواجتماعيا تكريسا للحياة . بل صنعت خطابا مليئا بالتهويل من عذاب الآخرة خطاب يمجد الموت وترك الحياة الدنيا للفوز باخرة سعيدة ملئ بالمتاع الذى فقده الانسان في الحياة في سبيل الله . وكل وسائل السعادة لكن بشرط قيام الدولة الاسلامية السبيل الوحيد الكفيل بقيادة الناس في حياتهم حسب تعاليم الدين الاسلامي حتى يهيئهم لخوض حياة خالدة في عالم اخروى قرب الله .

وتستعمل هذه التنظيمات صيغ وشعارات دينية لخوض حملاتها الانتخابية . وكان اشهرها مايلي :" ان صوتكم امانة تحتاسبون عليه يوم القيامة (٢") حديث ديني اخرج من نطاقه الذى قيل فيه وشحن بمضمون سياسي ذو غرض انتخابي لم يكن للنبي (ص) اى دراية به .

وتحولت بذلك اداة انتخابية لاكيدة خاصة بحياة البشر وصيغة لاختيار القائمين بشؤون حياتهم الى طقس ديني يتم به خلاص الانسان من عذاب النار ،يستعمل هول الموت في شؤون حياتية محضة وامام هذا الوضع " اصبح من المستحيل على المنتخب المسلم ان ينتخب او يختار حزبا غير الرسالة الربانية " (٣) . فاختيار حزب غير الحزب الديني المبشر بالحياة الاخرة هو حكم المسلم على نفسه بعذاب النار وهذا من وجهة نظر التفكير الديني السياسي السائد .

١ـ عرف هذا الاتجاه في الثقافة الاسلامية التعبدية ذروته في النزعة الصوفية حيث يفضل ابن عربي الموت الرمزى رفضا لملذات الدنيا ويعدد اربع انواع للموت عوض ملذات هذه الدنيا للفوز بالحياة الحقيقية قرب الله " الموت الابيض وهو الجوع ،الموت الاحمر وهو مخالفة الشهوات ، الموت الاسود وهو احتمال اذى الخلق وتحمل الآلام الجسمانية والمعنوية بصبر الموت الاخضر هو ليس المرفع من الخرق التي لاقيمة لها " ص ١٥٠ آسين بلاثيوس ابن عربي ـ دار القلم بيروت ١٩٧٩ .

٢ـ حديث ديني رواه مسلم في صحيحه .

٣ـ Addi Lahouari, "La construction democratique entre l'utopie islamiste et la societe fraternelle" In - El watan, N° 443, du 11-03-92

ان العنف السياسي الديني هو محاولة لتأسيس دولة ليس تحترقابة الافراد يتصرفون فيها بقوانين ،ينزوعها من وحي مصلحتهم وغفلهم . بل دولة مبنية على سلطة الله وشرائعه انها العودة الى الرمز الاول للاب موضوع الحب وهو الله . ان الحكم بقانون الله (الاب الاول المستبد) القوى السلطان والعارف بكل شيء بما فيه مصالح العباد في حياتهم واخرتهم ،هو الوحيد الكفيل ببسط العدل ونبذ الظلم ، وجعل كل افعال الناس طاعة وعبادة لله لضمان الحياة السعيدة في الاخرة بقربه (٩) . ان الابتعاد عن امور الدنيا وملاذها هو تضحية بالحياة العارة هو موت في سبيل الانبعاث لخوض سعادة رضى الله والخلود بقربه

ان سعيدة التي هي مجتمع مفقر مصفر للمجتمع الكلي لم تنج هي كذلك من نزوعات العنف والعدوانية المنتشرة بين افراد المجتمع سواء كان هذا العنف ذو طابع سادي موجه الى الخارج بقتل الاخر . او هتك حرمته وماسد شيء اي عنف موجه الى الذات بالاتجاه المفضي الى الانتحار عن طريق تناول المخدرات والكحول والادمان عليهما لنسيان واقع الموت الاجتماعي . واقع مليء بالالام لايمكن التخلص منه الا بتوجيه نزوعات العدم الى الذات في سبيل الانتحار .

---

١) حول هذه الفكرة نلتمس عند ابن خلدون تعريفا للخلافة التي هي رمز الدولة الاسلامية اذ يقول :" هي جمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الاخروية والدنيوية الراجعة اليها ، اذ احوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع الى اعتبارها بمصالح الاخرة "
المقدمة ص ٢٤٤ .

- خلاصة الباب الاول -

أنهينا هذا الباب على وقع أزمة الفرد الجزائري ، أزمته في حياته في حياته ومصيره اى موته . هذه الازمة التي تمر بها غالبية البشرية في عصرنا على وجه الارض . فالاسلام اتى بتصور شامل ومتكامل حول الموت مجيبا عن السوال الميتافيزيقي لما بعد الموت ، حيث يأتي بتصور مرح لها اذ يفتح ابواب الخلود في الجنة لكل مومن اتبع تعاليم الله ، ويعطي في الدنيا فرصا للتطهر والتوبة ونقض المعاصي حتى الذى لم يشهد ولم يعترف بها بقواعد الاسلام طيلة حياته وفعل ذلك عند الاحتضار اعطيت له فرصة النجاة . فمن عمل الصالح اكثر من السيء فاز بجنات ومن عمل السيئات كان له عكس ذلك ، حياة في جهنم خالدا فيها ولكن الثواب والعقاب والحساب اخت مفاهيم اساسية تنتظم حولها كل المؤسسات الاجتماعية في الاسلام واصبح كل النظام الاخلاقي مبني عليها حيث عززت حياة المسلم مزدوجة المستوى او انها تنتظم على مستويين اثنين ، السعي لكسب العيش والتمتع بملذات الحياة في حدود ما يسمح به الشرع . ومن جهة اخرى التفكر فيما بعد الحياة ، من حساب وعقاب وهذا يتطلب من الانسان السعي من اجل العمل الصالح لما توصى به النصوص قرآنا وسنة . والابتعاد عما تستهجنه وتستقبحه وتحرميه هذه النصوص .

ان هذه الحياة المزدوجة لاتصل الى الاتزان الا في ظروف تاريخية معطاة ، فالحضارة العربية الاسلامية ، وصلت الى أوج ازدهارها المادى والروحي . وكل المعطى المادى كان يدعو الموازنة بين ملذات الدنيا وزينتها من جهة ومن جهة اخرى السعي باتجاه العمل الصالح وادخار ما استطاع المومن من اجور تفكرا في يوم الدين ، عملا بالحديث النبوى « اعمل لدنياك كأنك تعيش ابدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » وشهدت فترات تاريخية تفضيل عمل الدنيا وعن التفات عن الاخرة ، وقد صور ابن خلدون هذا المبدأ كآخر مرحلة من حياة الدولة ، من حياة العمران الذى يوسس حياة المسلمين في الحواضر . كما ان المتعصبون الدينيون وحتى رجال الدين المعاصرين لازالوا يعوزون انكسار شوكة الاسلام والمسلمين او الانحطاط الحضاري للمسلمين الى الاغفال عن العمل بمبادئ الاسلام والغرق في الشهوات والنزوة

ان هذه الازدواجية في الحياة تفقد ميزانها بالاتجاه الاخر رفض الحياة وملذاتها ومتاعها والغرق في التعبد كبت كل دوافع الحياة وترك المجال مفتوحا لعمل دوافع الموت ويكون نتاج ذلك ان العبد المومن يمارس العنف فيكون ذلك اما ضد ذاته وقد رأينا كيف ان في ظروف تاريخية معينة من تاريخ الاسلام ساد التصوف كردة فعل ضد نظام خلاقي يمارس الظلم الاجتماعي . او ضد الاخر المجتمع افراد ومؤسسات وهذا ماجرى في العصور الاولى للاسلام وما يجري اليوم لدى فئات عريضة من المجتمع من مهمتين مورس عليهم القهر اعلنوا الجهاد ضد كل من يحمل اشارة الدولة من اجل مشروع مجتمعي يقهر كل ملذات وشهوات الدنيا . باتجاه العالم الآخر عالم الملكوت العالم الوحيد الخالد والابقى وما الدنيا الا لهو ومتاع حيث يفرض الزهد سياسيا ويأخذ شكل المؤسسة حيث يسير الاقتصاد حسب مبدأ الندرة ويصبح بذلك زمنا للعبادة والتدين لتنخلع عنه كل مظاهر الحياة . وتصبح الدولة مكانا يطبق فيه الحساب على الافراد في الدنيا ليحضر العباد للآخرة وذلك تحت سيادة مبدأ الموت .

لقد عاشت اوربا طيلة القرون الوسطى حالة تشبه هذه حيث بلغ الفزع من الموت ومصير جهنم مبلغا جعل الناس يجيدون كل مظهر للسعادة في الحياة . ان لم نقل انها كانت ترفض هذه السعادة لتبني التعاسة تقربا للكنيسة هذه الاخيرة التي تضمن لذلك الزاهد سعادة خالدة في عالم الله والملكوت . ولكن الفكر الغربي تصدى لسطوة الكنيسة هذه وافحم الانسان الاوروبي في التاريخ وكان نتيجة ذلك انه ابدع نظاما مؤسساتيا واقتصاد كله موجه للحياة ولاشيء الا الحياة . لم يعمر هذا النظام طويلا في اسعاد الفرد فقوانين الربح والمردودية العمياء ادت الى تشييء الفرد وتسخيره لخدمتها ولم يصبح الا وسيلة فقدت حرية التحكم في عالمه ومحيطه كبلت يداه لكي لايعيش لنفسه بل لغيره وحاد عن تحقيق مشروعه الفردي وهو حريته الحتمية يعيش من اجلها ويموت فالحرية هي الحياة والموت تخرج عن نطاق مشروعه هذا ولكن عندما ينهب هذا المشروع تمثل الموت امامه بكل ما اعطيت . لتنخر نفسيته وترمي به الى الضياع والعدم . العقلانية والعلم اصبحتا سيدتا الموقف وكل

اصبحتا سيدتا الموقف وكنت الاسطور والدين . حتى هذا الاخير الذى يعده بكيان يخترق فوضى هذا العدم الذى يخلفه الموت ويهدئ من روعه اقصى من مجال الحياة الروحية ولم يصبح الا شعائر تمارس بدون معنى وهذا كان نتيجة العداء الراديكالي ضد الكنيسة لما مارسته من قمع وقهر على المجتمع الغربي فالمجتمع الغربي الحديث ،بني على معاداة الكنيسة وتقديس العقلانية والعالم الطبيعي وسحر الحياة وكبت الموت لا باقصائها من الخطاب وتجاوزها في الواقع طمعا في الخلود وما يمكن ان تصل اليه العلوم في اطالة الحياة والقضاء على الموت تماما . ولكن لادواء ولاعقار للموت وجده الطب . ولايزال الموت ماثلا بين البشر يترقبهم فغاب الضباب الذى كان يحجبه تفاديا للصدمة والفزع الذى يثيره ضباب الاسطورة والدين خرج عن نطاق الملموس والعقلاني وبقي انسان الغرب مواجها لأعتى قوانين الطبيعة - وهو الموت - في وحدة تامة مجرد من السلاح .

واما مجتمعنا المتخلف الذي تخترقه أزمة متعددة الابعاد ذو قاعدة اقتصاديا عاجزة على اقل امكانية تموين ذاتها . مطوقة بجدار بيروقراطي ريعي تكونت على قاعدتها بحكم ظروف تاريخية جماعة سياسية تمارس سلطتها عن طريق سيطرة على المجتمع فمزقت هوية الفرد فبدعوق عصرنة مرتجلة مفتقدة الى روية شاملة تدمجها في مشروع مجتمعي وفي غياب هذا غدت مجرد اداة في يد الجماعة المسيطرة عن طريقها تبرر موقعها الاجتماعي والسياسي توزيعا للريع وعند نفاذ مصدر الريع وهو البترودولار او على الاقل انتقاص مدخولاته ، اغرق النظام كاملا في ازمة جعلت هذه الجماعة في مواجهة جماهير عريضة تلاقي الحرمان والفقر لان الريع لم يصبح يكفي حتى يقسم على الطبقات الدنيا . ان ممارسة هذا القهر ضد افراد الشعب ، هو بمثابة ممارسة الموت ضدهم باقصاء من امكانية الاستفادة والتمتع بملاذ الحياة ،وشهواتها جنسا وخبزا بممارسة خطاب اخلاقي ديني موظف لخدمة مبدأ السيطرة الذى يحكم بني المجتمع واكثر من ذلك فان ذلك الفرد قد تحملت تلك العصرنة الشكلية المزعومة على حرمانه من وسطه الاصلي دون ادماجه في وسط اجتماعي جديد . حيث اخرجته من علاقات الجماعة التقليدية العائلة العشيرة والقبيلة تحكمها علاقة الدم والقرابة حيث لاقيمة للفرد الا من خلال جماعة اى ان مكانته وأدواره تتحدد عبر الجماعة . الجماعة تعبر عن ذاتها فيه وهو لايعبر عن ذاته الا من خلال الجماعة وماذا عملت هذه العصرنة المشوهة

المنشودة - والتي في نظرنا لم تكن في نظرنا الا امتداد لمؤسسات الاستعمار سواء انها اخرجت هذا الفرد من أطره الاجتماعية التقليدية لترمي به في أطر اخرى وهي المدينة الموسسة الصناعية التربوية والقانونية والتي لاتأخذ بعين الاعتبار هذه الاطر التقليدية بل لاترى في ذلك الشخص سوى ذلك الفرد الذي تربطه بالموسسة علاقة لاشخصية علاقة القانون ، والحالة هذه فان الموسسات الايديولوجية التربوية وموسسا السياسي لم يعمل على تحضير ودمج الفرد في هذه الاطر الجديدة الشيء الذي جعلها تمارس عليه القهر والاستيلاب . وللاحتماء منها فان المدينة وفرت له الالتجاء المباشر على الايديولوجية الدينية الارثودوكسية والتي تشتغل في المجتمع على اساس المطالبة بقيام الامة الاسلامية ، وحكم الشريعة . الشيء الذي يوفر للفرد على اساس الاخوة الانانية العيش في الاطر الجماعية ولكن ليس في الاسس التقليدية الضيقة العائلة والقبيلة بل الامة الاسلامية الواسعة كرد فعل لموسسات اسسها مبنية على العقلنة واقصاء وجودية كاملة مبنية على دياكتيك الحياة والموت والتي ينادي بها الاسلام ، مبعدا الموت عن ذاته عن طريق العنف لتوجيهها الى موسسات وافراد تمثل بالنسبة له الكفر والالحاد الغربي .

ونحن لم نخرج بعد من واقع اوربا القروسطي مثلما شرعت فيه هي منذ اكثر من خمسة قرون لان مجتمعاتنا المتخلفة لم تبن مشروعا للحياة مركزه الفرد لان حداثة الغرب المتأزمة والتي برهنت على خصوبتها سابقا في حل مشاكل الانسان . انتقلت من مركزية دينية اساسها الكنيسة المتسلطة على الافراد باستعمال فزع الموت في سبيل غايته واحدة وهي خدمة الله الى مركزية انسانية وسيلتها وهدفها هو الانسان والانسان فقط .

- الباب الثاني -

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

دراسة انتربولوجية لظاهرة الموت في منطقة سعيدة -

- مقدمة -

في هذا الباب سنحاول القيام بدراسة انتربولوجية مقارنة بين السجل الاسلامي الخاص بالمعتقدات والسلوكات الطقسية المصاحبة لحادثة الموت من جهة، وهذه المعتقدات والطقوس كما تمارس في الواقع من جهة ثانية، لنقارنهما بعد ذلك بمعتقدات بالمعتقدات والطقوس المقامة عند مختلف الشعوب بمناسبة الموت.

وبادئ ذي بدئ نعطي لكل فصل تقديما نظريا لمحتوياته. فالفصل الاول الخاص بالطقوس والمعتقدات المتعلقة بالموت نبدأه بطرح خلفية نظرية للطقس بصفة عامة والطقس الجنائزي بصفة خاصة، وتبيان وظيفته الاجتماعية. ثم تأتي بعد ذلك الى وصف مراحل الطقس الواحدة بعد الاخرى، لنقارنها بما اتى به الاسلام. ثم بعد ذلك نقارنها بما يمارس في ثقافات اخرى، اعتمادا على ما جمعناه من وقائع بمناسبة العديد من الجنائز التي رافقناها وما لاحظناه من متاع ومختلف الاشياء المرتبطة بالجنازة، والتي لاتخلو من محنات رمزية. ثم نقارن هذه السلوكات الطقسية والمعتقدات وكل الصور المرتبطة بالموت حتى وان مورست خارج الجنازة، بما اتى به الاسلام، لنقارنها بعد ذلك بما يجرى في ثقافات اخرى بحثا عن امكانية طابعها الكوني. ولقد جمعنا المادة هذه اما الاخبار عن الثقافات الاخرى عن طريق كتب علماء الانثربولوجيا، وما كتبوه عن الموت وطقوس الموت، مقالات في مجلات اجنبية وبعض ما كتبه

ما كتبه الرحالون . ونظرا لان بعض المسائل التي وجب علينا البحث عنها في الاسلام. فاننا لظروف تقنية فضلنا جمعها في عنوان واحد لان احكام الفقهاء ونخص منهم هنا فقهاء المذهب المالكي لاننا ننتمي اليه كأمة مسلمة فالحشو وكثرة الكلام لاتغني شيئا فالتحريم يأتي في سطر او سطرين. وهناك مسائل اخرى سكت عنها الاسلام تماما .

وفي الفصل الثاني والخاص بعبادة الاجداد، فاننا نقوم بوضع اطار نظري عام لهذه الظاهرة . ثم نقوم بوصفها سلوكات معتقدات وكل الاشياء المادية المرتبطة بها. ثم بعد ذلك نقوم بتأريخ لهذه الظاهرة في الماضي الثقافي للجزائر والمغرب بصفة عامة للتأكد من طابعها القبل اسلامي. ثم نقارنها بما يشبهها في ثقافات الشعوب الاخرى . ثم بعد ذلك نبين موقف الاسلام الارثودوكسي من هذه الظاهرة، عبر نصوص ابن تيمية، ومواقف جمعية العلماء المسلمين وخاصة البشير الابراهيمي .

ـ الفصل الثالث

ـ دراسة ميدانية للطقوس والمعتقدات المرتبطة بالموت في منطقة سعيدة

ـ الفـــــــرع الاول ـ

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

ـ مقـــاربـــة نظـــريـــة لمفهـــوم الطقـــس ـ

ـ طقـــس الموت ووظيفتـــه الاجتماعيـــة :

الموت كما سبق وان اوضحنا آنفا هي ظاهرة اجتماعية وثقافيـــة. لقد ابتعدت عن كونها ظاهرة بيولوجية خالصة، عندما اصطدمت بالانسان الذى جمعنها وحجبها بقيم في الممارسات الثقافية وذلك بغيـــة التخفيـــف من وطئتها . الموت في طبيعته يقضي على الفرد والنـــوع، كونه يمثل الفناء المطلق انه خطر على المجتمع يهدد القاعدة البيولوجية لهذا الاخير . لذا فان موقف الانسان ازاءه هو تجاوز لحالة الفنـــاء ورفضها تماما، ولايكون هذا الموقف الاسلوكا طقسيا مهدئا .

ولفهـــم الوظيفة الاجتماعيـــة لطقس الموت بكل عناصره، يجب علينا طرق مفهوم الطقس اولا . ثم خصوصية الطقس الجنائزى ثانيـــا . الطقس هو تقريبا السلوك الانساني الوحيد الذى يتكرر في ثبـــات من الزمان والمكان . اذ لايمكن للطقس ان يمارس في اى زمـــان او مكان . اذ ان هذين العنصرين يشكلان هيكلا ضروريا، ومهما في ممارستـــه . فهو ليس ممارسة اعتباطية عفوية، بل تخضع لقواعد تضبطهـــا ليست مكتوبة في اغلب الثقافـــات بل مسجلة في الذاكـــرة الشعبيـــة اذا ما استثنينا الديانات الكتابيـــة، التي تسجل خطـــى الطقـــس وعناصره وعلى سبيـــل المثـــال نذكر الديـــن الاسلامي الذى يشرح كيفيات الصـــلاة والصوم اضحية العيد وما الى ذلك .

لكـــن ماهي طبيعـــة الطقـــس كسلوك انساني ؟ خاض علمـــاء الاجتماع والانثربولوجيا والتحليـــل النفســـي ونخص منهم موســـــه مجهودات ضخمـــة لمحاولـــة سبـــر أغوار هذه الممارســـة الانسانيـــة، وكل مـــا يحيط بهـــا. بالنسبـــة للتحليـــل النفســـي فان الطقس " هـــــو

هـــو عبـارة عن وضـــع القوى التي تتحرك في اللاوعي موضـع العمـل على الصعيد الاجتماعي . فيمكن القـول انه «كالعارض العصابي » تسويـة بيـن رغبات الأنـــا والعائق الذي يمنع تحقيقها »(١)

ويظهـر هذا التعريف الطقسي كجمعنة لقوى اللاوعي المتعارضة بيـن الرغبـة والموانع التي تحول دون اشباعها، والمعبرة عن حالة من العصاب الهجاسي كما يبينها فرويد في " الطوطم والمحرم " . ولايكفي هذا التعريف بالإحاطـة بكل جوانب الطقـس . فالطقس ليس فقط تعبيـر عن صراعات مكبوتـة في اللاوعي. فاذا كـانت سيوكولوجيا الفرد في هذه الحالـة تفسـر جانبا من الطقـس كتهدئـة للاحساس بالذنب (٢) . فهـو كذلـك محاولة لطمئنـة الجماعة على انفسها من خبايـا المجهول العجاب والغريب في ذاك الوقـت فالطقـس هنـا يندرج في علاقـة الانسان بالكون الشامـل. وعن هذه العـلاقـة يعرف العالـم الاثنربولوجية لوك دو هيتش الطقس كمـا يلي:

" الطقـس يعني كل نسـق تواصلي مع العالم الغيبي العالم السحري او الاسطوري «نسـق اشاراتي مستقـل يستعمل الحركات واللغـة ايضا " (٣) .

هـذا التعريف خلاف الاول يغض الطرف عن اجتماعيـة الطقس ووظيفته الاجتماعيـة ويصبح بالتالي لغة تستعمل الحركة واللسـان يخاطـب بها الانسـان العالم الوهمي .

فكـلا التعريفين لايبتعدان بالطقـس الى اغوار الانطولوجيـا وتساءل الانسان عن مصيره، في عالم يجهله. هذا العالم الذي يكن لـه العـداء .

١- نور الدين الطوالبي « اشكالية المقدس » منشورات عويدات . و م . و . ك الجزائر ـــ ١٩٨ ص ١٣

٢- هذه الرؤية للطقـس لاتخص الا الطقس الموجه الى الميت . كالحداد كما سنرى والتوبة عند ارتكاب ذنب وهذين طقسين خاصين وهذه الرؤيـة لاتحلل الطقس في عمومه .

٣- Luc de Heusch, "Introduction a une ritologie generale", op.cit, P.213.

ولكن لتتدخل الرؤية السوسيولوجية لتحاول دمج كلا الرؤيتين في تصور شامل حيث يذهب جان كزنوف الى ان الطقس يظهر " كفعل مطابق لعرف جماعي والذي تندرج فعاليته على مستوى فوق - امبريقي - ويتظاهر اذا بكل خصوصيته ، في العادات والتقاليد العرفية والتي تبرر ذاتها ليس فقط بمحددات داخل العالم الطبيعي بل تدخل كذلك علاقة الانسان بالعالم ما فوق الطبيعي . الطقوس الدينية والسحرية تعد بذلك امثلة اكثر وضوحا" (١)

ميزة هذا التعريف، هي كونها تبرز خصوصية الطقس بالنسبة لكل التقاليد والاعراف داخل مجتمع معين. حيث تكمن فعاليته على مستوى امبريقي وفوق امبريقي . ضف كونه لايدخل عامل العالم الغيبي فقط وقوى فوق - طبيعية بل قد يقتصر احيانا على محددات طبيعية ، دون ادخال الجانب الغيبي انه " ممارسة تقليدية لها فعالية خاصة " (٢) . كما يذهب اليه الكاتب وعن وظيفة الطقس يقول : كزنوف " يجب البحث عن وظيفة الطقس ليس في غايته " والتي هي خارجة عنه ، لكن في مميزاته الخاصة به ، والتي تجعله كوسيلة ظبط العلاقات بين الانسان معطى في الوجود الانساني وماهو يبدو مجاوزا اياه. بما اننا هنا بصدد سلوكات لاتجد تفسيرها في الظروف المادية للانسان والتي رغم كل ذلك هي ملازمة لها . ان ضرورة التطقيس كما تبدو في المجتمعات البدائية . تندرج في واقع ان الطبيعة الانسان كونه لا يستطيع الانفلاق في وضعيته ولا الانفلات منها تماما .

١- Jean Cazeneuve, "Les rites" IN Encyclopedie Universelle, Vol; 14, P. 284

٢- Jean Cazeneuve, Sociologie de Marcel Mauss, P.U.F. Paris, 1968 P. 66
هذا بالضرورة تلميح للتعريف التحليل النفسي ذو الطابع الفاتي حيث يرى الطقس مجرد وسيلة لبلوغ هذف التسوية بين الرغبات والمنع الذي يحول دون تحقيقها .

منها تماما . الانسان حر او يظن انه كذلك ، وهذا مايولد لديه نوعا من القلق . فعله ، وجوده يبدوان مجردان من هامش للعزيمة وبالتالي من اللامن وهو يحس بذلك بشيء اخر لايستطيع التمكن منه او التحكم فيزمامه . وهذا مايسميه علماء الانثربولوجية بعد أوتورودولف " بالعجاب " هذا المصطلح الاكثر شمولا من المقدس . والذى يعني كل ماهو فوق - طبيعي ، ولكن كل ما يتجلى بغرابته ، جذاب ومفزع في آن واحد . كل ما ينذر عن القاعدة محير وفي نفس الوقت قوي . لذا فان الانسان بما ينتابه الاحساس بالعجاب ، وكل ما يفلت منه ، يحاول في نفس الاوان تفاديه ، والاحتماء منه ومن اخطاره ، والاحتماء تحته كذلك . ومن هنا تنتج المواقف الاساسية والتي حسب وظيفتها الانثربولوجية وحولها ، تتدرج الطقوس : التطهير ، السحر والدين " (١) .

ويظهر هذا التحليل اكثر شمولا في تحديد طبيعة ووظيفة الطقس، الذي يلعب دور الموازنة ، ليس بين نزوات الفرد والواقع الذى يناقضها فحسب بل يتعدى ذلك ليندرج ضمن شمولية وجودية . يلعب فيها وجود الانسان حاضره ومصيره الدور المحفز والنبع الاصيل للمواقف الطقسية حيث يطرح الانسان اسئلة حول مصيره وعلاقته بالعالم ، الذى يشكل بالنسبة للظاهرة مناالغرائب والالغاز تولد لديه موقفا واحساسا بالعجاب (٢) يحتمي من اخطاره ، ويتقرب منه من جهة اخرى . مستعملا الموقف الطقسي وفي نص لنفس الكاتب معلقا عن وظيفة الطقس، حيث يرى انه " يجد اساس هدفه الديني في التماسة الانسانية . من ضمن عوامل هذه التماسة هو الاحساس بالاغتراب حس مظلم ومحير وهذا مايرغمه على الموازنة المستمرة وضابطة لحالته المنزعجة . لانه موضوع اغتراب . هذا القلق الوجودى - فان الانسان يقوم بالطقوس تقربا من العالم المقدس مكانا رتياح مما هو مزعج لوجدانه " (٣) .

١- Jean Cazeneuve, Les rites, OP.cit, P.184

٢- C.F. Rudolph Otto, Le sacré, PUF, Paris, 1969

حول مفهوم " العجاب " الترجمة لـ " Numineux "

٣- Noureddine Toualbi, Religion, rites et mutations, E.n.a.l, Alger, 1983, P. 38

ج ـ الزواج : عموما تأتي مرحلة الزواج في سن مبكر في المجتمع التقليدي. هناك امهات تزوجن في سن مبكرة جدا : الثانية عشر من العمر مقابل الثمانية عشر وما فوق بالنسبة للرجال منهم، حتى في سن الشيخوخة. حاليا في المدن ظروف اجتماعية واقتصادية تحول دون حدوث الزواج في سن مبكرة. فتستطيع ايجاد رجال فاقوا الثلاثين من العمر وهم في حالة العزوبة، نظرا للظروف المادية وفقدان السكن وما الى ذلك. لكن على العموم يأتي الزواج في سن الشباب بالنسبة للزوجين المرأة اصغر سنا من الرجل اى في سن عطاءها وخصوبتها .

الزواج يأتي كأول واهم خطوة في دخول حياة التدين. فالزواج بالنسبة للدين الاسلامي مقدس انه نصف الدين. المتزوج والمتزوجة محترمان في المجتمع الاعزب والمطلق، العذراء والمطلقة منبوذان. فاذا كان المجتمع ارحم بالنسبة للرجل في اعادة اعتباره فانه بالنسبة للمرأة قاس لايرحم، فالرجل الاعزب وطالت عزوبته يشك في رجولته مثلا (١) والمرأة ان لم تتزوج فانها منبوذة ومعها عائلتها. فعدم زواجها يعاز الى كونها ذات اخلاق مشكوك فيها وعائلتها (٢) كذلك لاترحم حيث تصبح سببا في عدم زواجها لانها لم تحسن تربية البنت .

فالزواج اذن رحمة لكل الجنسين وان كان الخط الوحيد للمرأة. (٣) فالزواج هو انتقال راديكالي من مرحلة اللامبالاة والطيش واللامسوولية الى مرحلة اخرى تماما وهي مرحلة المسوولية تجاه الزوجة (٤)

١ـ ولكن في غالب الاحيان لاتعترف الايديولوجية الرجولية بالخنوثة كونها نقيصة ضعفها التبريري فيقال للرجل الذي عزف عن الزواج والوصال الجنسي بانه " مربوط " راح ضحية عمل سحري .

٢ـ العائلة لها دور هام جدا في تزويج البنت وان كان فرد واحد منها ذو سمعة سيئة . فانه يعود وباله على اخته او ابنته حتى ولو كانت ذات اخلاق حسنة لايقربها احد ولايخطبها .

٣ـ تعتبر الفتاة من قبل اهالي سعيدة قنبلة موقوتة قبل ان تتزوج والعبارة مشهورة لدى الامهات (راها عندي بومبا فيدارى " .

٤ـ الزوج (الرجل) يحمل على عاتقه مسوولية استمرار الخط الابوي للعائلة وموقفه كرجل مسوول يمتحن اثناء زواجه ومدى رعايته لاسرته .

تجاه الزوجة والعائلة لكي يقوم كلا الزوجين بالانجاب اى اعادة الانتاج البيولوجي للمجتمع، ومن جهة البحث عن الابن الذكر كاعادة لانتاج علاقات اجتماعية تكرس سيطرة الرجل، كل المرحلة السابقة للزواج من الولادة الى الختان وما بعده هي تحضير لهذا الحدث الحاسم في حياة كل من المرأة والرجل، فالمرأة تبقى منذ صغرها في البيت، عدا بنات المدن اللواتي يذهبن الى المدرسة وفي معظم الاحيان ينهين الدراسة في سن مبكرة (١) للعودة الى المنزل، في انتظار الرجل الراغب في الزواج، بينما يحضر الرجل من شبابه في اتخاذ المبادرة بالنسبة للمرأة وكيفية السيطرة عليها باحتقارها وجعلها مخلوق من الدرجة الثانية، آلة لجلب اللذة للرجل ورزقه بذرية كثيرة . فالزواج يعتبر بمثابة الامتحان الاخير والحاسم للرجل كذكر قوي جنسيا، فمبدأ الرجولية يقاس بالنسبة لهذه الصفة وامتحان للمرأة ولعائلتها اولا كمراة عفيفة، حافظت على شرفها الكامل في بكارتها وشرف عائلتها التي ربتها على الحفاظ على ذلك الشرف .

هناك لحظتين اساسيتين تعبران عن انتقال كل من المرأة والرجل من عالم العزوبة الى عالم الزواج عالم الاعتبار الاجتماعي حيث الزواج يجلب لكلا الزوجين، الزوج والزوجة احتراما من قبل المجتمع . هاتين اللحظتين الاساسيتين تتمثلان في ان العريس الشاب لما يأتي للدخول الى الغرفة التي يقضي فيها ليلة زفافه، حيث تقتضي العادة ان يمر العريس تحت رجلي امه . وكأنه يعيد اللحظة الاولى من حياته . الولادة الاولى وكأن العريس مات وولد من جديد (٢).

١ـ في معظم الاحيان حتى وان اتمت البنت دراستها ووجدت لها منصبا في موسسة وان كان هذا المنصب مهما فان اراد زوجها ان تتوقف عن العمل فانها تفعل ذلك لان الزواج حلمها وهدفها . لا اعتبار لها الا عن طريقه .

٢ـ يوم الزفاف لايخلو من رموز ان تدوس الفتاة تحت رجليها حبة البيض وكما ان حبة البيض ترمز في العديد من الثقافات الى الخصوبة فاننا نرى في ذلك ان العروسة ما دامت مرشحة لولادة كثيرة فان تدوس هذه البيضة محررة لقواها المولدة للحياة والخصبة في آن واحد .

مات وولد من جديد بمعنى ان مرحلة من حياته قد انتهت ليولد من جديد لخوض حياة اخرى حياة الرجولة التي عليه ان يبرهن على جدارته بها في المضجع في ليلته الاولى في ظل حياة جنسية معترف لها رسمية. اذ يجب عليه ان يخترق بكارة العروسة ويظهر الى الناس قدرته على امتلاك المرأة وقوة سيطرته عليها حيث اسال دم بكرتها. ان انتصاره هذا شبيه في انتصاره على الارض وكسب عيشه منها في التحدي والغلبة . ان سيلان الدم هو تظاهر لنرجسية الرجل لهوية طالما تربى على اكتسابها، وبالنسبة للمرأة شهادة لحسن السيرة .

ولا يكتمل الزواج الا بتحقيق هدفه هو الانجاب اذ يجب على الرجل ان ينجب ذرية كثيرة فالعائلة بدون ذرية لا معنى لها. ان لم ينجب الرجل فكل الذنب على الزوجة،(١) وان لم تنجب اطفالا ذكورا طلقت او شاركتها ضرة اخرى اذ تنصح المرأة زوجها بالتزوج عليها. وفي معظم الاحيان تشارك هي في تزويجه بنفسها بخطبة المرأة الثانية .

وفي اطار العائلة يدخل مبدأ التقدم في السن ومعه النزوع الى التدين الذي يبدأ بالتوبة على كل ما فات وتبدأ الممارسة الدينية في العائلة بدءا بالزوج والزوجة اذ ان علاقة السيطرة التي يمارسها الرجل لا تلقى شرعيتها الا في الاطار الديني، واتباع اخلاقيات دينية صارمة ولا مجال للتطرق لمسألة الرجولة في الاسلام . فالرجوع الى الاحاديث والقرآن قد يطيل الحديث في ذلك ولكن يكفي الاشارة الى ان سورة النساء تعبر عن التفوق الاجتماعي للرجل حول المرأة .

١ـ قبل ان يشكك الرجل في خصبه فان الضحية والمذنب الوحيد تبقى المرأة حيث يرفض الرجل ان يكون عقيما ولو كان ذلك حقيقة . وان ولد بنات فان الذنب للمرأة وليس له والمعروف في علم الوراثة الوراثة الحديث ان الرجل هو المسؤول الوحيد عن جنس المولود حسب تركيبه الجيني.

وفي هذا اطار النزوع الى التدين يدخل مقياس جديد في حياة الفرد وخاصة الرجل لان " المراة ناقصة دينا وعقلا " . هذا المقياس هو الاقتصاد في السلوك حسب سجل واضح في الاعمال السيئة والحسنة الواردة في القرآن وخاصة السنة ، وما يقابلها من أجور يدخرها الفرد احتسابا للموت الآتي ، حتى ينتقل مطمئنا الى حياة اخرى يسبقها حساب يثاب او يعاقب فيه الفرد حسب مدخراتها من الاعمال سيئة ام حسنة .

د ـ الموت : يأتي الموت عاديا في اخر الشيخوخة وقد تأتي في اى لحظة من عمر الانسان. لكن عاديا تأتي في سن الشيخوخة بعد ان استنفذ الفرد مهمته الحياتية، خدمة للمجتمع والله. الموت البيولوجي لايهم انه الفناء، فناء البشرة فيعد الانسان ـ بعد ان اخر ما استطاع من الاعمال نفسه للموت مستلما حسب ما يمليه الدين لارادة الله. لان الاسلام يوفر للانسان موتا سعيدا، لان الموت ليست نهاية بل بداية لحياة اخرى، اذا كان الانسان في حياته متفانيا في عبادته لله، فلاخوف عليه ولاحرج، يكون استقباله للموت مرحا لانه سيلقى الله في عالم اخر ليتمتع لقاء اعماله بثواب ومرضاة من الله والتي جزاءها الجنة. فيعد اقرباء الميت كل ماهو ضروري لانتقال الميت الى العالم الاخر. فالموت في الاسلام هي مرور من مرحلة وهي الحياة الدنيا المليء بالغرور والمتاع الفاني، ان لم تسخر لعبادة الله، الى حياة خالدة بقربه ولامجال لذكر الكيفيات والممارسات الطقسية الخاصة بالموت، ماتام القسم الثاني من هذا البحث مخصص لذلك لكن المهم هنا تبيان ان كل مرحلة يمر بها الانسان في المجتمع هي مرحلة الموت لتخلفها مرحلة في تصاعد نحو بلوغ الحكمة والتعقل، ومواجهة الموت لختم هذا المحور بفقرة يوردها جان بول شارتي في كتاب علم الاجتماع الديني للاسلام " وعلى هذا الشكل فان سكرة الموت " التي يؤكد عليها القرآن بشدة هي غشاوة للعقل الانساني امام اكتشاف الواقع الملموس للواقع الساطع للقرب من الله. لكن تعاقب الولادة، الحياة / الشيخوخة / موت تمثل سيرورة للتطهر الروحي ان تقعقر الجسد نفسه يجب عليه ان يقبل يتمنى الموت كتقدم بداغوجي. الموت يحقق محاسبة الاعمال الحسنة والسيئة ويمنح امتحانات تعويضية يستطيع الله من خلالها ان شاء ان يكون رحيما " (١).

وعبر كل المراحل التي ذكرناها، نستشف سلوكات رمزية تعبر عن هذا الانتقال من مرحلة الى مرحلة. التسمية كما سبق وان ذكرنا، تأتي بمثابة اعطاء صفة الانسان الاجتماعي (المدمج في علاقات اجتماعية) حيث ان الاسم يحمل شخصه فطقس التسمية هو بمثابة الولادة الحقيقية بالاضافة الى الولادة الاولى (الخروج من بطن الام)

---

١ - Jean Paul Charnay, Sociologie religieuse de L'Islam, op. cit, P. 196.

الى الولادة الاولى (الخروج من بطن الام). ان تلقينا لاسم للمولود الجديد هو بمثابة بعث الروح فيه بعدما كان مجرد جسد (موت بالنسبة للمجتمع) الى حياة (اندماج في علاقة دلالية اجتماعية حيث يحمل اشارة الاسم حيث يقول عن هذا الاخير جان سرفييه انه الجامع بين النفس والروح عند الفرد (١) " ويحبذ في الاسلام اطلاق الاسم حامل صفات صاحبه " وبالجملة فالاخلاق والاعمال والافعال القبيحة تستدعي اسماء تناسبها . واضدادها تستدعي اسماء تناسبها وكما ان ذلك ثابت في اسماء الاوصاف فهو كذلك في اسماء الاعلام ،وما سمي رسول الله (ص) محمد واحمد ـ الا لكثرة حمال الحمد فيه " (٢)

اذن فالتسمية هي انتقال موضوع يشبه الموت الى مكانة الشخص الحامل للهوية التي يعتبر الاسم عنصرها الاولي وهنا يمكن الكلام عن ميلاد ثان .

ثانيا : الختان :هو انتقال الولد من عالم لم تتضح فيه له صفاته الرجولية فهو خليط من أنوثة فرضها محيطه النسوي حيث انه مرحلة ما بعد الختان يشهد فيها الولد سطوة عاطفية من جانب امه حيث تجده دائما برفقتها في مجالس النساء ـ حمام ـ حفلات الخ . وبالنسبة للمجتمع الرجولي هذه مرحلة يجب ان يخرج منها الطفل حيث لم يكتسب فيها عناصر هويته كرجل وتكمن رمزية هذا الانتقال في لبس العباءة البيضاء رمز الرجولة والخصوبة حلق الشعر كون الشعر قصير يمتاز به الرجال ،تقطع الغرلة (الجلد الزائد) من قضيبه لينة (رمز الانوثة) يسيل الدم على التراب (رمز لاخصاب الارض) تربط الغرلة في رجله حتى تيبس تكتسب الصلابة رمز الرجولة . وهنا كذلك موت لمرحلة من حياته في وسط نسائي ليولد في الوسط الرجولي،وهذا ميلاد ثان .

ثالثا ـ الزواج : ينتقل الرجل اثناءها من مرحلة اللامسؤولية ،واللامبالاة الى مرحلة بناء الاسرة ،النواة التي يعاد فيها انتاج عناصر المجتمع الابوي. وتنتقل المرأة من مرحلة من الاحتقار،الى مرحلة الزوجة الولود . فبالنسبة للرجل فانه يمر بين رجلي امه رمز لميلاد جديد،حيث ما تت مرحلة عزوبته .

رابعا : الموت : الفعلي الفيزيقي حيث ترمز فيه كل الممارسات الطقسية الى الموت للميلاد ثانية في عالم اخر وهذا ما نطرقه فيما بعد في هذين الفصلين وهذا الجدول يبين طقوس المرور التي كنا بصدد تحليلها .

١ـ c.f Jean Servier, Les portes de l'année, R. Laffont, PARIS, 1967. ص ١١٦.

٢ـ ابن القيم الجوزية ـ تحفة المودود باحكام المولود

دورة حياة الفرد في منطقة سعيدة

ـ التسمية	ـ الختان	ـ الزواج	ـ الموت
ـ الطفل كيان بيولوجي دون هوية اجتماعية.	ـ قص شعر الطفل، قطع الغرلة ـ الرجولة المبدأ الانثوي ـ الاساسية للمجتمع وهي الانجاب ودعم البنية العائلية، عدم التزوج و العزف عن ذلك ≠ الرجولة، التخنث	ـ طيش الشباب، عدم المساهمة في الوظيفة الاساسية للمجتمع وهي الانجاب ودعم البنية العائلية، عدم التزوج و العزف عن ذلك ≠ الرجولة، التخنث	ـ الحياة الخالد قرب الله . و هنا رموز و صور عديد تعبر عن هذا الاث و تاخذ عموما صو الميلاد الجـــ
ـ اعطاء الاسم للطفل هو بمثابة ادماجه في الحيا الاجتماعية ـ وسيلة للتواصل مع الجماعة، اندماج في المنظومة الرمزية للمجتمع	ـ طفل لم يدخل بعد في عالم الرجال . دون قاملة لمبادئ الرجولة الايديولوجيتا الاساسية للمجتمع التقليدي ـ القضيب لم تتوضح صورته كرمز للجولة وجودا لغرلة وحدها كجزء لين (رمز للانوثة) يشهد على ارتباط الطفل بعالم الانوثة .	ـ الدخول في المنظومة الاخلاقية و الانظباط تحت لوا الرجولة بكل مبادئه المساهمة في الوظيفة الاساسية للمجتمع و هي التوالد و انجاب الذكور بصفة خاصة والرمز الاساسي لهذا الانتقال هو دخول ا العريس تحت رجل امه : صورة لميلاد جـــديـــد.	ـ الحياة لهو و غرور، فانية، لا قيمة لها ان لم تسخر للعمل احتسابا لليوم الاخر عقيدة التصوف تغبر بعمق عن هذا التصور
ـ مـــوت.	ـ ميلاد جديد .	ـ مـــوت	ـ ميلاد جديد ـ	ـ مـــوت	ـ ميلاد جديد ـ	ـ مـــوت.	ـ ميـــلاد جـــ

- الفـــرع الثـــانـــي -

- أهـــم مراحـــل طقـــوس الجنـــازة -

١- الاحتضـــار :

عند اشـراف الشخص على الموت يجتمـــع اعضاء عائلتـــــــه ثم يلقـــن الشهادة. ان لـــم يكـــن قادرا على ذلـــك . ويمـــد باصـم اصابعـــه الى السمـــاء ثم اذا لفـــظ انفاســـــه الاخيـــرة .

- غلـــق فمـــه وعيناه وســـويت يداه و رجـــلاه
- يدعـــو له الحاضرون بالغفـــران .
- ثـــم يغطـــى بثـــوب .

٢ـ التغسيل : مرحلة اساسية اذ هدفها تطهير الميت لتحضيره صافيا معافا امام الله حسب تعاليم الاسلام ع

يتولى غسل الميت من من اشتهر بالورع (١) والتقوى رجالا بالنسبة للرجل ونساء بالنسبة للمرأة . ويفضل ان يغسل الزوج زوجته٢)فاذا كان الميت رجلا قامت زوجته بتغسيله وان كان أرملا قام احد الاقربين من التقاة بذلك وان كانت الزوجة هي الميت فان زوجها هو الذي يتولى غسلها ولكن الشيء السائد هو ان يغسل الميت من قبل اقرباءه من غير مشاركة الزوج او الزوجة في التغسيل .

يوضع الميت فوق خشبية تشبه الباب . ثم يتولى الغسالون ثلاثة اوخمسة تتوزع مهامهم كالتالي :

١ـ يمسك اثنان ستارا على الميت يستره من سرته الى ركبتيه .
٢ـ الثالث يتولى تقليب الجثة اثناء الغسل .
٣ـ الرابع يسكب الماء .
٤ـ الخامس يقوم بالغسل وهو الزوج اوالزوجة والشائع هو الاقرب الى الميت

<u>كيفية التغسيل</u> :

اولا: ينوي الغسالون اداء الواجب تقربا لله (١)
ثانيا : يوضع الميت على مكان مرتفع عن الارض ، ينفذ منه الماء
ثالثا : يمسك الستار على الميت ،فيجرد من ثيابه
رابعا : يلف الغاسل يده بلفافة غليظة الى الرسغ ـ كالقفاز ـ
خامسا :يعصر الغاسل بطن الميت عصرا رفيقا ـ ماعدا الحامل ـ ليخرج ما في المحل من فضلات .
سادسا : يزيل الغاسل النجس الخارج من المحل بيده الملفوفة ويستجمر له ثم يستنجي له ،ثم يعمم الغسل من السرة الى الركبتين .
سابعا : يغسل ما على بدن الميت من نجاسة ثم ينزع اللفافة من يديه .
ثامنا : يوضئه وضوء الصلاة .
تاسعا : يغسله كغسل الجنابة بان يضجع الميت على جنبه الايسر فيغسل جنبه الايمن ثم على قفاه الايمن ،فيغسل جنبه الايسر ويمر الماء مع اليد على جميع اعضاءه وجسده من الدلك ـ ماعدا الاعضاء الجنسية . يمضمض فمه ويمسح انفه ويطهر .

ومن سنن الغسل ،كما اسلفنا الابتداء بالميامن من قبل الميامن ثم

١ـ يقول البعض عن عدم التفوه بالنية عند غسل الميت حيث يقول حسن رمضان فضله في كتابه الحكم الجائز ص٤٨(هو تعبد لا للنظافة ،ولايحتاج الى نية لانه فعل للغير "

٢ـ ولايحدث هذا في غالب الاحيان حيث يحضر "الطالب" اورجل تقي مع القائمين لغسل الرجل وامرأة تقية بالنسبة لغسل المرأة .

ثم يغسل ثلاثا او اكثر ، خمسة الى سبع مرات بالماء والصابون ، تحل ظفائر المرأة ، يغسل شعرها ليعاد ظفره الى ثلاث . واذا كانا الميت حائض او جنبا يغسل يوضيء للجنابة اولا ثم يباشر في غسله .

وعند الانتهاء من غسله يجفف الجسد ثم يجهز للتكفين .

٣ـ تكفيـــن الميـت :

الكفـن هـــو الثـوب الذى يستـــر به الميت

صفـــات الكفـن :

١ـ ان يكون قماشا متواضعا بما تجوز به الصلاة .
٢ـ ان يكون ابيـض اللون وهذا شرط اساسي . غياب اى لون غير الابيض
٣ـ يكفن الرجل في وتر من الثياب سروال وعمامة ، قميص لفافتان اى خمس قطع اما المرأة فسبـع (١) : قميص خمار سروال واربع لفائـــف لما هذا الفرق هذا ما نجهلـه ولاسبب ذكر في الكتب التى استشهدنا بها

واذا كفـن الميت يعقد عليه كفنه عند رأسه ورجليه ثم يخلل عليـــه بالخلالات او يشد بشريط من الكتان وهناك شرط اساسي في الكفن ان يشترى هذا الاخير من مال الميت وان لم يكن لديه مالا وكان فقيرا في حياتـه اشترى له اقاربه كفنه او مجموعة من التقاة . وبعد التكفين يتم تبخيـــر وتجمير الميت كما انه يلزم تبخير الكفن قبل تلبيســـه للميـت ويتم ذلك ثلاث مـــرات .

" كما انه يقمص ويعمم وينبغي ان يحنط ويجعل الحنوط بين اكفانـــه وفي جسده ومواضع السجود منه " (٢) .

١ـ المذهب المالكي يوصي بسبع بالنسبة للمرأة اما الحنفي " فأقل ما يكفن فيه الرجل عادة ثوبان ، والسنة فيه ثلاث اثواب ، واقل ما تكفن فيه المرأة ثلاثة اثواب والسنة خمسة اثواب " ص ٧٣ مصدره وهبة ـ الزحيلي ـ الفقه الاسلامي وأدلته ، ج ح ، دار الفكر ، دمشق ١٩٨٥ .

٢ـ ابو محمد عبدالله ابن ابي زيد القيراوني ، الرسالة ، المطبوعات الشعبية للجيش الجزائر ١٩٧٥ ص ١٠٦ .

٤ ـ تشييع الجنازة ، الصلاة على الميت وحمله الى المقبرة ـ

يوضع الميت بعد تكفينه في النعش ويغطى بثوب يستره. يتقدم رأسه عند اخراجه من بيته ، وعند السير يقوم اربعة من اقاربه بحمل النعش على الاكتاف يسيرون برفق متقدمين موكب الجنازة . يلتزم المشيعون بصفة عامة الصمت وجماعة اخرى تردد " لا اله الا الله محمد رسول الله ، اللهم صلي وسلم دائم ابدا " حتى يوارى الميت التراب

لكن قبل ذلك يؤدى عليه صلاة الجنازة اذ يحمل الى المسجد. وان تعذر ذلك كغياب المسجد في المناطق النائية ، تودى صلاة الجنازة في المقبرة قبل الدفن مباشرة .

صلاة الجنازة : انها واجبة على كل فرد يدين بدين الاسلام يشترط فيها كل ما يشترط بالنسبة للصلوات العادية ، طهارة استقبال القبلة وما الى ذلك تقام كل وقت عدا الليل .

يقف الامام في صلاة الجنازة فيستقبل من الرجل رأسه ومن المرأة وسطها .

ـ كيفية الصلاة :

اولا: يقف المصلي بعد استكمال شروط الصلاة .

ثانيا : يعقد الامام والمأموم النية لصلاة الجنازة

ثالثا : يكبر ويستعيذ ويقرأ الفاتحة سرا

رابعا : يكبر ثانية ويقرأ كذلك الفاتحة سرا .

خامسا : يكبر ثالثة ويدعو " اللهم انه عبدك وابن عبدك وابن امتك ، كان يشهد ان لا اله الا انت وحدك لا شريك لك وان محمدا عبدك ورسولك وانت اعلم به اللهم ان كان محسنا فزد في احسانه ، وان كان سيئا فتجاوز عن سيئاته اللهم لا تحرمنا اجره ، ولا تفتنا بعده ويتبع الدعاء التكبيرة الرابعة .

عند الانتهاء من الصلاة يحمل الميت على المحمل " يمشي (١) الناس وراء النعش يتقدمهم الطالب والامام واهل الميت من ابناء ، واخوته ذكورا طبعا ـ مرددين عبارة " لا اله الا الله محمد رسول الله "

١ـ عند مرور الموكب الجنائزي فان المارين يترحمون على الميت المحمول الى مثواه الاخير . في تلمسان يتوقف المارون عند مرور الموكب

وعند الوصول الى المقبرة، يرفع النعش من على السيارة التي كانت تحمله (١) ثم يتقدم اهل الميت ومعهم الطالب او الامام . ويحمل الجثمان الى القبر يدخل اليه من جهة الرجلين ، يمرر وجه الميت وتحل رباطات الكفن وقد شدت عليه قطعة قماش من طرف رجال يساعدون القائم بوضعه في القبر لستر الجثمان ، حرصا على عدم كشف نتائج الموت (الجثة) للحاضرين لانه من المفروض حيا في المخيال الاسلامي . ويطرح على جنبه الايمن بالقبلة باتجاه القبلة . بعد ذلك يوضع على جانبي القبر حجارة من الاسمنت مصفحة ثم يرمى التراب شيئا فشيئا على هذه الحجارة ويبتدئ بذلك اهل الميت والمرافقين له ، ثم يليه المرافقون ان ارادوا ذلك مرددين دائما عبارة " اللهم صلي وسلم دائم ابدا " وينحني عند ذلك الطالب او الامام قائلا " يا بن فلانة " متلفظا باسم ام الفقيد ثم يسنم القبر ويرش بالماء .

ثم يشكل الحاضرون حلقة دائرية يبدأ بعدها الطالب او الامام بالدعاء للميت ويردد الحاضرون بعده لفظة آمين المعروفة ثم ينسحبون في عجالة لايلتفتون الى الوراء .

١ـ عندما كان الدفن يتم في اقرب مقبرة في المدينة كان الموكب يتجه نحو المقبرة راجلا . اما وقد ضاقت هذه الاخيرة فاصبح الناس يدفنون اموتاهم في مقابر بعيدة نسبيا مما استدعى الاتجاه اليها بالسيارات .

كل البشر يطهرون موتاهم:

ان الممارسة الطقسية بمناسبة الموت ،في الاسلام تخضع لرؤية متكاملة للموت وهذه الرؤية لاتختلف في جوهرها عما اتت به الديانات الكتابية الاولى المسيحية واليهودية والمبنية على واحدية الله والمفهوم الجديد حول النفس البشرية والمخالفة لمفهوم القرين (الروح المتميزة بحرية التنقل وبامكانية الانتقام) . والمفهوم هذا يحدد كل الممارسات الطقسية للجنازة بمنظور الاسلام ومثال ذلك ينطبق على التطهير . والاسلام عندما يوصي بتطهير الميت وتغسيله وتكفينه وذلك انه حال مايوارى التراب فانه يتعرض لسوال القبر .ولكي تستقبله ملائكة السوال وجب تغسيله وتطهيره لانه في حضرة الله.

وهذه الممارسة ليست وقفا على الاسلام والمسلمين اذ ان كل البشر يطهرون اموتاهم يغسلونهم ويعطرونهم وتتحدد هذه الممارسة عبر الاسطورة الكونية للموت (الموت ، ولادة ثانية) ويختزن وراء هذه البنية الثنائية ثراء رمزي كوني.

فالغسل اولا وقبل كل شيء هو محاولة رمزية لازالة نجس الموت من جسد المتوفى الماء رمز للحياة والاحياء ضد قوى الموت الخبيثة ونذكر مثالين فقط يقران بكونية هذه الممارسة . مثال من امريكا الجنوبية ننقله عن جان زيغلر " يغسل الجثمان برعاية بماء مخلط باعشاب ويراعى عدم ابقاء ولاذرة غبار اى اثر ارضي على الجثمان . ثم يغطى بعباءة بيضاء حول جسده عقد الهه (الاوريكسا) . والتي تعتبر حماية له في طريق دخوله عالم السماء (الاورن) "(١) . مثال آخر عن تغسيل الميت وتطهيره وهذه المرة في الهند .في مدينة بيناريس في الهند حيث يوتى بالميت مكفنا ومحنطا ولو على بعد مئات الكلومترات من المكان ثم ينزله اقاربه في مياه الغانج المقدسة (٢) اخر مرحلة من التطهير ثم يساق بعد ذلك جثمانه مبللا وتوضع فوقه كومة من الحطب يحرق ثم بعد ذلك يرمى رماده المتبقي في مياه نهر الغانج (٣) آخر مثواه .

١- Jean Ziegler, Les vivants et la mort, O.Peil, P.172

٢- Blasco Ibanez, Le voyage d'un romancier autour du monde. II, Flammarion, Paris, 1947, P 371a 389

٣- D^r Fred Blanchot, Dans l'asie des hommes brums, Librairie Payot, Lausanne, 1947, P. 138

ان هاتين الممارستين اللتين وضعناها لاتخلوان من الشحنة الرمزية للماء المطهر فا فجثة الهندي في نهر الغانج المقدس تمسح عنها نجاسة الموت اولا لتحرق بعد ذلك مغادرة العالم الادنى باتجاه السموات يقول لوي ف طوما حول عملية تطهير الجثة " ان غسل الفقيد لايفسر بضرورات النظافة اللباقة : بل يعود - من وجهة نظر المخيال ، الى تنحية وسخ الميت ان الطقوس الدينية اخذت بالحسبان رمزية التطهير هذه واعطت للغسل الجنائزي بعدا مقدسا : مصير الفقيد مشروط بها . ان الاعتقاد بالحياة الاخرى والذي يطبع الموقف الديني يفترض ان الموت هي عبور ، كالولادة ، او التلقين (initiation) ولايمكن ان يتم ذلك الا بعد تنظيف المرشح لذلك : " النساء تمرين الجسد وتقمن بغسله بالماء الدافئ لكي يمثل امام الخالق نظيفا " (١) هذا ما كان يعطى كتفسير لهذه الظاهرة في الارياف مع بداية هذا القرن (يقصد به ارياف فرنسا او اوروبا عامة - تنبيه منا) في التقليد المسيحي يضاف الى الغسل والذي يذكر بالتعميد (Baptéme) ملاء الجثة بالزيت والذي يحضر للبعث " (٢) .

عبر هذه الفقرة نستشف معاملة رفيقة بالميت حيث ان ارادة تنحية الموت من على بشرته ، تعتبر ارادة في اعادة الحياة اليه ، واعتباره حيا . ومن جهة اخرى تحضيره لميلاد ثان وهنا تتجد الاسطورة الكونية لـ " الموت / ميلاد ( ) كل في كل هذه الممارسة تتمحور كل عنصر الماء . والماء كونيا يعتبر عنصرا للاحياء في كل الثقافات وخاصة لدى الشعوب المفتقرة له (٣) ولقد ابتكر المخيال الكنعاني القديم انطلاقا من ثنائية الخصب / الاراضي الجرداء . البعل / الصحراء اسطورة بعل في صراعه مع الاله موت بعل اله الخصب والذي يمثل الامطار " وموت " اله الاراضي القاحلة الجذباء . الماء هو العالم الاول الذي يسبح فيه الجنين والذي يستمد منه حياته . انه المنبت للزرع ، انه عنصر الثنائية المتكررة للحياة على الارض والموت التي تعقبها ثم بروز الحياة من جديد .

" في البلدان الجافة من الشرق الاوسط وافريقيا الشمالية قد ساد الخوف من آلام العطش بعد الموت : وهنا كانت تسود ممارسة دفق الماء العزيز على الاموات ، بهدف تهدئة الميت والذي كما يقال مازال محتفظ بنمط اولي

١- Louis.V.Thomas, L'anthropologie de la mort OP.cit- P.90

٢- Ibidem

٣- قصة شعبية متداولة شفويا محتواه هو ان اسماعيل ابنا براهيم عندما داهمهما العطش في صحراء الجزيرة في مكة بادر بالبكاء وهو (صغير يداعب الرمال من شدة الغضب برجلية حتى نبع الماء من عمق ارض هذه الصحراء وغدا هذا الماء رمزا للقداسة في الاسلام والمعروف ببئر زم زم "

والذى كما يقال مازال محتفظا بنمط اولي من الحياة ،وحتى الغطاء على وجوده الانساني إذا بته ، اذا صح التعبير ،وربطه بالبذور ،اعطاه ميزة الولادة الجديدة " (١) .

هذه الفكرة لمرسيا الياد منقولة عن كتابه " بحث في تاريخ الديانات تفيدنا اساسا في ان سكب (٢) الماء دافقا على الجثمان (٣) تفيد حقا تحضيره لميلاد جديد ولكن ان تذيب ما تبقى فيه من حياة لتلحق بعالم الزرع وتتحد به وعن طريقه يولد الميت ثانية فهذا من تناسخ الارواح والذى يرفضه الاسلام مطلقا لان الولادة الثانية بالنسبة للمخيال الاسلامي هي بقرب الله ونحن نجهل في حدود بحثنا ، ان كانت توجد آثار لتناسخ الارواح في العقلية الشعبية على الاقل في منطقة سعيدة . التي هي جزء لايتجزأ من الشمال الافريقي.

واذا كان التغسيل تحضير للميت حتى يخوض غمار الحياة الاخرى رفقا به، فانه من ناحية اخرى كما سبق وان اسلفنا ابعاد لوباء الموت والتخلص منه . فالتغسيل هو تطهير الجثة لميت لايريده الاحياء مزوج الموت كأننا نريد التخلص منها وطردها من على الارض وقوفا عند رغبة لاوعينا في اللاموت والخلود . ويقول لوى ف طوما في نفس هذا

1-PHILLIPE SEERINGE, Les symboles dans L'art, Les religions et dans la vie, HELIOS Geneve 1985 P. 303.

٢- عندما يموت شخص عن ساعة متأخرة على وجد اهله انفسهم مرغومين على ان يترك جثمانه بيات طيلة الليلة بعد غسله حيث يوضع بقربه كاس ماء وشمعة مشتعلة يعتقد الاهالي ان روحه تعطش فتأتي لتروى ضمئها

٣- يغسل الميت ٣-٥ اوسبع مرات وحديث يتكلم عن ٣-٥ اواكثر دون تحديد السبعة انظر الموجز في الجنائز.

العالم السومرى القديم حافل بحكايات مفادها ان الموت في العالم السفلي مغوفون بشرب الماء اطفاء لضمأ شديد حيث انه و" وفقا لما ورد في احد الالواح المكتشفة من قبل علماء الاثار ان هناك " الابطال آكلوا الخبز " و" شاربو ال....." اللذين كانوا يطفئون ضمأ الميت بالماء العذب" ص ١٧٦ من كتاب : صموئيل نوح كريمر - السومريون تاريخهم وحضارتهم وخصائصهم ، ترجمة فيصل الوائلي ، وكالة المطبوعات الكويت ، بدون تاريخ .

في نفس هذا السياق .

وهذه المعاملة للجثمان اى التغسيل " ليست خالية من الزدواجية انها تعبر عن استراتيجية دفاعية ضمنية . وهكذا تبريرا بان الممارسة الطقسية تفيد مصلحة الميت والحقيقة انه يقوم بوظيفة اساسية وهي الحفاظ على التوازن الفردي والاجتماعي للاحياء . بداية فان التغسيل يقضي على امكانية عدوى الموت باعتقاد مرتبط كونيا بهاجس نجاسة الجثة هذا الهاجس يتواجد في الحضارات التي اضحى في الغسل والوضوء قاعدة ليس على الجثمان فحسب بل حتى على القائمين بالتغسيل او كل من لمسه او اقترب منه (...) نستطيع ان نذكر امثلة كثيرة عن طقوس وعادات تؤكد نية الاحتماء من الميت ومحيطه . اضافة الى التغسيل فان الشعائر المسيحية التقليدية تقضي برش الماء المقدس طيلة مراحل الجنازة وحسب التقاليد الشعبية ذات النزعة السحرية فان ماء الغسل يرمى لما يحتويه من شحنات لعينة في حفرة تحفر في الحديقة وذلك في مقاطعة بروتانيا " (١) بفرنسا .

ان تغسيل الميت هو كما ذكرنا ابعاد لنجس الموت من جسده كإصرار لاواعي على عدم موته وابعاد الموت - وهذا مهم - من كل محيطه الفرض الاول مرتبط بالثاني وهذا يخلص الاحياء من مصيبتها على الاقل على مستوى رمزي وحيث توجب على كل غاسل ولامس لهذه الجثة ان يغسل يديه (٢) من دنس الموت .

كما ان التكفين غرضه ليس ستر الميت فحسب بل تزيينه للقاء لله حيث يكفن المسلم بالابيض رمز الصفاء . حيث ان الميت بهذه الصفة ينتقل صافيا لاثر لآثام الارض عليه ليلاقي ربه .

المسيحيون يلبسون الميت لباسه العادي كما كان عليه في حياته يحنط ويجمل يلف عجز بريطانيا (٣) اموالهم بلفائف باعداد كبيرة (خمسة لفائف للمرأة) كما هو على الطريقة الاسلامية (مجرد صدفة) يزين الميت ويحنط ويوضع في تابوت وكل هذا كما اسلفنا إصرار على رفض الموت وتحضير الميت للعالم الاخر وقد نجد ذلك عند شعوب ما قبل التاريخ في المغرب يدخلون اموالهم في اكياس من الجلد قبل دفنهم في وسطها . (٤)

١ـ Louis vincent Thomas, L'anthropologie de la mort, op. cit. P. 91

٢ـ انظر الحكم الجائز في تشييع الجنائز لحسن رمضان فحلة مرجع مذكور

٣ـ انظر للفي الخوري دورة الحياة عند الغجر، في مجلة التراث الشعبي وزارة الثقافة لسنة ٩٧، بغداد، ١٩٧٨

٤ـ C.F. Gabriel CAMPS, Aux origines de La Berberie, op. cit.

ولكن ما يتخفى وراء هذه الظاهرة هو كذلك الاحتماء من الموت قدر المستطاع ان الكفن او التابوت والكيس الجلدي يعزلون الجثة عن الارض مخافة ان يبلغ الارض وباء الموت وعدواها . في الاسلام يفرض على الشخص دفع ماله من اجل ذلك حيث يشترى ثمن كفنه حماية للارض وما يلحقها من دنس الموت ابورجين استراليا يعزلون الجثة عن الارض فوق الشجرة او يضع بعض سكان افريقيا حشيشا بين الجثة والارض الصينيون يعزلون الارض عن الجثة بفرش قاع القبر بالاصداف (١)

وتنتظم صورة الماء في الطقس الجنائزي حسب البنية الثنائية :

ماء	جفاف
رطوبة	قحط
خصب	عقم
طهارة	نجاسة
حياة	موت

١- C.F. MIRCEA ELIADE, Images et symboles, O.P. cit.

- واذا وضع الميت في القبر يتلفظ انسان تقي وقد وقف على قبره بعبارة " يا ابن فلانة " ؛ كونية رمزية الامومة في الطقس الجنائزي -

لقد لاحظنا في عدة جنازات قبل ان يوارى الميت التراب ، الطالب المرافق للجنازة يتلفظ بذكر ام الفقيد " بعبارة :" يا ابن فلانة " ولكنه لايتلفظ باسم ابيه . ولم ترد هذه العبارة في اى كتاب ديني قرآنا ، سنة او من مولفات الائمة والفقهاء مما يجرنا للظن بأن العبارة خاصة بالثقافة المحلية. والجزائر عامة حيث تكلم عنها جان سرفييه في كتابه ابواب السنة ،(١) عند وصفه للجنازة في بلاد القبائل ، وماهي في رأينا الا متغير لثابت كوني . نجده في جميع الثقافات الانسانية وهو حضور الام في كل موقف باتجاه الموت وتلفظ العبارة عند وضع الميت في القبر وكأنها اعادته الى بطن امه ليولد من جديد. فالارض في الحضارات الزراعية هي صورة للام والعكس صحيح (٢) . الموت ينادي الى الاصل الاول (٣) الى لحظة الاحتماء برحم الام (٣) ووداعة الطفولة الاولى ويدخل هذا في منطق رد الفعل الذي يمارسه الانسان ضد الموت وهو مواجهته بالحياة واشد واسعد لحظات الحياة هي الطفولة. عند اهالي الابورجين في استراليا، لما يموت الشخص تضع امه رأسه بين ركبتيها وتنحني عليه باكية وتضغط بثديها على شفتيه " (٤) سلوك يتم على كثير من المعاني لارتباط الامومة الخصبة المولدة للحياة والمواجهة للموت . لترتسم بوضوح البنية المنظمة لهذا السلوك البنية المزدوجة الموت/ميلاد جديد ان الموت هي غياب اللذة والتوتر مثل ماهو الحال بالنسبة للحالة الجنينية الاولى (٥) ومن هنا تأتي العلاقة بين الموت والميلاد ويوظف هذا العنصر

١- Jean Servier, Les portes de L'année, R. Laffont, Paris, 1962, P. 241

٢- القرآن يشبه بصريح العبارة المرأة (الام) بالارض في الاية " ان نساؤكم حرث لكم فأوتوا حرثكم انى شئتم " سورة النساء.

٣- معروف عندما تغربوا في الخارج لما يبلغون سن الشيخوخة يحنون الى العودة لارض الوطن ليموتوا ويدفنوا فيه

٤- A.P. Elkin, Les aboripenes australiens, Op. cit, P. 384

٥- C.F: Louis Vincent Thomas, Le Cadavre, Op. cit.

عينا الصفراء وتلاغ بلدتين موجودتين في منطقة سعيدة الاولى تقع جنوبا على بعد اكثر من ٢٥٠ كلم والثانية على غرب المدينة باكثر من سبعين كلم. ان هذه الكشوفات الاثرية، تعبر عن قدم رمز الامومة في الطقس الجنائزي منذ ما قبل التاريخ .

الديانات الكتابية عندما انتشرت في المنطقة وخاصة منذ العهد الروماني (١) ادخلت طرق اخرى للدفن والوحيدة التي نعرفها اليوم هي طرق الدفن الاسلامية وهي وضع الجثمان ممتدا في القبر ربما كان " ذكر ام الميت " عهد دفنه (٢) جاءت كضرورة لتعويض طريقة الدفن الاولى وما تحمله من رمز الامومة وتبقى على كل الارض صورة للامومة دون منازع .

والتعبير عن رمز الامومة يتخذ شكلا آخر عند شعوب اخرى حيث الماء يرمز الى الاصل الاول . يذكر لوي ف طوما في كتابه الموت والسلطة قصة امرأة مأخوذة من رواية حيث " انتحر ابنها في سن ١٥ دخلت امه بعدها في علاج نفسي تحكي كيف تعيش حدادها . ترفض العيش كما كانت من قبل لكن لاتريد ان تموت لانه وجب عليها العيش لكي لايموت "جيل " ابنها موته كاملة ،ولكي تستمر في حماه :" انت في قلب اعماق ١٠٠٠٠ انا شيء ممتلىء ،انا اناء (٣) ،صندوق الدفن ويطني مملوء بطفل غائب " (٤)

توجز هذه القصة النزوة المرضية لامرأة تعيش بحسرة موتولدها. تحمل احساسا مرضيا بالذنب لدرجة انها تتخيل اوتريد ان يستمر ولدها ولو في بطنها . والبطن هو اصل الحياة رحم المرأة موطن للخصوبة في الماء المغذي للجنين.

١ـ لازال لحد الان بقايا رومانية قائمة في نواحي المدينة في بلدة داود ـ جدران لحصن عسكري كما وجدت اثار لعبادة الميترا (إله روماني)

٢ـ هنود سيرا نيفادا ـ عوض ذكر اسم الام " يقوم بحمل الجثة تسع مرات هذا يعني ان الموت تحسب عكسا الاشهر التسعة للحمل " ص٢٥٣ من كتاب:
- Mircea Eliade, Nostalgie des origines.... op. cit

٣ـ الاناء الممثل لرحم المرأة كشفه علماء الاثار في قبور في الشمال الافريقي وقد وضعت فيه عظام الاموات وفنهم قبرائيل كامس ،انظر المقال:
- N. Ferhat "Sepulture ante islamique au nord de L'Afrique" O.P.cit, P60-61
- Louis vincent Thomas, Mort et pouvoir, O.P.cit P. 44.

احدى عالمات النفس الامريكيات في دراستها لظاهرة الانتحار في منطقة كاليفورنيا ، لاحظت ان عددا من المنتحرين عند اقبالهم على الانتحار يذهبون الى شاطئ البحر (١) .

قبائل الاسكيمو ترمي جثة اموتاها في البحر لتحضيرهم للميلاد الجديد في عالم حياة اخرى .

في الاصداف البحرية وقواقع الحلازين بصفة عامة رمز للخصب والميلاد ان تشابه فوهة المحار بالعضو الجنسي للمرأة وجوف الحلازين البحرية الضخمة جعل من الصدفة وسيلة لتمثل رحم المرأة الساخن . مما علق صورة الخصب في هذه الحيوانات عند معظم البشر في الارض ليكون رمزا كونيا للخصوبة المناقضة للموت اضافة الى كونه يلد الاحجار الكريمة لتصور صورة الجنين بوضوح في بطن الام . وتأخذ كذلك الحلازين نصيبها من هذه الصور الرمزية لان خروجها من القوقعة يمثل تماما صورة الجنين عند خروجه من بطن امه . وعلى هذه الصورة ترسخت رمزية الاصداف المرادفة لرحم الام الخصب والمنتج للحياة وتظهر هذه الرمزية بشكل مكثف في انشودة الاطارقا قيدا التي يوردها ميرسيا اليادي في كتابه صور ورموز . " مولودة من الريح ، من الهواء ، من الماء من النور احمينا ايتها الصدفة من الخوف (...) بالصدفة (نفوز) على المرض والفقر ...الصدفة هي دواءنا الكوني ، الجوهرة تحمينا من الخوف مولودة من السماء . مولودة من البحر (...) اطيلي حياتنا عظم الآلهة تحول الى جوهرة ، يالله من حياة ويتحرك في المياه . اربطك طول الحياة . وبالقوة وبالحياة الطويلة حياة المئة خريف " (٢) يعبر هذا النشيد بقوة على ارتباط الصدفة بالحياة وديمومتها انه الهام الاهي في الارض ، انه رمز الاحتماء من المرض . مثال اخر في الهند يشهد على التوضيح الرمزي للصدفة " في الهند عندما يهم الناس لنقل الميت الى دار الاموات بالمقبرة يتم طرق الاصداف اعلانا عن الموت ثم تفرش طريق الموذية الى دار الاموات بالاصداف . بعض القارئة يفرشون عمق قبور موتاهم بالاصداف كما ان العديد من علماء الاثار في مختلف اعمالهم الحفرية اكتشفوا اصدافا بحرية في عدة مواقع اثرية وخاصة في القبور "(٣)

١- EDGAR MORIN, L'homme et la mort, op. cit, P 141

٢- MIRCEA ELIADE, Images et symboles, Gallimard Paris, 1972, P. 171

٣- Ibid, P. 180

وخاصة في القبور .

مرة اخرى ترتبط الصدفة رمز رحم الامومة بالحياة وحمايتها اطالتها مجابهة للموت ونضال ضدها ، ثقافتنا المحلية كذلك وفي منطقة سعيدة حيث نصادف القوقعة الحلزونية المحلوبة من البحر تزين البيوت واهداف بحرية اخرى تعلق في رقاب الاطفال (١) لحمايتهم في الامراض لما تكتسبه من قوة حياتية ، عندما يصل الطفل الى سن الاكثر من شهرين او قبلها بقليل تعلق في لفافته بواسطة ماسك حزمة من التراب المقدس مجلوب من جلال ضريح الولي ومعها صدفة تدعى محليا " بالودعة " تشبه في شكلها العضو الجنسي للمرأة . الفتحة التي تخرج منها الحياة وقد عثرنا عليها في العديد من قبور الاطفال حيث تعلق بعدموتهم هذا العقد موضوع حول رقبة الاطفال على "شاهدة " القبر . وفي بعض القبور كذلك عثرنا على اصداف حلازين بحرية ولقد استطاع الاثريون الكشف عن بقايا حلازين في قبور قديمة في المغرب العربي ويعلق عليها كامبس قبرائيل على انها مجرد اعطيات دون طرق رمزيتها المرتبطة بالامومة .

وتذكر فيفيانا باك تقليدا راسخا في صحراء الجزائر وفي منطقة عين صالح بالتحديد " فبعد ميلاد الطفل بأربعين يوم تأتي امرأة عجوز لتحلق رأس الصبي ، وتأخذ كومة صغيرة من شعره وتمزجها بعجين التمر ثم تضع ذلك العجين في صدفة بحرية آتية من البحر المتوسط تنتقل هذه الصدفة عن طريق الام للفتاة الاولى التي تنجب للعائلة . كما ان مرحق النساء الاخريات لتوظف كقوة حيوية مخصبة لهن وكل هذا التقليد يمارس لحماية الصبي من شر الموت وجلب الخصوبة عند النساء " (٢)

١- يذكر نفس المؤلف ان هنوا سيرانيفادا يمارسون طقوسا للتعلم يمارس فيها الموت الرمزي ضد المترشح للطقس ثم يعاد بعثه عن طريق الصدفة المقدسة ص ٢٥٧ : ج

- MIRCEA ELIADE, La nostalgie des origines Gallimard, Paris, 1972, P

- VIVIANA Pacques, L'arbre cosmique..... o P. P. 220 - 221.

هذا العنصر اللاشعوري في مغالبة الموت حيث ان الموت لم يقض عليه نهائيا وانما له نصيب في الحياة في عالم آخر كليا أو جزئيا هذا العالم الآخر الذي يولد فيه رمزيا من جديد وتمثل صورة الأم هنا بكل جدارة .

احد الباحثين يورد عبارة لطفل مخاطبا أمه "اريد ان أموت . الام : لماذا ـ الطفل " لأنني اريد ان اكون في نفس القبر الذي تدفنين فيه "(١) . وهذا مثال آخر عن ارتباط الامومة بالموت من وجهة التحليل النفسي وفي المجتمعات الغربية مما يدل على كونية الظاهرة ويتابع مورين في تحليله لهذه الظاهرة في المقليات القديمة ." انها الارض البحر العناصر التي يعود اليها الميت ، اين يحضر التوليد في عالم آخر هي التي تأخذ " معنى الام " (٢)

الدفن فيما قبل التاريخ كان يتم عن طريق وضع الجثة منكمشة على شكل الجنين في القبر فاذا كانت الارض حماية للجثة من الحيوانات المفترسة وردم للميت حتى لايعود ليذكر صفو حياة الاحياء فان الوضعية الجنينية توضح كيف ان الميت يحضر لميلاد ثان والبحوث الاثرية كشفت عن وجود قبور في جزائر ما قبل التاريخ وقد دفن فيها البشر على هذه الشاكلة ، ان هذه الوضعية مشتركة بين عدة قارات ليست خاصة باي شعب معين بل انها كونية وتوضع الجثة اما على الجانب الايمن او الايسر . الاطراف السفلى منكمشة ، الايدى على الوجه والرأس مطأطأة وفي احيان اخرى توجد الايدى مستقيمة على طول الجسد .

" لقد وجدت آثار لهياكل موضوعة على هذا الشكل في مقابر في منطقة عين الباي بقسنطينة ، في تيمولوس سيدي سلمان بالمغرب الاقصى وفي المنطقة الجنوبية منه في فم الرجم (...) وضع الجثة على الجانب الايمن هي طقس يميز المناطق الوسطى من المغرب بينما على الشمال منه توضع الاجساد على الجانب الايسر . فرضيات من هذا النوع تدعو للتحفظ بدليل ان هياكل تم العثور عليها موضوعة على الجانب الايسر في عين الصفراء وتلاغ " (٣)

١ـ EDGAR MORIN, OP. cit, P. 134

٢ـ Ibidem

٣ـ Gabriel CAMPS, Aux origines de La berberie. Rites et monuments protohistoriques, OP. cit, P. 470

- منـــع عودة الميت الى الاحياء ظاهرة كونيـــة -

عندما يوارى جثمان الميت التراب يعود الاحياء المشاركين في الجنازة مهرولين لايلتفتـــون الـــى الـــوراء

لم تأت هذه الممارسة كتعليمة طقسية في اى كتاب مع الكتب الدينية حسب اطلاعنا . وتأخذ هذه الممارسة شكلا اخر في مناطق اخرى من الجزائـــر لاحظها جان سرفيه في منطقة القبائل حيث ان حفارى القبور والمشاركيـــن في الجنازة عندما رميهم التراب على القبر لمواراة الميت وتسنيم القبـــر " يعودون الى القرية سالكين طريق آخر غير الاول الذى سلكوه حتى لاتستطيـــع الروح النبتوية معرفة سبيل الرجوع الى الاحياء . وتروى الحكايات الشعبية ان الميت عندما يريد العودة الى الاحياء فان الشاهدة تمنعه من رفع رأسه او يقال كذلك انه لم يوارى التراب ينادى الاحياء كي لايفارقوه او يأخذوه معـــهم .

بعض الشعوب تمارس اشياء باتجاه الجثة بحيث انها تتأكد بصفـــة ملموسة من عدم عودة الميت . وتوجد هذه الممارسة لدى شعوب اوقيانوسيا حيث " يكسرون اعضاء الميت السفلى حتى يتعذر عليه الخروج من القبر والجرى وراء دافنيـــه " .(١)

كما ان شعوب اخرى في غينيا الجديدة تدفن موتاها وراء الانهـــار(٢) حتى لاتستطيع قطع المياه للعودة بين الاحياء نلتمس نفس الهدف عبـــر ممارسة يقوم بها شعوب دياك بماليزيا حيث " توضع جثة الميت في وسط اربع طرق حتى لايتسنى لها العودة مع الطريق (٣) " الصحيح الذى سلكـــه الاحياء .

١- AP. Elkin, Les aboriginenes australiens, op.cit, P.389.

٢- FREUD, Totem et tabou, op.cit, P.72.

٣- EDGAR MORIN, L'homme et la mort, op.cit, P.130

يذكر كذلك صاحب كتاب الابورجين الاستراليون طريقة اخرى تتمثل في اطلاق الدخان وراء العائدين من الجنازة او يعودون في اتجاه يتعرجون فيه المشي

لقد لاحظ علماء الآثار في مغرب ما قبل التاريخ طريقة في الدفن " وهي وضعية الجنين او القاعد الشيء الذي يتطلب ربط الجسد . واغلب الاحيان تفكيك للعظام والاعضاء . وتكون الاعضاء بهذه الطريقة متطوية الارجل مقربة للجذع بصفة شديدة ،ويرزم الجسد ويدخل في مكان مصغر (١).

تدلنا هذه المعلومات عن طرق الدفن في شمال افريقيا على حرص الاحياء على عدم ترك فرصة للميت ليعود الى عالم الاحياء فاذا كانت هذه الوضعية الجنينية تذكر برمزية الامومة فانها كذلك تحمل هاجس ابعاد الميت عن عالم الاحياء بربطه واحيانا وجدت اكياس من الجلد وقد لفت وحكيت من الجلد لفت وحيكت على الميت " (٢)

ويخبرنا كامبس على وضعيات اخرى في مغرب ما قبل التاريخ حيث "الهيكل ممدود ،الارجل مقيدة والايدى متحررة حاملة اواني فخارية " (٣)

ان تقييد ،كسر الاعضاء السفلى للميت وضعه في موقف حيث لايستطيع ملاحقة الاحياء عن طريق تبديل الطرق المودية من المقبرة الى القرية كلها ممارسات كونية حيث تمارسها شعوب متباعدة جدا على المستوى الجغرافي والتي تندرج . ضمن هاجس كوني كذلك وهو الخوف من يعود الميت الى عالم الاحياء منتقما منهم .

وينتظم طقس الدفن في البنية التالية:

فضاء الاحياء　　فضاء الاموات

طقس الدفن

وبالتالي يظهر طقس الدفن كعملية فصل بين فضائين فضاء الاحياء و فضاء الاموات

١- N. Ferhat, "Sepultures preislamiques au nord de L'Afrique du nord", O.P. cit, P.61

٢- Ibidem

٣- Gabriel Camps, Aux origines de la Berberie, O.P, cit, P.540.

ـ السؤال عن سبب الموت حاضر دوما عند اهالي منطقة سعيدة :

عند نشر خبر الوفاة فان كل الناس يتساءلون عن سبب الوفاة فالسؤال الاول الذي يطرح على لسان العامة او الجيران هو :" وشته كتله " بحثا عن سبب الموت فاذا كان الموت طبيعيا يكون الجواب " مات موت ربي " فان السائل يطمئن (١) . الا انه اذا كان السبب غير ذلك كالانتحار مثلا فان الناس كلهم يشمئزون لذلك لان المنتحر تصرف في روح ليست ملكا له وخالف امر الله قابض الارواح الوحيد والاوحد . وان كان السبب قتلا فيكون نفس رد الفعل من قبل الناس ، الاشمئزاز ولكن بوجه آخر فويل للقاتل هو كذلك خالف امر الله وتصرف في روح هي ملك الله " ياقاتل الروح وين تروح " تردد على السنة الناس تعبيرا عن الجزاء الذي يلقاه القاتل يوم الحساب .

واذا كان سبب الموت حادثا (حادث سيارة) مثلا يسئل عن حال جسده وما اصابه من تشوه . فاذا اصاب الجسد تشوه وبترت اعضاء منه ، او بقر البطن وسال الدم (٢) كثيرا فان الاشمئزاز يكون اكثر شدة . لان الجثة المشوهة او كما يقال "مات موت شينة" او كما يقال ايضا (مات مرمد مات ملطخ) والميت الذي سال دمه وكانت موته غير طبيعية فان المعتقد السائد يقول بعودة روحه لتزعج الاحياء في حياتهم انتقاما للطريقة التي مات بها . فيقال ذلك المكان " ينوض فيه مقتول "

١ـ الاطمئنان نابع من كون ان الموت الطبيعي " موت ربي " هي ارادة الله في عباده وبهذه الطريقة فانه ضمان صعود الروح قرب الله بعيدا عن الاحياء مما يستبعد عودتها للانتقام منهم .

٢ـ عند حدوث حادث قتل سواء كان جريمة او مجرد حادث فان الناس يسرعون الى غسل المكان من اثار الدم مخافة من روح الميت ان تعود .

كلية العلوم الانسانية و العلوم الاجتماعية
جامعة ابي بكر بلقايد - تلمسان
مكتبة الكلية

ويتجنب الناس المكوث في مكان سال فيه دم الميت او المرور بقربه ليلا لان روح القتيل لاتظهر الا ليلا .(١)

وهذا القلق المتعلق بسبب الموت يترجم على مستوى آخر اذ ان الميت الذي توفي لاسباب غير طبيعية ومجهولة تمارس على جثته لدى مصالح طبية مختصة وهي اصطلح عليها بالطب الشرعي عملية تشريح الجثة لتحديد اسباب الوفاة . فالعقلية الشعبية الجاهلة لهذا الاجراء الذي تعرفه باسمه اللاتيني " اتوبسي " ولكن فهمتها واستوعبتها العقلية الشعبية حسب مخزونها اللغوي حيث ان الكلمة الاقرب لها هي " طبسي " (٢) الذي معناه الحن او الاسطوانة . وبما ان الناس البسطاء الذين يجهلون اجراءات التشريح . فانهم يعتقدون ان مصالح الامن ،تلحق بالجثة جهازا سميا وضعت عليه الاسطوانة والتي عند دورانها تكشف ظروف القتل ، وهوية القاتل حيث يتكلم القتيل بواسطتها .

يترجم هذا الاعتقاد الغريب القلق الذي ينتاب الناس عند سماع خبر الوفاة . الشيء الذي لايحصل البتة عند وفاة طفل لان الطفل هو بمثابة ملاك ظاهر ففور موته يصعد الى السماء عالم الملائكة(٣)

١ـ في العديد من الثقافات يعتبر الليل والظلام عامة شبيه بالموت وخاصة في ديانة فيدا الهندية انظر: C.F. MIRCEA ELIADE
Mephistoles et l'androfyne, o P.cit, notemment CH.II

** حيث ان الوجود في العالم ووجود العالم برمته تطلب الفصل بين الظلمة والنور هذا الاخير الذي يأخذ رمز الحياة .

٢ـ الكلمة ذات اصل بربري " آطقمي " مشتقة من تاطفسيث بمعنى محن

٣ـ الاسلام لايحاسب الصبي فالقلم كما يقال مرفوع عنه . والحقيقة هذا يعود الى كون الصبي لم يندمج في المنظومة الاجتماعية كفرد فاعل فهو اصلا متلقي لقيم المجتمع لاوعي له بمكانته في الامة .

ـ كونيـــة الســـؤال عـــن سبب المـوت ـ

ـفي استراليـا لايدفن الميت ميت الأبورجين حتى يسأل عن سبب قتلـــــه.

ان ممارسة السؤال عن اسباب موت الشخص كونية نجدها لدى كثير مـــن الشعوب من استراليـا حتى افريقيـا عند وفاة احدهم يقوم الاستراليـــون الاصليـون (الابورجيـن) بالتحقيـق حول ظروف موته اذ يعتبر هـؤلاء ان الموت لاتكون الا بسبب فاعل لان المرض والموت لايسببهما الا فعل الشـــر وعلى اثر ذلك يعاقب المجرم الذي تسبب في القتل ولايقع التحقيق الا علـــى شخص ذو مرتبـة هامة في العشيـرة (١) فالطفـل المتوفى لايستحق اجراء تحقيـق حول مسببات وفاته . واجراءات التحقيق عديدة وليس مستبعـــدا ان قبيلـة واحدة تستعمل اكثر من اجراء واحد التقنيـة الاكثر شيوعا تتمثل في البحث عن ثقب يحدث في تربـة القبر حيث يخضع لفحص دقيق لان بامكانـه الكشف عن موطن المجرم والقرار الاخير يعود للخبير الطبي ورفاقه فيمـا اذا كان هذا مؤشر صالح ام هو مجرد ثقب حشرة ؛ وفي الحالـة الاولى فان باعتقادهم ان روح الميت قد خرجت باتجاه اقرب موضع يسكن فيه المتسبب في الجريمة ،في بعض الاحيان ، يستعملون عصا اذ توضع في الثقب وبعـــد ذلك يستدلون على مكان المجرم حسب ميـل العصا ." (٢)
وعند التعرف على الفاعل او الجهة التي تسببت في موت الفقيد يفعل عمل سحري فان بعثـة انتقامية تتجه الى العشيرة التي صدرت منها العمليـة السحريـة.

١ـ التحقيق لايمس الاموت فقيد ذو مرتبة عليا في سلم العشيرة لان عدم الانتقام له يعرض العشيرة الى شر روحه المنتقمة بنفس القوة التي كان يمتلكها ابان حياته .

٢ـ A.P. ELKIN, Les aboripenes australiens, O.P. cit, P. 391
وعند اتمام التحقيق والتعرف على هوية العشيرة التي ينتمي اليها القاتل فان حربا تشن ضدها . وقد تسلم عوض ذلك لعشيرة الفقيد آمرأة كديـــة او تعوض ذلك كله طقوس سحرية حيث يمارس الموت الرمزي ضد فتى من العشيرة التي تسببت في القتل حسب طقوس معينة .

في افريقيا " لايوجد اى موت طبيعي اذن يجب البحث عن اسبابه في كل حالة الموت ،قبل ان يحمل الجثمان باتجاه دفنه يقوم شعب الفانج بالفابون بتشريح وفحص احشاءه في سبيل العثور على اثر ممكن للسحر ويقولون ان بمقدورهم احياء ميت ليخبرهم عمن تسبب في موته ،وفي اغلب الاحيان يقومون باعمال التنجيم والسحر .

العديد من سكان السودان يمارسون مراسلة الجثمان اثناء حمله الى قبره . ولكل سؤال يجيب بحركات لحامليه باتجاه من تسببوا في فقدانه(١)

ففي الفكر والممارسة الافريقيين " فالموت رغم مجيئها الى الارض واستقرارها بها حسب ما تقره عدة اساطير تبقى كامنة الى حين يتسبب شخص ما في بروزها . وفي معظم الاحيان تدخل المعتقدات قوى خفية . لما تفقد الجماعة احد افرادها لاترجع الى اساطير اصل الموت لتفسيرها بل تقوم عن طريق طقوس دينية وشعوذات للتعرف على السحرة والارواح الشريرة كأسباب مباشرة للموت " (٢) وفي بعض الاناشيد الجنائزية الافريقية نستشف هذا الاتهام باتجاه السحرة المتسببين .

" يبدو لي ان الناس تهزأ مني .
طبل اقباحا يوحي بان في هذه الحالة يذمني الناس .
بيد ان الذي قام بهذه الفعلة سينتهي بالموت هو كذلك والساحر كذلك يموت
فاذن لما تستهزئوا مني " (٣)

١- Dictionnaire des civilisations africaines, op. cit, P 185

٢- Y.K. Bamunobaqib Adoukonou, La mort dans la vie africaine, op. cit, P. 108

٣- Ibid, P. 316

المتسبب في الموت ساحر وجب البحث عنه لانتقام للميت وهذا النشيد يدل على ضرورة التعرف على القاتل فالانتقام للميت. وهذا برأينا يعود الى هاجس عودة روح الميت ولو اخذت بعدا رمزيا كما رأينا مع أبورجين استراليا ، ضرورية لتهدئة روحه حتى يتسنى لها الالتحاق بعالم الارواح والاجداد .(١)

وهذه الممارسة المشتركة بين شعوب متباعدة لاتصال بينها تبدو كونية من اننا عبر الاعتقاد في الاسطوانة نستطيع القول فرضا ان مسألة الميت كانت ممارسة قائمة لدى اهالي منطقة سعيدة ربما كبتتها قواعد معاملة الجثة التي جاءت في الاسلام ولكن الكلمة الفرنسية للتشريح والهدف من هذه العملية بالذات والتي ابتدعها الطب الحديث في الغرب مما يدل بقوة على كونية هذه الممارسة . ايقظا هذا الاعتقاد الذي ربما قد مورس في حقب ما قبل الاسلام .

فالبحث عن معرفة سبب الموت اضافة الى كونه يهدئ من روح الفقيد لمنعها من العودة لتفكير صفو حياة الاحياء والانتقام منهم فان سماع خبر موت فرد من الافراد توقظ قلقا بدائيا متعلقا بالقتل البدائي للاب الذي انجر عن تحريمه قيام المجتمع وقيام السلطة المرتبطة بقواعد يضبطها الولاء للاب الطوطم وكان نتيجة ذلك ان حرم القتل تحريما باتا (٢)

١- حيث المعتقد الكوني يقول بمكوث الروح قرب الجسد طيلة الايام القليلة التي تلت الموت فلولا مكوثها قرب الجسد لما تصرفت في حركة بعض اعضاء لتدل على اتجاه مصدر المتسبب في الموت وتبقى ماكثة ثلاثة ايام قرب القبر حسب اعتقاد اهالي منطقة سعيدة .

٢- C.F; Freud, Totem et tabou, OP.cit,

ان البحث عن المجرم لمعاقبته هو كذلك بحث عن استقرار المجتمع وحفظ توازن السلطة لان الجريمة هي اعتداء على الجماعة . الجريمة بطبيعتها تمس للعلاقة الاجتماعية . العنف هو الهدم هدم الحياة الانسانية التي لايمكن ان تتحقق الا بالنظام (١) . ان النظام هو منع تقاتل الناس النظام هو جوهر الحياة وعن اصل تحريم القتل يقول جورج بطاى :

" ان البدائي كان بمقدوره ان يحس ان تنظيم العمل ملكه ،بينما الفوضى الموت كانت تتجاوزه ولازالت ،والتي تجعل من مجهوداته فارغة من اى معنى حركة العمل عملية العقل ،كانت تخدمه بينما يفسد اللانظام ،حركة العنف الوجود ذاته الذي هو هدف كل الاعمال الصالحة ،كان الانسان يرى ذاته في الانتظام والتنظيم الذي كان يقوم به العمل وكان بذلك قد انفصل عن ظروف العنف التي كانت تعمل باتجاه معاكس " (٢)

ويجب فهم كلمة نظام في هذا النص بمعناها الواسع من حيث ان العمل ينتظم حوله كل النسق الاجتماعي بكل مستوياته الاقتصادية الاجتماعية والسياسية والثقافية وفي حالة مجيء العنف فان كل هذا النسق اى كل كيان منظم آلت اليه ممارسة العمل يتلاشى ومعه الحضارة لذا يأتي العمل كحاجز ضد الموت والدمار باتجاه الحضارة والثقافة اليست هذه الاخيرة " تحرر لحدود الموت " ويبقى هاجس الانسان باتجاه الاستذكار للجريمة وما يلحقها من دمار للنوع والفرد .

وينتظم هاجس البحث عن سبب الموت في بنية ثنائية :

موت طبيعي	موت غير طبيعي
ـ نظام	ـ لا نظام ،فوضى
ـ اللا عنف	ـ العنف و الجريمة
ـ راحة بال الاحياء والميت	ـ لا استقرار بالنسبة للاحياء ولاراحة لروح الميت .

١ـ كل النظريات حول الدولة وبروز السلطة في المجتمع تتفق على ان هذه الاخيرة ظهرت لتصد نزوات العداوة بين الناس لينتظموا تحت سلطة القانون إرجع المقدمة ابن خلدون حول اصل الدولة

٢ـ Georges Bataille, L'erotisme, UGE-10/18, Paris, 1965, P51

الفرع الثالث

الحداد

المرحلة الاولى :

بمجرد انقطاع النفس عن الحياة تقوم النسوة بالعويل والبكاء بلطم الوجه وتمزيقه بالاظفار حتى سيلان الدم . وضرب الفخذ والصدر بقوة اليدين ويتم ذلك بتنظيم صفين متقابلين من النساء ويشتد الامر عندما يتم اخراج الجثمان من البيت باتجاه مثواه الاخير مرددات العبارة " يابردى ياحاى " غامضة في معناها اللغوى لكنها تعبر عن الحسرة الشديدة لفقدان الشخص وتسمى هذه الممارسة النسوية بمشاركة الرجال احيانا - بالعينة او المندبة .

وعادة تقام حلقة تتوسطها امرأة مسنة تقوم برثاء المتوفى بتعداد بتعداد صفاته في قالب غنائي ويسمى محليا بالعد ،وهذا مقتطف من العد قامت به امرأة باكية امرأة توفيت دون ان تنجب اطفالا

"وريني بنتك وريني ولدك ياتيناشة[1] خالية الدار وريني بنتك وريني ولدك يبكو عليك في نهار اليوم "

اذتحسر هذه المرأة على عدم الانجاب انجاب المتوفية للابناء ونحن نعرف وقد ذكرنا في القسم الاول من هذا البحث كيف ان الابناء يلعبون دورا هاما في مخيلة الناس في منطقة سعيدة واستمرارية حياة الفرد عبر ابناءه اذا مات وتعتبر هذه المرحلة الاولى من الحداد قدوم ثلاثة ايام في اليوم الموالي للدفن تزور النسوة القريبات جدا للميت لتزرن قبره في فجر صبيحة ذلك اليوم ومعهن تمر وخبز حلو يقسم على الفقراء المتواجدين او الوافدين على المقبرة التي عادة ما يأتيها صباحا " طالب " حافظ للقرآن يقرأ على قبر الميت بعض آيات القرآن ومقابل ذلك يتلقى صدقة من لدن اهل المتوفى.

والغرض من الزيارة حسب ادعاء اهالي المنطقة هو ان روح الميت لم تصعد بعد الى العالم الاخر بحيث انا لميت تنتابه حرارة من الشوق فلا تفارق الروح نواحي القبر الا بعد حدوث هذه الزيارة وهناك اعتقاد سائد ان صورة الميت تظهر لزائري القبر شريطة ان يلتزموا الصمت ولايحدثون عويلا .

١- التي لم تلد اوالتي فقدت جميع اولادها وبقيت وحيدة

المرحلـــة الثانيـــة :

بعد اجتياز ثلاثة ايام الاولى يبدأ التوتر يسقط شيئا فشيئا لدى اقرباء الميت حيث يمتنع اهل الكيت وخاصة منهن النساء عن تجميـــل انفسهن وتبديل لباسهن وعدم الاغتسال طيلة هذه المدة اى من اليوم الاول لحدوث الوفاة الى انقضاء الاربعين يوما المحددة لانتهاء الحداد من اليوم الثالث الى اليوم السابع واحيانا في الايام الثلاثة الاولى تقوم بعض العائلات الملتزمة بتقاليد دينية حيث يمنع النواح والبكاء وبستبدلان بأناشيد دينيـة تؤديها مجموعة الفقيرات (النساء التقيات) المرتبطات بمؤسسات الزاوية تؤدى هذه الاناشيد بمصاحبة الطبـــول والدفوف حيث تقام نصف دائرة تتوسطها المرأة الاكثر قرابة مع الميت امه اخته او زوجته حيث تدخل في رقصات عنيفة متواترة مع دقـــات الطبول وتستمر في ذلك حتى يغمى عليها .

وعند انتهاء هذه المرحلة " السبوع " اى مرور سبعة ايام على وفاة الشخص تقام سهرة دينية يقرأ فيها القرآن ويطعم فيها الناس وبعـــد ذلك يقوم الطالب الحافظ للقران والمتفقه في قضايا الدين باعطاء مواعظ حول الحياة والموت والحياة الاخرى العذاب والثواب وما الى ذلك وتذكير الحضور بالموت وواجب العمل الصالح للفوز في جنات الله في الحياة الاخرى والترهيب عن الاعمال الغير صالحة لان جزاءها العذاب الشديد وتتم هـــذه السهرة بدعاء ترحما على الميت ويستمر الحداد بعد ذلك الى غاية حدود اربعين يوم من اعلان الوفاة .

في ليلة الاربعين تقام سهرة دينية يطعم فيها الناس من اقرباء الميـــت الجيران وبعض المساكين الفقراء وتكرر السهرة الدينية على غرار سهرة "السبوع" بالتذكير برعب الاخرة اذا لم يحضر الانسان رحيلـــه الـــى العالم الاخر وبعد ذلك يرفع الحداد حتى يعود اقرباء الميت الى الحيـــاة العادية الذهاب الى الحمام قصد الاغتسال وتبديـــل اللباس والى غيـــر ذلك من مستلزمـــات الحياة اليومية .

أ ـ ظاهرة الحداد في الثقافات الاخرى :

يبدأ الحداد منذ اعلان وفاة الشخص الى مدة معينة تتحدد زمنيا حسب كل ثقافة وكل تصور للموت عند هذا الشعب او ذاك بهاته الحضارة او تلك . فالمهم في الحداد هو الانتقال بالجثة من اللين الى الصلب من حالة البشرة الفاسدة الزائلة الى الصلب اكان عظما او رمادا . وتوضح هذه البنية المتعارضة لين صلب كل الاهداف الحداد وهو انتقال الميت من عالم الاحياء الى العالم الاخر عالم الاموات للاجداد والارواح وما الى ذلك وتندرج هذه البنية في اطار البنية الكلية الموت ولادة ثانية .

فالبشرة هي الوحيدة المائتة الزائلة الموت لاتمس الا هذا اللين البشرة واما الدائم الوجود الذى لاتمسه الموت فهو الصلب المتبقي من الجثة العظم او الرماد . العظم بالنسبة للشعوب التي تدفن موتاها او الممارسة لاكل لحوم البشر (١) او القائمة بتجفيف الجثة حتى لا يبقى منها الا العظم . فالحضارات الزراعية كلها او معظمها تمارس الدفن حيث تحفر قبرا للميت ليوارى فيه ، فمجموع الشعوب التي تدين بالديانة الكتابية تمارس هذه العادة المسيحيون (١) يهود ومسلمون .

وبالتالي فان مدة الحداد مرتبطة في معظم ثقافات العالم بمدة رمزية لتحول الجثة وتفسخها باتجاه بقاء العظم او بالاحرى بتحول الجثة في البشرة الزائلة الى مادة صلبة

---

١ ـ C.F Edgar Morin, L'homme et la mort, Op.cit. et Louis Vincent Thomas, Les adqures de la biologie a l'anthropologie, ed. complexe, Bruxelles, 1981

الباحثون في علم الاثار وجدوا هياكل معراة من البشرة هذا يدفعنا الى التفكير في وجود هذه الممارسة بيننا شعوبا لمغرب ما قبل التاريخ انظر هذا الموضوع

مثل من يعرضون الجثة الى الهواء مثل شعوب استراليا او قيانيا ومن يجمدونها مثل ماهو الحال عليه لدى اهالي الاسكا (وقد ذكر ذلك مورين ادغار) ومن يحرقون الجثث مثل بعض شعوب الهند والصين . فحداد الذين يمارسون الحرق او التجميد عن طريق الثلج فهولاء حدادهم اقصر مما هو عليه الحال لدى الذين يدفنون اويعرضون الجثة للهواء .وليس قصر او طول الحداد متزامنا بدقة مع السيرورة الطبيعية لتحول الجثة وتفسيخها (١) بل ان كل ثقافة تتحدد زمنيا مدة الحداد حسب مرجعيتها الثقافية فغالبا ماتستعمل الشعوب الممارسة للدفن مدة الاربعين يوم كمدة اقصى للحداد " تقريبا في كل مكان يمارس فيه الدفن تتزامن فيه مدة التفسخ مع مدة الحداد (...) اثناء الحداد فان الميت يكون بين حياتين ، مفزع ، مرعب ، حقود تعفنه معدى ،الارملة والاهل يعزلون ، يحكم عليهم بحياة وهيبة . منزلهم ولباسهم يحملان اشارة الطابو حيث يحرم لمسهم " .(٢)

في افريقيا وبالضبط عندشعب الباجيزو بأغندا الشرقية قبيلة اسمها " امبوراتو " تمارس الحداد على الطريقة التالية " عندما تموت الام او الاب يقول الابن الاكبر لاخوته (اوصيكم بالحيوانات خيرا) منذ ذلك يخل هو وزوجته في فترة انزواء (...) يعود بعد الدفن الى داره لكن لايدخل من باب القرية ولايخرج منه ، ليس بمقدوره المرور بحقل ترعى فيه الحيوانات الاليفة ، لايستطيع مخالطة الاخرين من بني قريته ،ليدخل في كلام معهم لايأكل معهم ولايشرب . تأتيه زوجته بكل ما يحتاج اليه حتى اولاده وان مازالوا يطيعونه يبتعدون عنه قليلا . واثناء ذلك يحرق بيت الفقيد. تدوم هذه العزلة من ثلاث الى خمس اسابيع وفي نهاية هذه الفترة الزوج والزوجة يقصان شعرهما . معلنين بذلك نهاية الانزواء (٣)

لدى غجر اسبانيا طريقتهم في الحداد يبكون يتقطعون ألما وحسرة على فقدان الميت يتقدم احد الشباب امام الميت ويضع بين يديه قطارة ثم يشير له انه قد تحمل كل ذنوبه فليذهب الى العالم الاخر مرتاحا (٤)

١ـ تايلندا تعرض الجثة الى النور ليأكلوا البشرة ،تاركين العظام حيث يحملها اهالي الميت للاحتفاظ بها انظر E.V.Thomas, Les societes devant La mort, In: Encyclopedie universelle VOL 11

٢ـ Edgar Morin, L'homme et la mort, OP.cit, P.157

٣ـ Y. Ramunoha. B.A, Adokonou, La mort dans l'aire Africaine OP.cit, P.88

٤ـ لافي الجوزه دورة الحياة عند الفجر ، مقال المذكور ، ص ٩١

أبورجين استراليا يخبرنا عنهم آلكين انهم لايرتاحوا منذ حدوث وفاة احد اقربائهم الا اذا انهوا تحقيقاتهم ليستدلوا على الجهلت التي تسببت في موت الفقيد . ولايرتاح بالهم الا عندما يقوموا بالانتقام له (١) حيث يقوم بعضهم بالتهام بشرة المتوفى (٢) لتوفير عناء انتظار تفسخ الجثة حتى يقوموا بوضع بقايا العظام في مكان آخر وعند ذلك ينتهي الحداد .

كل الآلام والاضرار الممكنة بوجهها الاحياء اقرباء الميت لانفسهم لقاء اتقاء انتقام الفقيد . نفس الشيء نلتمسه عبر نص يروى فيه مالينو فسكي واقعة وفاة احد الاعضاء المحترمين لعشائر التروبرياند " بعد ساعات من وفاة احد الرجال المعتبرين ،تمتلئ القرية برجال محلوقي الرأس ،واجساد مطلاة بسخام يصرخون بفزع لاتربطهم اى علاقة قرابة مع الميت ، لم يخسروا اى شيء فريق آخر يتظاهر من موقف من الصمت والهدوء انهم العشيرة التي ينتمي اليها الفقيد انهم في حداد (...) بعد اخراج الجثة من القبر يعاد دفنها بصفة نهائية (٣) السهرة الجنائزية تنتهي وينتشر الناس ، ولكن الارملة التي لم تفارق الجثة طيلة المدة التي سبقت دفنها لم تأكل ولم تشرب ،ولم تتوقف عن البكاء فالمحنة لم تنته بالنسبة لها بعد . تغلق على نفسها في قفص في بيتها تقيم فيها مدة اشهر عديدة مع تجنب المحرمات ليس الحق في مغادرة القفص ،لاتتكلم بصوت عال بل بالهمس فقط . لاتلمس الاكل بيدها وحتى الشراب بل تنتظر ان توتى اياها الى حد فمها ،تبقى في الظلام دون ضوء ولاهواء نقي تغطي بشرتها بسخام وسحم لايفارقها لمدة طويلة . محكوم عليها العبش في ظلام لاشهر عديدة في وسط من الاوساخ والروائح الكريهة في بيت ضيق جدا لبعض الناس واجب زيارتها احيانا للترويح عنها يدوم هذا كله من ستة اشهر الى عامين واهل الميت زوجها يراقبون ان كان الحداد مطبق على احسن مايرام وعندا قتراب نهاية هذه المدة يبدأ الانفراج ومعه تحسن تدريجي في ظروف الزوجة ماجبة الحداد وتمر في بطقس معين عن طريقة تستطيع الاكل لوحدها تخرج من قفصها تلبس لباسا ذو الوان زاهية ويكون لها بعد ذلك حتى الزواج ثانية " (٤)

١- A.P. ELKin, Les aborigenes australiens, op. cit, P. 406

٢- Ibidem.

٣- ان ممارسة الدفن الثاني لرفاة الميت نجدها عند العديد من الشعوب لدى ابورجين استراليا بعض شعب الصين وفائدتها هي ترك الجثة تتفسخ في الارض ثم تسحب العظام المتبقية صافية لوحدها لتدفن نهائيا .

- Wilhelm Reich, L'irruption de la morale sexuelle P.b.P, Paris, 1974, P. 90

والحداد قد يخرج عن نطاق الجماعة المصغرة العائلة العشيرة والقبيلة ليمس المجتمع الكبير نطاق الدولة مثلا .

" في جزر ساندويش لما يسمع الجمع بموت الملك يسرعون الى ارتكاب كل ما ينظر اليه على انه اجرام ،يحرقون ،يسرقون وينهبون ،يقتلون ،بينما تقوم النساء بالدعارة العلنية ،في غينيا عندما يصل الشعب خبر وفاة الملك " كل فرد يسرق اخاه " وتستمر السرقة حتى يعلن عن تعيين خليفة للملك المتوفي . في جزر الفيجي ،الاحداث فيها اكثر وضوح : موت الزعيم تعطي اشارة للنهب ،القبائل المواليه تغزو العاصمة وترتكب فيها كل انواع النهب والسطو على املاك الناس . ولتفادي كل هذا يخفي موت الملك ويبقى سرا ولما تأتي القبائل فتسأل عن موت الملك يكون الجواب على انه مات وتفسخت جثته . تنسحب بعد ذلك متحسرة ولكن بانضباط " (١)

ونلحظ هنا كيف ان شكل الحداد يتخذ اشكالا مختلفة في المعايين والسلوك الانساني حسب مكانة المتوفي ويؤثر هذا كذلك حتى في مدة الحداد (٢) . فالحداد هنا يتخذ شكل الفوضى الاجتماعية فالملك الذي كان رمز للنظام وتسيير شوون الحياة والفصل بين الناس قد توفي وكان ان لحقت المجتمع كل انواع الاعتداء على الناس ارزاقهم وانفسهم وحتى الخروقات ذات الطابع الاخلاقي وهذا برمز لما لحق المجتمع من موت وخراب سببها موت الملك لغاية تعيين خليفة يعوضه اويصبح موته سرا حتى اذا تفسخت الجثة اعلن عن موته وتكون عند ذلك كل ارادة لبث الفوضى دون فائدة .

ومثال آخر يورده روجي كايوت يخبرنا عن قبيلة هونقا المنتمية الى شعب البانتو الافريقي :

" لما يموت فرد عند التونق ،يعتبر هؤلاء ان النجاسة قد مست والديه منبع الحياة ، انها تضرب الرجال منيهم ،النساء في ما تفرزه مهابلهن اثنا . الحداد ومنذ احتضار الفقيد ، تقطع وتحرم كل العلاقات الجنسية على كل سكان القرية وتصبح تطهيرات ضرورية لرفع هذا الحظر على كل ما اصابته عدوى الموت : مون ، حدائق ، ارث ،والاهل الذين حفروا القبر . ولكن الطقس الكبير المحرر هو عملية الجماع الجنسي ذاتها ، الحفل اسمه " هلامبا نجاكا " (التطهر من لعنة الموت او (تطهير حوائج الميت) (...) عندما يأتي يوم الحفل ،يصطف الرجال والنساء كل على حدة ويتم

١- Roger Caillois, L'homme et le sacré, Gallimard, Paris, 1972, P147-148

٢- ارتبطت مدة الحداد رمزيا بتفسخ الجثة فانها من جهة اخرى ترتبط بمكانة الفرد الاجتماعية الحداد الرسمي عند وفاة الرئيس في الجزائر تتحدد دستوريا بخمسة واربعين يوما مثلا . ولكن تتحدد بعض المجتمعات بالايديولوجيا السياسية ومكانة الموت في المجتمع الاتحاد السوفياتي حددت بثلاثة ايام يوم وفاة برجنيف .

ويتم التحقق من ان الحظر الطقسي قد احترم ،واذا تبين ان احدهم قد اخترق المنع يكلف بتدشين الطقس او يكلف اقرب الاهل الى الميت اذ يكلف الانسان الاكثر نجاسة بهذه العملية . ينسحب هو وزوجته ويجامعها مع مراعاة عدم القذف داخل المهبل بل قبلا القذف ينسحب ليقذف خارجا تأخذ المرأة افرازها بيدها ومعه نطاف الزوج للـ لتطلي به سرتهما ثم ينسحبان بعد ذلك كل على طريق مخالف لدخول القرية وكل الازواج في القرية يتبعونهم بفعل نفس الشيء ليتطهرون بعد ذلك بالماء " (١)

كل هذه الامثلة بجميع اوجهها وفي شتى بقاع الارض وباختلاف ممارسيها تكشف عن ظاهرة واحدة تتبع الميت هذه الظاهرة هي التألم والانظام والتوتر الذي يصيب الاحياء . ان الحداد بهذه الطريقة هو اقواس تفتح في حياة الاحياء كما هو الحال في منطقة سعيدة حيث يمنع على المرأة وحسب تقاليد وتعاليم الاسلام ايضا ـ الزواج الا بعد فوات المدة وقدرها اربعة اشهر وعشرة ايام وهذا كذلك عنصر من عناصر الحداد .

ان حدوث الموت هو زمن للقطيعة والهدم القطيعة والهدم في دورة حياة الفرد والجماعة الموت فكل الامثلة التي ذكرناها تحمل هاجس تجاوز الموت والتفوق فالانسان المندمج في سيرورة بيولوجية تحتم موته وجد نفسه بقدرة يمتلكها وهو الوعي يعي هلاكه المحتوم . ولانه يجد نفسه دون سلاح ضدها فيتذكر الطقس والمعتقد ليتجاوزها ينتصر عليها في خياله لانه " ليس ضروريا ان اكون محكوم علي بالموت لكي اجد نفسي فجأة امامها لان موت الاخر ترجعني دائما الى موتي "(٢) وبناء على هذا الى فنائي يوما امام هذا الوعي المفضي الى القلق والفزع يبتدع الانسان فكرة تجاوز الموت بتصور حياة اخرى في عالم اخر يجهله لكن محدد المعالم انه عالم الله جنة او نار او عالم الاجداد وعالم الارواح . فتفسخ الجثة الباعث لفزع نرجسي "(٣) حيث يرى الانسان مصير كيانه الايل الى اللاشيء الى العدم عند ذلك يبدأ اللاوعي في العمل اللاوعي الذي يتذكر للموت "(٤) ويصبح بالتالي المحفز على تخيل الخلود وبما ان الموت تتجاوز الوعي والممارسة الانسانيين فانه يتغلب عليها رمزيا عن طريق طقس الحداد فقلق الموت يرافقه قلق الاحساس بالذنب والذي يجد اصله في الرغبة اللاواعية

١ـ Roger caillois, L'homme et le sacré, o.p.cit, P184

٢ـ Louis vincent Thomas, mort et pouvoir, o.p.cit, P97

٣ـ في الصفحة 46 نفسر ذلك ؛ اذ يقول الكاتب ان " الخوف من الجثة يتأسس على التحير والتخوف من تعفنها "

٤ـ Idem, P34

اللاواعيـــة في موت الفقيد " لكن الخوف من الموت ، او الاموات بصفتهـا مرتبطة بشخصيات الافراد جذورها موجودة الا في الخيال :
انها الخوف من انتقام ـ عقاب ـ الذي لايلقى تفسيره الا من خلال احساس بالذنـــب بالذنب متخفي لكن ماذا نحن مذنبون
اولا،نحن نعرف انه على مستوى اللاوعي يكفي ان يموت الاخر حتى نحس باننـــا رغبنا في موته " (١)

ولكن الانتقـام من الاحيـاء والذي هو شعور اهل الفقيد ومن حولـه تزكيـة فكرة ان روحه لازال لمدة معينـة لم يفارق عالم الاحياء. وهنـــا تكمن خطورتـــه ،فما دامت البشرة لينـة وجدت هذه الروح موطن لسكناهـــا لكن بفعل ليونـة هذا الموطن تبقى حرة طليقـــة .فما دامت هـــذه البشرة وكل العناصر اللينـة من الجسد لم تختـــف يبقـــى هذا الفـــزع ماثـلا وشبـح الميت باقيا. وعند تفـــسخ البشرة اوبقاء الرمـاد عند حرقهـا، فان الروح تجد موطنـــا آخر صلبا (٢) تبقى حبيســة فيـــه لان عالم الارواح يسكن الصلـب من هذا الكون الصخر والحجر انه موطنه الدائم لان حقيقـة الكون فيما هو صلب، فيما هو دائم. فالروح التي تفارق اخر موطن لهـــا في مخيلـــة سكـــان منطقـة سعيدة والذي هو كما ذكرنا انفـــا الكبـــد موطن الاحاسيـس والشعور ، تقطـع آخر صلـــة بالاحيـاء لتنحبس في جوهر الكون العنصر الصلب وعند ذلك يسقـــط التوتر، واثناء الحداد كـل شئ في محيط الميت يصبح ناجـــاء، اصابته عدوى الموت حيث يمتنع الناس في منطقـة سعيـــدة عن اكل الطعام المحضر بمناسبـــة الموت.

وعند بلـوغ الاربعيـن يحضر اهل الميت طعامهـــم بانفسهـــم يستحمون ويلبســون ويدخلـــون الحياة العامـة وهذا هو جـــوهر الحداد كونيا .

١ـ Louis vincent Thomas, op. cit, P. 45

٢ـ
اذ يقول (العظم او محوقه هما في اخر تحليل منتوجات روحانية ،والتي عن طريق صلابتها ومقاومتها للتحليم هي مقاومة التحطيم الملازمة للقرين عظام او نقشات هم عماد عبادة الاموات هم الوسطاء السحريين نقاط تعلق وثبات القرين " في Edgar Morin, L'homme et La mort, op. cit, P 157

٢ـ التحنيب لطم الخدود وتشويه بعض اماكن الجسد ملازمة للحداد كونيا :
والحقيقة فان هذه الممارسة ليست متوقفة على اهالي منطقة سعيدة اذ تمارس في معظم مناطق البلاد(١) وحتى في مجتمعات ابعد وثقافات مختلفة عن ثقافتنا .

حيث يورد احد علماء الانثربولوجية الاسترالي ا . ب آلكين في دراسته حول اهالي الابورجين باستراليا مثالا على هذه الممارسات .
"تجتمع النساء حول الميت مطأطآت الرأس على اعضاء الهزيلة (يقصد الميت) ، تولولن صارخات ،تمزقن خدودهن ، الجبين والانف باظفارهن حتى يسيل الدم شيئا فشيئا من الخدوش والقريبات تئرن " يا ابني (اخي) سوف لن اراك ابدا . والكل يصرخن منددات بفعل الساحر الذى تسبب في موت قريبهم وكان هذا يشجع الرجال للانتقام له ""(٢)

ويخبرنا ادغار مورين عن الوارا مونغا الاستراليون ان " رجالهم ونساءهم يجرون نحو مكان الميت يندبون ويلطمون انفسهم بشدة "(٣)

ولكن عدم وجود ممارسات تشبه هذه التي ذكرنا في ثقافات اخرى يعني انها لاتبالي بحدوث الموت اما هذه الممارسة كونية وتتخذ اشكالا اخرى .

فكما رأينا فان هذه الممارسة تستهدف تشويه الجسد فاننا في ثقافات اخرى نلاحظ سلوكات هدفها فعلا تشويه الجسد عند موت الفقيد وتحويله عن حالته الطبيعية .

في كتابه التحليل النفسي والانثربولوجيا يذكر غزة رحيم ممارسة تبدو غريبة ولكنه تدخل في سياق تشويه جسد الاحياء تحسرا على الميت حيث لاحظ عند احدى القبائل الاسترالية مايلي:

" توضع الجثة على شجرة حيث تأتي ام الميت وقريباته (امه خالاته وعماته) تحت الشجرة لتسقط عليهن المادة الدهنية المنبثقة التي تفرزها الجثة (٤)

جان زيغلر في دراسته لظاهرة الموت عند الاهالي السود في البرازيل يخبرنا عن جنازة لاحد الاعضاء المبجلين المحترمين "حيث تفتح الابواب ليدخل جميع غفير من الناس الجثة هامدة وقد فارقتها الحياة جميع من الناس يدخلون في حالة من الاغماء " (٥)

١ـ اخبار عن منطقة القبائل تفيد باقبال النساء على البكاء ولكن في صمت، نفس الشيء عن سكان منطقة مزاب انظر في هذا الموضوع :

٣ـ A.P. Elkin, Les aborigenes australiens, op. cit, P. 384

٣ـ Edgar Morin, L'homme et la mort, op. cit, P. 36.

٤ـ Geza Roheim, Antropologie et psychanalyse, Gallimard Paris, 1985, 159

٥ـ Ibid, P 154

في حالة من الاغماء"(١). وهذه عادة جلبها هناك سود افريقيا عندما كانوا عرضة للنخاسة ولازالوا يمارسون هذا التقليد في البرازيل. ويشبه الحد كبير الجذب الذي ذكرناه آنفا في طقوس منطقة سعيدة. اذ تدخل قريبة (امه اخته او زوجته) في حالة اغماء لاجراء وقع الطبول التي تدقها (الفقيرات ترقص وترقص الى حد الدخول في حالة ثانية يسمى محليا "بالتوبة" على اثر ذلك تغطى بقماش ابيض وكأنها ميت ملقى على الارض. في بلاد الاشكا يحس السكان بأجسادهم مرتخية (...) ثم اليوم الذي يلي يوم الوفاة فانهم يحسون انهم اكثر صلابة وفي اليوم الثالث يحسون بالعودة الى حالتهم الطبيعية لان الجثة اصبحت جامدة (مثلجة)"(٢)

وفي نفس الكتاب المشار اليه انفا اي كتاب التحليل النفسي والانثربولوجية لغزة رحيم يتكلم عن اقوام استرالية اخرى تطلي "اجسادها عند الحداد بمادة سوداء وعند الجثة جراء التعفن توخز بواسطة مسط حيث تفرز سائلا تطلى به اجسادهم بعد ذلك"

كل الامثلة التي اوردناها تعبر عن ثابت واحد وهو محاكاة الموت في منطقة سعيدة اضافة الى لطم الوجه "والتوبة" او الانجذاب فان النساء يمتنعن عن الغسيل (٣) وشتى ملذات الحياة اثناء الحداد الامتناع عن الجماع الجنسي عن التجميل. انه تشبه بالجثة للانتقال بالجسد من حالة الحياة العادية الى حالة تحمل رموز الموت. اليس هذا تكثير رمزي عن ذنوب الاحياء لرغبة غير واعية في قتل الميت ان كل هذه الممارسات تجد تفسيرها في الاحساس بالذنب تجاه الميت كما ذهب اليه فرويد ان محاكاة الموت بهذه الطريقة هو تبيان الحالة من التأثر والتحسر من وفاة الميت حتى لاتظن روحه انهم فرحوا لذلك وبالتالي رغبوا في موته وذلك حتى يتقوا شره. ممارسة كونية حافزها كوني وهو الطبيعة الانسانية.

١- Jean Ziepler, Les vivants et la mort, op. cit. p. 17
- Edgar Morin, L'homme et la mort, op. cit, P. 37.

٢- لاحظ ان في هذه الحالة يحفظ هؤلاء جثث موتاهم في الثلج حتى تعفنها

٣- في اسكوتلندا ايرلندا انجلترا يمتنع عجزهم عن تمشيط الرأس الاستحمام والتزين لفترة طويلة اقرأ بهذا الصدد مقال: دورة الحياة عند العجز مجهول المولف، ترجمة: لطفي الخوري، في مجلة التراث الشعبي، العدد ٤ بغداد، ١٩٧٨.

رمزية العدد اربعين المرتبط بمدة الحداد

- يرمز عدد الاربعين للتوازن :

لقد ذكرنا آنفا ان مدة الحداد تدوم اربعين يوما تبقى فيها "روح" الميت تجول في عالم الاحياء ويبقى الاحياء يعيشون طيلة هذه المدة في توتر مخافة ان تسيء اليهم روح الفقيد . ويسقط هذا التوتر عند مرور اربعين يوم عن تاريخ الوفاة . ويقال لن في نهاية الاربعين يوم ينفجر كبد الميت الذي هو موطن الاحاسيس (١) " الكبدة تتطرطق " وعند انفجار الكبد تنقطع اخر صلة تربط الميت بالاحياء حيث تنتقل روحه فعلا الى العالم الاخر وعند ذلك كل محرمات الحداد تباح حيث يدخل اهل الميت الى الحياة العامة بعد الاقصاء مدة اربعين يوم ، ولكن لماذا الاربعين وليس الشهر او السنة او مدة اخرى .

ولاستطيع ان نعرف ذلك الا عن طريق البحث في رمزية العدد اربعين.

التوراة والقرآن يقولان عن مرور الاربعين (٢) عاما قبل دخول اليهود الارض الموعودة امتحان وتوتر ساد عند جماعة اليهود الاولى قبل بلوغ ارض الحليب والعسل .

يتكلم الاطباء عزا لاربعين كعملية لعزل المصابين بالوباء عن الاصحاء حتى لايصيبهم اذى المرض . ان العدد الاربعون هو اربعة اضعاف هو اربعة اضعاف العشرة و" الرمز الارقى في الاسلام . الكعبة هي كتلة مربعة المعبرة عن العدد اربعة الذي هو رمز الاستقرار . المسلم يستطيع ان ينشيء عائلته باربع ازواج محتجبة عن الاعين المنزل العربي مسقر على نفس المخطط كلة ، مربع متعلق على الخارج المساجد لها في معظم الاحيان اربع صوامع ، واحدة في كل زاوية " (٣) .

١- C.F. MALEK CHEBEL, Le corps dans les traditions Maghrebines, P.U.F Paris, 1983.

٢- عندما رفض قومه دخول الارض المقدسة توجه موسى الى الله متضرعا " قال ربي لا املك الا نفسي واخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين قال فانها محرمة عليكم اربعين سنة يهيمون في الارض فلا تأس على القوم الفاسقين " سورة المائدة (قرآن كريم)

٣- Phillipe Serinse, Le symbolisme dans L'art, la relipion et dans La vie de tout les Jours, OP Cit, P. 391

الاســـلام كدين يرتكز على خمس قواعد اهمها اربعة والخامسة لمـــن استطاع والاربعة فرائض على المسلم . رسول الله (ص) لم يخرج لدعـــوة الناس الا بعد اربعين سنـــة من عمره (١) .

والاعتقـــاد الشعبي يـرى في سنا الاربعين سنا الحكمة والرشد البالـغ مثل عربي يقول :" انعاشرت قوما اربعين فاحلب في اناءهم " بمعنى ان الاربعين يوما اواعواما ماهي الا مدة للامتحان والتجريب والتي بعـــد انقضاءها فان الفرد يجازى بالدخول في مكانة اجتماعية جديدة . واذن فان رمز الاربعين هو الامتحان والتوتر فالاثنان متلازمان . فالمجتمـــع اثناء الحداد يدخل اقرباء الميت في امتحان وكذلك تمر الاربعين يومـــا في توتر باعتبار الحالة النفسية لاقرباء الميت ومن جهة اخرى فان عدد الاربعين الذى المضاعف لعشرة × ٤ واللذى قلنا انه رمز الاستقـــرار وسقـوط التوتر فان زوال الاربعين يوما هو فعلا استقرار اقرباء الميـت حيث يعاد ادماجهم في العلاقات والحياة الاجتماعية العادية ويتستقـرون نفسيا حيث يسقـط التوتر النفسي .

وتتجلى بنية طقس الحداد على الشكل التالي:

حياة عادية مع قريب لم يتوف بعد	الموت ـ الحداد	عودة التوازن دون القريب المتوفى
تـوازن ـ أ ـ	توتـــر	توازن ـ ب ـ

١ـ يقول جان جاك روسو " ان سنا الاربعين هو السن الذى تكتمل فيه كل صفات الانسان الموهل لخوض قيادة سياسية على مستوى الدولة ص ١٩٤ في:
-Dictionnaire des Symboles, op. cit, P. 194

الفرع الرابع

(ب) مأوى الأموات ()

المقبرة :

انها المكان الاخير الذي يدفن فيه الميت وتقع في الغالب على مقربة من المدينة (١) او القرية وفي الارياف فانها توجد عادة في اماكن مرتفعة مشرفة على الحقول . ولاتوجد مقبرة في منطقة سعيدة الا وقد اقيمت حول ضريح والي يقدسه الاهالي .

المقبرة في هذه المنطقة ،لاتأخذ شكلا خصوصيا في هندستها وموقعها نجد في الاحيان وخاصة في المقابر الريفية، الضريح وتحيط به قبور بسيطة قليلا ما نشاهد احدها منمق او مجصص . قبور هي عبارة عن تربة متراكمة، وفي بعض الاحيان ركام من التربة، تحاط بكتل صخرية وفي بعض المقابر وخاصة في الجهة الشرقية من المدينة وعلى بعد عشرات الكلومترات. نجد قبورا وهي عبارة عن ركام من الحجارة ،وقد تواضعت بشكل مستوى لاتخضع القبور الى اي نظام في تموضعها . فهي مترامية مبعثرة وخاصة في القبور الريفية اما المقبرة في ناحية المدينة ،فتخضع لنوع من الترتيب ربما لكون الفضاء المخصص للدفن محدود. لذا وجب الترتيب قصد عقلنة فضاء الدفن واستغلاله احسن استغلال والقبور محاطة في جوانبها بخضرة الحشيش ومختلف الاعشاب التي تغرس من قبل اهالي الموتى على قبورهم . وهذا الوجود البسيط للقبر قد يخضع - وهكذا اكيد - لفكرة تساوي الاموات امام الله. حيث يحمل الخيال الاسلامي، فكرة انعدام اعتبارات الدنيا عند الموت. فقبر الغني لايختلف عن قبر الفقير .

١- ملاحظ في مدينة تلمسان وجود مقبرة في وسط حضري بين قرية العباد وافخم فندق بالمدينة " الزيانين ".

فـــلا قبـــر عال او مرتفـــع عن الاخر ٠

ومن النادر ان نجد مقبرة محاطة بسور اوسياج فعالم الاموات لايختلف عن عالم الاحياء حتى يعزلوا عنهم بالاســـوار ٠ المقابـــر في منطقـــة سعيدة تغطيـــك صورة حديقـــة بأزهارها ونباتاتها العطـــرة نعناع " و " شيبـــة "

وكلانسان يمر قرب المقبـرة او يزورهـا يسلم على الاموات ساكينها لاحظ جان سرفبيه نفس الظاهرة في منطقـة القبائل حيث ذكرها في كتابـه ابواب السنة ،فالموت مجتمعـة حاضرة في الحياة وليست قـط موضوعـا محرما فها هي الاجسر لاستئنـاف حياة اخرى ٠ فالميت بعد فتـــرة وفاتـه يصبـح مصدرا للحياة ومصدرا ليس كما هوالحال في الغرب (١) فان الميت يعزل عن الاحياء ٠ فالمقبرة محترمة من قبل كـل المـارة عليها فبالاضافـة الى التحيـة فان اى كـلام منافي للاخـلاق ممنـوع محظـور ويتفادى النـاس بذلك اى مظهر للترف في قـرب المقبـرة (٢) ٠

١ـ المقابر المسيحية في المنطقة عاليـة اسوارها لاترى منها الا قيـم الاضرحة العالية جدا ٠

٢ـ ملاحظ عند المرور بالمقبرة كل مظهر غنائي اوكلام تافه يمتنـع عنه صاحبه اويمنع عنه ٠

كل الشعوب التي تمارس الدفن تضع جثث موتاها في حفرة في الارض يرد عليها التراب ويكون ذلك آخر مأوى للميت. واغلب الشعـــوب في العالم تتعامل مع الجثة على هذه الطريقة او الدفن في القبـــر هو كذلك احدى الطرق الناجعة لتفادي تعفن الجثة بمرأى من الناس انـــه تفسخ مخفي للجثة.

والقبور نوعان في المنطقة الشق واللحد. فالشق هو حفرة عاليـة عادية مستطيلـة يحفر في وسطها جسر بحجم الجثـة حيث تعلق بصفائـح من الاسمنت ويحكم الاغلاق بالتراب المبلل بين تلك الصفائح حتى لايدرك التراب الجثة المدفونة واللحد يشبه الشق ولكن حفر في جانب الحيـز حفرة توارى فيها الجثة ولكن طبيعة الاراضي بمنطقة سعيدة التي غالبهـا هشـة لاتسمح باستعمال اللحد فيفضل الاهالي بذلك حفـــر الشق فقط.

ولكن الشيء الملفت للانتباه هو هذا التفريق بين الجنسين فاذا كان الميت ذكرا فان الشهادتان توضعان من جهة الرجلين والرأس بالتوازي واذا كان الدفين امراة فان وضع الشهادتين يختلف حيث ان الشهادة الموضوعـــة عند رجلي المتوفية تتخذ وضعا شاقوليا بالنسبة لذلك الموضوعـــة على جهـة الرأس (١)

الرجـــل	المـــرأة
وضع الشهادتين متوازي	وضع شهادة الرجل شاقولية
الرأس — الرجلين	الرأس — الرجلين

١- Même phenomene observé par Henri Lhote. chez Les Touaregs du Hoggar. cf: Henri Lhote, Armand colin, Paris, 1984, P.190.

حولنا معرفة سبب هذا التفريق فوجدناه مقتصرا على قبور الاباث حيث تنعدم الكتابة لتمييز الجنسين بالاسماء فيضطر الناس الى هذا الاجراء اما بالنسبة للمقابر القريبة من المدينة حيث تستعمل الكتابة للتفريق بين الجنسين فان الشهادات متوازية في وضعها اكان بالنسبة للمرأة ام للرجل . حيث تكتب الاسماء بالدهن اذا كان الشهادة صخرة عادية مصطحة او تنحتت فنية على شهادات مزخرفة في بعض الاحيان وهذا التقليد في التمييز بين الجنسين في وضع الشهادات قد يكون نمارق في القدم على الارجح .

بعض المقابر القريبة جدا من المدينة تدعى مقبرة سيدي احمد الزهار نسبة الى الولي الذي اقيمت حول ضريحه وهي من اقدم المقابر المحيطة بمدينة سعيدة ، بالقرب من مدخلها بني مسجد يحيط بالمقبرة ومن جهة واحدة سور من حجر اما الجزء الخلفي فهو حماية طبيعية اذ هو عبارة عن الجبل الكبير الذي يحيط بالمدينة من جزءها الجنوبي .

القبور ليست متجانسة في اشكالها والملاحظ في هذه المقبرة هو وجود تجمعات للقبور العائلية محاطة هذه باسوار من حجر ونكم هي كثيرة وموجود الا في هذه المقبرة دون سواها . وهذه الظاهرة ليست من صميم ثقافة المنطقة وقد تكون نتيجة تأثير اوربي (١) اذ ان تاريخ جمع هذه القبور العائلية يعود الى بداية القرن اى ابان التواجد الفرنسي بالبلاد اضافة الى ذلك توجد قبور لمسلمين وقد اقيمت على الطريقة الاوربية لقد صادفنا في نفس المقبرة قبر لموظف مسلم قديم عمل في الادارة الفرنسية متزوج من امرأة فرنسية هذه الاخيرة التي اقامت لزوجها قبرا متميزا عن باقي قبور المسلمين اذ تحيط بالقبر باحة من الآجر ، احيطت بسياج ويتوسط هذه الباحة قبر الزوج المتوفى في مدخلها سلم من اربع درجات والقبر مبني على الطريقة الاوربية حيث خلى من الشهادتين .

١ـ المقابر الاوربية معروفة بوجود اضرحة عائلية تجمع فيها اموات العائلة والمقابر المسيحية عديدة في المنطقة اكثر عشرة اضافة الى مقبرة اليهود واقعة بتخوم المدينة .

وفي المقبرة قبور اخرى بسيطة اختفت كونها مغطاة بالتراب فقط ولم تبقى منها الا الشهادتان وذلك بفعل الزمن لانها قبور قديمة جدا . وقبور اخرى كتبت اسفل* احدها بالفرنسية وكتبت في احدى القبور عبارة غريبة عن الثقافة المحلية والاسلامية عامة وتبدو مستمدة من تقاليد اوربية وها هي العبارة المكتوبة : قبر زوجتي كذا ... توفيت يوم ١٩٦٠/٩/٢٠ عن عمر يناهز خمسة عشرة سنة حتا مل . ملاكان في السماء (١) والعبارة الاخيرة " ملاكان في السماء " مكتوبة كذلك على بعض القبور الاخرى لكننا نشك في وجودها لا في الثقافة المحلية ولا الاسلامية حتى انها نتاج تأثير تقاليد جنائزية اوربية اذ لايوجد قبر يعد تاريخ الاستقلال يحمل مثل هذه العبارات حيث تظهر اعادة تشكيل القبر على التقاليد المحلية والاسلامية وفي قبور قديمة نجد اصالة التقاليد قائمة فشهادات القبر منحوتة على شكل البوابة الاسلامية ونقشت عليها اسماء الموتى وبعض الاشعار الصوفية نذكر منها البيت التالي :

يا نفسي لاتقنطي من زلة عظمت
ان الكبائر في الغفران كاللمم

ومضمونه طمئنة النفس التي اصابها هول الموت* يوم الحساب على ان الله غفور رحيم وان كبرت اثامها فانها بمغفرة الله تصبح لمما اي ذنوبا صغيرة ويتوسط المقبرة ضريح لولي (سيدي احمد الزهار) ليس له قبة بطلي بالازرق (٢)

مقبرة اخرى تقع غرب المدينة تبعدها بخمسة كلومترات قبورها معظمها بسيطة عبارة عن ركام من التراب عليه عمادتان المقبرة ضريح لولي يدعى سيد الحاج عبدالكريم وهو الضريح الاكبر واخر صغير وراءه يقول اهالي الريف انه ضريح ابنه وعلى بعد مايقرب من مئتا متر يوجد ضريح اخر متوسط تحيط به مقبرة .

مقبرة اخرى تبعد عن المدينة جنوبا بقرابة الخمس كلومترات . تعتبر المقبرة الاكثر استعمالا في دفن موتى المدينة والريف المحاذي لها يتوسط المقبرة ضريح للولي المنسوب اليه المقبرة ووراءه قبة صغيرة يدعى كذلك الاهالي انها مكان دفن فيه ابنه الصغير نستطيع ان نلاقي

١- "Ceci est La tombe de ma femme..... Morte Le: 20.09.60. a L'âge de 15 ½ enceinte. 2 anges au ciel"

٢- الملاحظ اثناء جمعنا للمعطيات الميدانية لم نجد اي مقبرة خالية من وجود ولي حتى وان كان ضريحه بسيطا .

نستطيع ان نلاقي ظواهر مشتركة بين هذه القبور والمقابر في معاملة الاحياء لموتاهم في اخر مثواهم .

الشيء الملفت للانتباه، هو ان القبر بصفة عامة، يكون مكانا لغرس ازهى وابهى الاعشاب الخضراء والازهار، وخاصة النعناع ونوع من النباتات العطرة والمسمى محليا (بالشيبة) ذات الرائحة الطيبة ويحرص الناس على حماية هذه الاعشاب ورعايتها. بقيها والسهر عليها متى اتيحت لهم فرصة زيارة موتاهم. ويقوم اطفال صغار انتهازا لهذه الفرصة، ببيع كميات من الماء لزائري القبور يسقون بها قبور موتاهم. ويرفض الناس استعمال هذه النباتات العطرة لان برأيهم تحمل الموت بما انها انبتت على قبور الاموات وكثيرا ما نجد على القبور اواني معدنية وزجاجات مكسرة احيانا. واحيانا قارورات بلاستيكية، افرغ محتواها من الماء على القبر مسبقا على بعض القبور نجد اصداف بحرية وعلب من الطلاء بعد ان دهن بها جزء من القبر وخاصة الشهادات واحيانا نجد اثار الرش للطلاء بمختلف الالوان وفي بعض القبور وخاصة منها التي دفن فيها الاطفال، وجدنا عقدا من الطلسمات تتوسطها قوقعة تدعى " الودعة ". وتقاليد المنطقة تحرص على وضع مثل هذه الطلسمات على رقاب الاطفال لحمايتهم من المرض واطالة الاعمار.

ـ القبر ومستلزماته وملحقاته بين المحلي والكوني :

ان التصور الاول للموت والذي مفاده ان الميت يموت ويبقى قرينه حيا ، حدد ممارسات خاصة ازاء الميت عند دفنه حيث يصطحب مع الميت مون واعطيات كزاد يستعمله في رحيله الى العالم الاخر ، لذا كان يدفن الانسان القديم فيما قبل التاريخ ومما لاشك فيه حتى في الحقب الاولى من التاريخ ، اواني اختزن فيها زاده وقربه اسلحته واعطيات اخرى من حيوانات اليفة كباش كلاب واحصنة حيث وجدت هياكل لهذه الحيوانات قرب هياكل انسانية مدفونة (١).

لقد قام احد الباحثين جان كلود موسو في اطار الدراسات التي قام بها في مركز الابحاث الانثربولوجية (C.R.A.P.E) حول الاواني الفخارية والاشياء الملقية الموجودة في الاضرحة الريفية في القبائل يقول في كتابه الذي توج هذه الدراسة ،
" عن الفخاريات الصغيرة الموضوعة في الاضرحة فان شكلها الاولي ليس له اهمية فانها تأخذ بشكل مصابيح زيتية وحاملات شموع اومجامر للبخور (٢) .

وفي نفس الدراسة يلاحظ الباحث وجود قراميد حمراء وضعت في هذه الاضرحة الريفية واواني من مختلف الاشكال اما عن الشكل الذي يتكلم عنه الباحث وهو الفخاريات الصغيرة على شكل مصابيح وحاملات شموع فانا نشك في ذلك بل نؤكد اهميتها ، ونعتبرها تحديا رمزيا للموت نور الحياة في مقابل ظلام الموت .

وبناء على هذا نستطيع القول بان دخول الديانات الكتابية والثورة التي احدثتها في تصور الانسان للموت وخاصة تأثيرات الاسلام في مجتمعنا هذا الدين الذي يحرم اي شيء مما تملك الميت في حياته بان يدفن معه في القبر سوى لفافات كفنه ، كل اشياء الزينة ذهبا وفضة تنزع من الميت قبل موته ، ان هذا التحريم الجازم كان من نتائجه ان الاشياء التي كانت تدفن مع الميت اصبحت توضع على القبر لان الاسلام الرسمي لم يترسخ بكل مفاهيمه المجردة في العقلية الشعبية الا شكليا ، بينما بقيت المعتقدات القديمة قوية وراسخة في الممارسات اليومية ليس على مستوى موقف الانسان من الموت وحسب بل حتى في رؤيته للعالم .

١ـ C.F. Gabriel Camps, Aux origines de la Berberie, Op.cit, P.507
ـ Jean claude Musso, Depots rituels des sanctuaires ruraux de la grande Kabylie, C.R.A.PE, Alger. 1971, P.97

والملفت إينا للانتباه ان الجهة الغربية من المنطقة وبالضبط في الطريق المودي الى مدينة سيدى بلعباس تتناثر فيها مقابر ذات قبور بسيطة في الشكل مسنمة ومكدسة عليها حجارة متراتبة على جوانبها بشكل منتظم تشبه الى ابعد حد " البازينات " التي اكتشفها علماء الآثار في الجزائر والتي لها شكل دائري وتختلف عنها الا من حيث هي مستطيلة وموضوع على طرفي القبر الشهادتان على طريق تعاليم الاسلام في شكل القبر ونحن نظن ان طريقة بناء القبر هذه بالحجارة بقيت في اوساط الريف منذ حقب ما قبل الاسلام حيث يحددها الجولي بين العصر الحجري الجديد والعصر ما قبل اسلامي (١) ويوحي شكلها غير المنمق والذى لاجتهاد معمارى يسمه انها اما من العصر الحجري الحجرى الجديد اوقريبة منه . ويذكر جولي كذلك بان القبور بالالس التلي والتي قد اكتشفها .

" في نواحي سبدو ،فرندة وسعيدة هي غالب الاحيان عبارة عن ركام من الحجارة والتي لايميزها ،احيانا ، سوى ابعادها " (٢)

ولكننا قمنا بالتحقيق حول خبر وجود اثار حضارة قديمة في هضبة "تيدرناتين" على بعد ثلاث كيلومترات في المكان المعروف بسعيدة القديمة وقد عثرنا على هذه الركامات من الحجارة ،والتي يسميها علماء الآثار بالبازينات والتي تشبه الى حد معين القبر في الشكل ـ١ـ

وعين المانعة في الجهة الغربية من مدينة سعيدة على الجهة الجنوبية الغربية من هذه البلدة على جبل آيت وجدت اثار لمثل هذه القبور (٣) مما يوحي لنا ان القبر في الشكل ـ٢ـ والذى وجدناه في مقابر داود ووادى سفيون على الطريق المودى سيدى بلعباس يعود شكل بناء الى عصور ما قبل اسلامية الشيء الذى تغير هو وضع الجثة في القديم كانت الجثة توضع على شكل وضعية الجنين مما ينعكس على الشكل الدائري للقبر بينما (انظر كتاب قبر اثيل كامبس ـ *Aux origines de La Berberie*)

بينما يوحي الاسلام بدفن الميت متمددا على طول قامته اضافة الى التهادتين من جهة الرأس والاقدام .

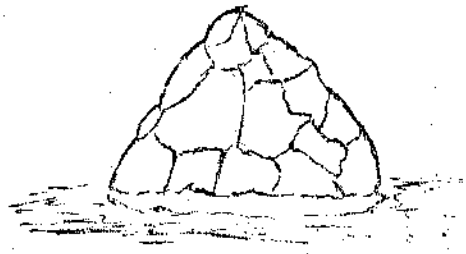

الشكل ـ١ـ

الشكل ـ٢ـ

١ـ A. Joly "Repartitions et caracteres des vestiges anciens dans L'Atlas Tellien (ouest oranais) et dans les steppes oranaise et Algeriennes" IN Revue Africaine v. 53_1903 P. 07

٢ـ Ibid, P. 08

٣ـ Source: "Saida historique" polycopiés édité par La Wilaya de Saida_Direction de La promotion de La jeunesse.

- شجـــرة الكـــون الدائمـــة الحضـور :

معظم القبور في مقابر منطقة سعيدة ،مغروس بجانبها وفي معظـــم الاحيان عند رأس الميت ، شجرة . وفي الغالب صنوبر اوعرعار . وهـــذه في الحقيقـــة ظاهرة عامة لكل مقابر الجزائر . كما ان حضور شجرة العرعار في مقابر اليهود والنصارى ،تلفت الانتباه من حيث ان هذه الظاهرة مشتركة بين هؤلاء وسكان الجزائر مما يدفعنا عن البحث عنها في الثقافات الاخرى وما تمثلـه من صورة في رمزية الشعوب قاطنـــة .

ان البحث في رمزيتها في الثقافات الاخرى يعطينا توضيحا للحافـــز الثقافي الذي دفع الى توظيفها رمزيا . " شجرة رمزية " اخذت اشكالا فـــي حقب متعددة منذ اربعة الاف سنة على الاقل في بلاد الرافدين ، ومنـــذ اقل من ذلك في كل النواحي نواحي العالم تقريبا انها شجرة الحياة . كصغير الانسان ، للشجرة تنمو ارتفاعا ثم تبلغ طولها النهائي النسغ يتحرك في الشجرة كحال " الافرازات " في الجسم (...) الانسان يتأمـــل في الحياة وقوى الطبيعة امام الشجرة " (١)
فكثيرا ما نجد بطائق كبيرة معلقة هنا وهناك تمثل شجرة تتسلسل منـــذ جذورها السلالة المقدسة التي تتوسس عقيدة الله عقيدة الاسلام ،الذي يدمج انبياء ورسل بني اسرائيـــل حتى محمد صلى الله عليه وسلم خاتـــم النبيين رسالته خالدة امة خالدة لاتموت كحال الشجرة (٢)

في الشرق الاوســط والادنى ترمز الشجرة الى الخلود . كثيرا ما تظهر صورة " الشجرة منتصبة بين شخصين يتأملان فيها الى حد العبـــادة كما توجد صورة الشجرة متوسطة حيوانين متصارعين ،اسدين ،ثورين ، عنزتين او عفويتين (...) يحرسان شجرة الحياة ولبلوغها بغاية الحصول علـــى الخلود وجب الانتصار على العفريتين "(٣) . وبهذه الصورة فان شجرة الحياة تمثـــل الخلود وابدية الحياة التي هي مبتغى كل البشر .

١- Phillipe serinpe, Le symbolisme dans l'art..., OP.cit, P.222.

٢- في منهج معرفة الانساب الشعبية كل قبيلة تملك شجرة لسلالتها تستمد منها مكانتها الاجتماعية من حيث انها تدعى التجذر في سلالة الرســـول كما ان هذه الشجرة هي ترسيخ لضرورة الحفاظ على استمرارية اعضاء القبيلة او العرش (كلمة عرش تعني عرف الشجرة في اللغة الشعبية)

٣- Phillipe serinpe, OP. cit, P. 232.

اضافة الى رمزية الخلود التي تمثلها شجرة الحياة فانها كذلك تمثل قوة الطبيعة التي لاتتحطم وهذا ماجعل هذه شعوب تعتقد بان العالم والوجد كله متعلق بالشجرة الكونية . المسيحيون يختلفون بعيد الميلاد المسيح والذى يصادف نهاية كل سنة ويأتون بشجرة الصنوبر في بيوتهم يزينونها بالمصابيح الملونة تتويجا لسنة مضت واذانا لسنة جديدة مزدهرة سعيدة .

ويمكن تصوير حفل نهاية وبداية السنة على هذه الصورة الطقسية قبيل ان تدق ساعة الفصل ليلا بين استين الفارطة والقادمة تنطفأ الاضواء وتشتعل بعد ذلك اذانا لميلاد السنة الجديدة ويبدأ الحفل حول شجرة الكون . التي تمثل الميلاد المتجدد للحياة " والعام الجديد يحتفظ حتى اليوم برمزية الماضي الذى انتهى والبداية الجديدة " لحياة جديدة (١) في هذه الحالة تمثل شجرة الكون في العقل المسيحي بصورة التوالد والخلود واعادة الزمن وتكراره ابديا .

" اذن الشجرة هي رمز للطبيعة ، وحتى الكون ، شجرة الحياة كذلك هي محور الكون الذى يربط بين العالم تحت الارض . المناطق الكونية الثلاث ، السماء الارض وعالم تحت الارض يمر منها ويربط بينها المحور الكوني او محور العالم - شجرة الحياة في الحضارات الراقية هي رمز العالم ، لكن بالنسبة لوعي ديني قديم الشجرة هي الكون تكرره تلخصه بالاضافة الى انها ترمز له " (٢) .

فالعهد القديم مثلا في سفر التكوين يروى قصة آدم وحواء في الجنة ولكن يحذرهم انه مقابل ماسخر لهم في الجنة من نعم ومتاع من عمل واحد " واما ا شجرة الخير والشر فلاتأكل منها " . ولكن بجوارها كذلك كانت موجودة شجرة الحياة ولم تحرم هذه الشجرة " لكن الانسان المراد من جنات عدن لان شجرة الحياة موجودة هناك ولكنه بمكان بوسعه ان يستعيد الخلود بأكل ثمارها . ويشير فريزر الى افتراض بارع لتفسير وجود مثل هذه الشجرة على الاطلاق الى جوار شجرة المعرفة . يظهر الانسان في القصة الاصلية التي قصد بها تفسير فناءه وقد خلق غير فان وغير خالد ، وانما وهب له الخيار بين ثمار اى من الشجرتين ، واذ تطلله الحية يقوم باختيار شجرة المعرفة التي هي بالفعل شجرة الموت " (٣)

١- Mircea Eliade, Le mythe de l'eternel retour, Gallimard, Paris, 1969, P. 229

٢- Philippe Serinpe, Le symbolisme dans l'art, op. cit, P 232.

٣- جاك شورون ، الموت في الفكر الغربي ، مرجع سابق ص ٨٩ .

التي هي بالفعل شجرة الموت" . اذن تظهر [illegible] الشجرة بشكل انها رمز الحياة ولكن شجرة لاتظهر الا كعنصر يساهم في سقوط آدم من الجنة وتفقد كونها رمز للمعرفة كما يشير النص.

اما في القصة القرآنية لادم فلاتظهر الشجرة كعنصر اساسي في القصة بل تظهر الى كونها موضوع للمنع او للتحريم وتفقد كل رمزيتها وهذا لايعني انها غائبة ،رمزه في المخيال الاسلامي " التين والزيتون وطور السنين " (١) دلالة على رمزية الشجرة في الدوام وطول العمر اى اطالة الحياة . في سورة مريم . عندما اشتد المخاض بمريم ذهبت الى جذع النخلة(٢) وولدت السيد عيسى عندها وكان تمر النخل شفاء فالنخلة وثمرها يرمزان الى الصحة والحياة والخصوبة في بيئة صحراوية لاتعرف الا هذا النوع من الشجر . ويبقى لنا تفسيرا واحدا بالنسبة للقصة القرآنية لآدم فأكل التمرة كشف لهما سوءاتهما بمعنى انه هداهم الى وظيفة لم يكونا يقومان بها من قبل وهي الوظيفة الجنسية والحقيقة فان الشجرة التي اكلا منها هي شجرة الحياة والخصب فبعد الخلود الفردى الذى كانا يتمتعان به قرب الله في الجنة انتقالا عن طريق اكل ثمار الشجرة التي هي رمز لتوالد والخصب من خلد الهي ملهم من عند الله الى خلد للنوع يأتي عن طريق التناسل والتوالد (٣) وبهذه المأكلة كان الاكل من شجرة الحياة سبب في ميلاد الانسانية فاطبة (٤) . وتتخذ الشجرة كذلك في معظم الثقافات رمز مركز العالم والكون .

" المتغير الاكثر انتشارا لرمزية المركز هي شجرة الكون الموجودة في وسط الكون والتي تمتد كالمحور العوالم الثلاثة . الهود الهنود المنتمين الى ديانة فيدا ،الصين القديمة ، الاساطير الجرمانية وحتى الديانات البدائية تعرف باشكال مختلفة هذه الشجرة الكونية والتي تبدو تمتد جذورها الى جهنم والاغصان الى السماء ."(٥)

١- سورة التين - ١-٣ .

٢- يقول على ابن ابي طالب " اكرموا عمتكم النخلة فانها علقت من طين الذي خلق منه آدم ،وليس من الشجر شئ يلقح غيرها " وهذا دليل على قداسة النخلة عند العرب انها شجرة الحياة لديهم . ذكره ابن كثير في تفسير ، ج ٤ دار الاندلس بيروت ١٩٨١ ص ٤٥٠

٣- قصة شعبية تغني في الاوساط الشعبية وهي ذات اصل مغربي عنوانها (راشدة) قصة فتاة حملت من أكلت من ثمار شجرة مقدسة محط زيارة الناس تبركا بها وحين اكلها لثمارها حملت وانجبت طفلا .

٤- نقرأ في الصفحة ١٤٨-١٤٩ عندما اخرج ملتلا شجرة الحياة في " المركز" اقترب منها طيران وحطا على اغصانها ،وبدا في التعارك " اسطورة مالينزية تحكي بقاياها خرج شاب وشابة ليصبحا اجدادا للبدايات عن اصل البدايات في كتاب
- Mircea Eliade, Nostalgie des origines, OP. Cit
٥- Mircea Eliade, Images et Symboles, o P. cit P.55

ونجد نفس فكرة العمود الى الله عن طريق الشجرة وهذا عند تاتار وسط آسيا وشمالها :
" يصعد الكاهن (الشامان) التاتري على الشجرة ويرمز هذا العمود الى السماء . اذ تحفر على جذع الشجرة درجات سبع او تسع واثناء تسلق هذه الدرجات يصرح الشامان بانه يصعد الى السماء " (١)

ونلتمس نفس الصورة لشجرة الحياة عند الهنود حيث صنعوا عمود من خشبها سمي بالعمود الكوني ويصبح موضوع عبادات وتمارس بواسطته ما يسمى بطقوس المركز . ان هذا العمود الذي يمثل شجرة الكون يربط بين مناطق الكون ما التواصل بين السماء والارض ثم يضع الكاهن سلما يصعد الى قمة العمود قائلا " ها انا قد بلغت السماء ها انا اصبحت لامائت " (٢)

والشجرة عبر هذه الامثلة كونها وسيلة لبلوغ عالم السموات والآلهة تصبح شجرة الخلد الضامنة للخلود الصحة واللاموت ، شجرة الخلد نجدها كذلك وسيلة لحفظ الانسان ضد الشرور والامراض وهذا مثال عما تمثله عند بعض الشعوب شعوبا فريقيا في غرب اوعند ومنهم قبائل الباكيجا اذ يقول احدهم وامام منزله شجرة كبيرة " هذه الشجرة غرسها المنجم ليلا لغرض ايقاف الارواح الاثيمة للاضرار بعائلته . هذه الشجرة بحسب قوله قد حمته فعلا من هجومات اعدائه "(٣)
لدى كثير من شعوب افريقيا (٤) الشرقية تستعمل الشجرة كمدفن للاموات كما يحفر جذعها ليوارى فيه الميت لدى شعوب استراليا (٥)
في اقيانوسيا " تبقى الاشجار مقدسة لانا لاهالي يعتبرونها مكانا للجان وارواح الاجداد "(٦) . وعبر كل هذه الامثلة نستنتج المكانة الرمزية للشجرة كرمز للحياة والتوالد ، الكون برمته والخلود انها سلم الصعود الى السموات موطن خلود الاموات وسعادتهم انها ام الانسانية أم الكون .

١- Mircea Elide, op.cit, P 58 .
٢- Ibid P. 59
٣- Y. K. Bamunoba. B. Adoukonou, La mort dans la vie africaine, op. cit, P. 59
٤- Collectif, Dectionnaire des civilisations africaines, op. cit, P. 185
٥- A.P. Elkin, Les aborigenes australiens, op.cit, P. 400
٦- Jeanne Cuisenier, P.E. Josselin de Jong, "Le monde Malais", In: ethnologie regionale I, op. cit, P. 1346.

فالشجرة بتجذرها في اعماق الارض تتغذى بكل عناصر الحياة الارضية متصاعدة متنامية نحو السماء . اليست هذه الظاهرة مرتبطة في لاوعي الانسان بالاثم الاول او الخطأ في عصيان الله لقد تكلمنا عن اصل الموت وقلنا ان الانسان خسر خلوده قرب الله عندما قطع صلة التواصل بينه وبين الله فالخطأ جاء من رسول الخلود اومن الانسان فالمهم ان الانسان في الارض يحاول تصليح الاثم الاول بالعمل بالخير ومحاربة الشر تقربا لله وذلك ليعيد الوحدة الاولى بينه وبين ربه لبلوغ الخلود المفقود والشجرة هي الواسطة الانجع للتعالي باتجاه الله

والشجرة اذن عبر الامثلة التي اوردناها . هي رمز لمركز الكون حيث تربط العوالم الثلاثة السماء الارض وجهنم هي كذلك رمز الخصب والخلود (١) عن طريق اعادة خلق العالم ومنجهة اخرى هي وسيلة للمومن والكاهن التقي تساعده في بلوغ الله في تأملاته.

ويبدو لنا ان وجودها قرب القبر في مقابر منطقة سعيدة يرمز للخصب الخلود واعادة تجديد الحياة حيث ان كل ما يوجد حولوعلى القبر هو بمثابة تحدى للموت ومنجهة اخرى وسيلة لتصاعد الروح ،روح الميت الى السماء واتصالها بالله طلبا للخلود

ويقوم هذا التصور على بنية ثنائية :

الاسفل	الاعلى
موطن حياة مادية فانية	موطن الارواح مع الله
الموت	اللاموت.
	الخلود

١- في بوهيما في اوربا الوسطى وجد الباحثون في الاثار جذوع اشجار حفرت واتخذت مدافن للاموات سكان المنطقة فيما قبل التاريخ انظر: -Gabriel camps, Manuel de recherches prehistoriques, O.P. cit.

موقف الاسلام من الممارسات الطقسية التي سبق ذكرها .

في هذه المرحلة من المقارنة نجابه اونقابل بين الممارسات الطقسية التي ذكرنا او بين ما اوصى حرم او اجاز في التصور الذى يحمله حول الموت .

كان من المفروض ان نقابل لكل ممارسة طقسية رأى الاسلام فيها ولكن نظرا لان الاوامر والتوصيات الشعائرية الدينية لاتستحق جدا لا ولاتقابل وهذا ما ينجر عنه قصر في الكلام فكل توصية لاتملئ صفحة لا على الاكثر ولاغراض تقنية فضلنا جمع كل هذه الاراء اى وجهة نظر الاسلام فيما سبق ذكره من الممارسات الطقسية وحتى لانشتت تركيز القارئ . فنذكر الممارسة الطقسية اوالمعتقد الشعبي ، ثم نورد رأى الاسلام فيها مركزين خاصة على المذهب المالكي . مصدرنا في ذلك الرسالة لابي زيد القيراوني ط ٦ المنشورات الشعبية للجيش الجزائر ١٩٧٥ . وفقه السنة للسيد السابق المجلد الاول دار الكتاب العربي بيروت بدون تاريخ والمصدر الثالث هو (الفقه الاسلامي وادلته : الجزء الثاني من تاليف وهبة الزحيلي . دار الفكر دمشق ١٩٨٥) بالاضافة الى احاديث دينية والسيرة النبوية .

لقد رأينا كيف ان بعضا من مراحل الطقس الجنائزى تتطابق تماما مع تعاليم الدين منذ الاحتضار حتى الدفن هذا من جانب الرجال نظرا للحضور الضرورى للطالب والامام اشرافا وحرصا على تطبيق حرفي للشعائر الدينية المتعلقة بالجنازة . الشئ الذى لايحصل من جانب جمهور النساء حيث تترك لهن حرية التصرف تبعا للتقاليد فهناك ممارسات تسكت عنها النصوص الرسمية تماما بينما تتدخل في ممارسات نراها ذات اهمية بالنسبة للرؤية الشاملة للحياة والموت ويمكن جرد هذه الممارسات فيما يلي :

ـ النحيب والعويل ولطم الوجه والندب :

يتفق المسلمون بالاجماع على جواز البكاء على الميت (١) قبل وبعد دفنه ـ مالكية حنفية وشافعية مناهل السنة ولكن لايجوز النوح اى البكاء بصوت مرتفع ـ النحيب والعويل كذلك كما حرم الندب (٢)

١ـ عن ابي زيد القيراوني :" ولابأس بالبكاء بالدموع حينئذ وحسن التعزى والتبصر جمل لمن استطاع وينهى عن المراخ والنياحة " في الرسالة ص ١٠٢

٢ـ الندب : المبالغة في ذكر محاسن الميت .

حديث مفاده ان البكاء يزيد من عذاب الميت (١). ولكن يقول وهبة الزحيلي ان هذا الحديث " مؤول عند جمهور العلماء على من وصى اهله ان يبكى عليه ،ويناح بعد موته ،فنفذت وصيته ،فهذا يعذب ببكاء اهله عليه ،ونوحهم ،لانه بسببه ومنسوب اليه ،وكان من عادة العرب الوصية بذلك ومنه قول طرفة بن العبد :

اذا مت فانعيني بما انا اهله وشقي علي الجيب يا ابنة معبد " (٢)

اذن النياحة والوصية من لدن الميت بالبكاء عليه باللطم وشق الجيب كانت تمارس قبل الاسلام ويعتبرها هذا الاخير من قرائن الوثنية وبما ان هذه الممارسة المتعلقة بالاعتقاد القديم بالقرين الذي نخافه منا لانه الانتقام للميت ضد اهله الاحياء الذين يقومون بذلك للبرهنة على تأسفهم لفراق فقيدهم ولاينتقم هذا القرين الا كونه متعلق باعتقاد يكرس استقلاليته كقوة غير مستقلة تصب نقمها على الاحياء . الشيء الذي يتناقض والتصور الاسلامي للنفس البشرية حيث روح الميت تقبض على اساس انها ملك الله فاذا قبضت لاتعود الى الاحياء وبالتالي فان البكاء في نظر الاسلام هو احتجاج على ارادة الله في استرداد ملكه . وبالتالي فان هذه الممارسات هي سبب تقديس للميت وعند ذلك فان الموت مسألة تخص الله وليس للعبد فيها شأنها .

١ـ في الصحيحين " الميت يعذب ببكاء اهله "

٢ـ وهبة الزحيلي ـ الفقه الاسلامي وادلته ـ دار الفكر دمشق ١٩٨٥ ص٥٤٩

- حـــداد الاربعيـــن يومـــا :

لايتجاوز الحداد في الاسلام الثلاثة ايام ،ويحرم مافوقه الا المرأة اذا كان الميت زوجها فتحد عليها اربعة اشهر وعشرة ايام لاتلبس خلالهـــا زينة حليـة ولباس ولاتتكحل حتى اذا جاوزت هذه المدة حق لها التـــزوج من آخر وهذه المدة تسمى العـــدة اذا حدادالاربعين يوما المعمول بـــه في العادات والتقاليد محرم قطعا .ولكن المرأة التي فقدت زوجها عـــند اهالي منطقـــة سعيـدة تمارس العدة حرفيا حسب تعاليم الاسلام.

ونظـــن انا الاسلام يحرم مازاد عن ثلاثة ايام حدادا يـــرجع الـــى كون الدواعـــي الرمزيـــة المتعلقـــة بقرين الميت في العقليـــة الشعبيـــة كونه ينفصـــل عن جسد الميت بعد الاربعيـــن والتـــي تصادف انفجـــار الكبـــد . لايـــومن بها الاســـلام حيث يأتـــي ببديـــل الروح المغايـــرة في جوهرها تماما لمفهوم القريـــن لاداعي للحـــداد ندما على فقـــدان الميت لان روحـــه ملك اللـــه حيث تنتقل مباشرة الى خالقها هو المتحكـــم في مصيرها .

والاهم من ذلـك هو انه مادام الحـداد اربعين يوما مرتبط بالاحساس بالذنب الداعي للاحيـاء تجاه المتوفى ، فان الاحساس بالذنـــب هو لاداعي له في الاسلام مادام الموت بيـــد الله ومهما كـــان سببهـــا وان كان جرما فان اجل الحي قد تم والاعمار بيـــد الله ، اللـــه هو المتسبب في كل موت .
وبالتالي فان الاحساس بالذنب نظريـــا لاوجود له .

ـ القبـــر : البنـــاء علىالقبـــر .

عندما يدفن الميت ويوضع عليه التراب يسنم هذا الاخير على ارتفاع معين لايزاد عن الشبر حتى يتم التعرف عليه . لايجصص ولايبنى عليه هذا ماهو متبع في بعض القبور التي شاهدناها في الارياف والقبور القديمة ولكن يقل اليوم ترك القبر دون بناء فبعد مدة من الدفن يبني اهل الميت مايسمى بالقبرية على فقيدهم وهذا محرم في الاسلام " وكم قد سرى عن تشييد ابنية القبور وتحسينها مفاسد يبكي لها الاسلام منها اعتقاد الجهلة فيها كاعتقاد الكفار في الاصنام ،وعظموا ذلك فظنوا انها قادرة على جلب النفع ودفع الضر فجعلوها مقصد لطلب قضاء الحوائج وملجأ لنجاح المطالب ،وسألوا منها مايسأل العباد من ربهم " (١)

والخوف كل الخوف في الاسلام هو ان يتجه الناس في العبادة لغير الله لذا يحرم البناء على القبور لكي لايتخذ الميت مزارا .

ـ كما ان الكتابة على القبر وطلاءه بالجير قد نهى عنها النبي (ص) ـ٢ـ وتبدو هذه الظاهرة فيما اظن دخيلة على ثقافة المنطقة حيث أننا بتتبع سنوات الدفن في بعض المقابر يتضح لنا اولاها قبور بسيطة غير مبناة عليها شواهد مرحجر لاسماء عليها اما التي اقيمت مع الاربعينيات والخمسينيات نجدها مبنية ولو عليها اسماء اصحابها مع تواريخ الدفن بتأثير من تقاليد الدفن الاوربية

حتى النبات والزهر ممنوع شرعا غرسه او وضعه على القبر (٣) . ورغم ذلك فمن تقاليد اهالي منطقة سعيدة غرس النبات الاخضر والطيب الرائحة على القبر وغرس الشجيرات بجانبه .

١ـ السيد السابق ، فقه السنة ، المجلد ٥، دار الكتاب العربي، بيروت، بدون تاريخ، ص ٥٤٩

٢ـ نفس المرجع ، ص ٥٥٤

٣ـ نفس المرجع، ص ٥٥٧

- الفصل الرابع

- عبادة الأجداد في منطقة سعيدة

الفـــــرع الاول

مقاربـــة نظريـة لمفهوم عبـــادة الاجـــداد

حين تطرقنا للطقس الجنائزي وعنصر الحداد منه بصفة خاصة على انه تعبير عن خوف الاحياء من الانتقام المحتمل للميت ضدهم مادامت لم تفارق "الروح" هذا العالم ، اوبالاحرى القرين لان مصطلح الروح في الديـن الاسلامي ينطوي على فكرة ان الميت بمفارقة الروح جسده . فانها تذهب الى ربهـا حيث ينتزعها الملاك المكلـف بقبضها (١) اما بهذا المفهوم فيمكن التكلم عن القرين فما دام لم يستقر القرين في العالم الثاني .

الخوف من الانتقـام نابع من الاحساس بالذنب الذي ينتاب اقربـاء الميت كونهم لاشعوريا لم يقوموا بما فيه الكفايـة لحماية الفقيد من الموت او انهم في يوم ما تمنـوا ان يطريقة او اخرى موته فيكـون موقفهم عند ذلك الامتناع مدة معينـة من ملاذ الحياة ، التزيـن تحمام ، العمليـة الجنسيـة تعذيبا او ايلاما لها ومحاكاة الموت لايظن الميت انهم نرحوا لموته . وبالتالي يكون انتقامه حتميـا بذا فانهم يظهرون جميع مظاهر الاسى والحزن اراء الفقيد المحبوب .

ويصبح الميت موضوع تبجيل وتعاطف . تقدم لها لحه الصدقات ، تقـام له وليمة كل عام تسمى "الفقدة" (٢) المتوجة لسنة وفاته وتقام كل عام او اثنان ترحما عليه ، يزار قبره كل جمعة ولكن رغم كل هذا يبقـى

١ـ الاسلام يطمئن الانسان على مصير الروح فهي تقبض وتسلم الى الله خالقها ولاخوف على ضياعها اما مفهوم القرين ، يجعل هذا الاخير هائما ومستقره في الثقافات تحدده سلوكات الميت اثناء حياته . ان كان شريرا هامت روحه ولم تلق عالم الاجداد . واذا عمل خيرا لقي القرين اجداده واستقر بينهم هذا بالنسبة للاعتقاد افريقي .

٢ـ تشبه الفقدة السهرة الجنائزية او السبوع او الاربعين حيث يدعى اقرباء الميت الى وليمة ويقرأ القران وتقرا الفاتحة دعاء له .

ولكن رغم كل هذا يبقى الخوف من الميت ماثلا . هناك تقاليد في السحر في منطقة سعيدة وحتى في باقي مناطق الجزائر ،تجعل الميت العنصر الاساسي في المزيج السحري (١) المرغوب فيه . حيث يفتل الكسكسي بيد الميت بعد اخراجها من القبر وتتم هذه العملية في المقبرة ويبيع الساحر ذلك الكسكسي على شكل كرات يأكلها الشخص المراد الضرر به. حيث يمكننا القول انا الموت التي لاتزال عالقة بجلد الميت تنتقل الى الكسكسي وكل من اكل منه لحقه سقم حتى يموت

لكن عند مرور فترة الحداد ويتلاشى التوتر والقلق لدى اقرباء الميت يصبح هذا الاخير مصدر خير مخصب وعافية حيث تمت مهمة الحداد(٢) والذى هدفه ايصال القرين الى مستقره اى عالم الاجداد . وعند ذلك ينزل القلق ويتلاشى الفزع ويقول فرويد في هذا الصدد :

" الالم يخف معه الندم والاحساس بالذنب وكنتيجة لذلك الخوف من الاشباح والعفاريت ،وعند ذلك نفسر الارواح التي كانت مصدر خشية كونها عفاريت تصبح موضوع احاسيس الصداقة تصبح موضوع عبادة كالاجداد الذين تطلب منهم النجدة في كل مناسبة (٣) .

لكن ليس كل الاموات يصبحون موضوع عبادة وفي كل المجتمعات والثقافات حيث ان عبادة الاموات تأخذ اشكالا مختلفة باختلاف الثقافات . فعبادة الاجداد تجد تفسيراتها في الحياة الاجتماعية.

١- يرفض بعض الناس حين يذهبون لتعزية الميت اكل الطعام الذى يدعون اليه مقتا له دونا عطاء اى تفسير قد يشعرون انهم يأكلون طعاما لمسه وباء الموت.

٢- الحداد في الاسلام مدته ٣ ايام لان تصور الروح في الاسلام وضمان استقرارها بسرعة قرب الله ينطوي على ارادة لطمأنة الاحياء .

٣- FREUD, Totem et tabou, OP. cit, P.80.

فالميت موضوع العبادة كان ابان حياته شخص ذو مكانة اجتماعية مرموقة اما رئيس قبيلة محارب قد ماع وقائد زاهد متدين الى آخر ذلك

وعبادة الاجا الاجداد في المغرب وافريقيا عامة تعود الى النظام الابوي السائد . فالاب على سبيل المثال ذو مكانة مرموقة في السلم الاجتماعي كونه رجل يعمل ويعيل العائلة وبذلك فانه يملك القوة المادية التي تمنحه حق التحكم في زمام الامور الاسرة فثقافتنا التقليدية تعطي اهمية قصوى لمكانة الوالدين ويجد هذا الاهتمام مرتكزه في ديننا الاسلام (١) كدعم ايديولوجي لواقع اجتماعي يمجد الاسرة ويجعل من الاب العنصر الرئيسي في بناء مؤسسة العائلة فالاب كونه ذكر هو منبع الحياة .

في ثقافاتنا الشعبية وخاصة في متجليات الوعي الشعبي نجد عناصر تفضيل الرجل على المرأة وخاصة في القص الشعبي

في فراسة لكميل لاكوست عالمة الانثربولوجيت الفرنسية تستنتج هذه الاخيرة بعد دراسة بنيوية مقارنة بين عدة قصص شعبية ان الرجل عكس المرأة يمتاز بالصفات التالية :

- الكلمة الرزينة
- الفائدة العامة
- الانتاجية
- العقل
- التضحية
- النظام (القانون الاساسي) -٢-

١- اية مشهورة في الاسلام تعبر على ذلك " وقضى ربك الا تعبد الا اياه وبالوالدين احسانا ولا تقل لهما اف ولا تنهرهما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل لهما قولا كريما "

٢- C.F. CAMILLE LACOSTE DUJARDIN, Des meres contre les femmes, O.P.cit.

ومن السهل في مجتمعنا على مستوى الواقع الخروج عن طاعة الام او الاباء لها لكن الاساءة للوالد جريمة لاتغتفر فمن اصابه شر " دعوة والديه " (١) وخاصة اباه فذلك الشخص تصيبه لعنة طيلة حياته ويكون مصيره العذاب منجانب الله هذا ماهو معروف في العقلية السائدة في منطقة سعيدة على الاقل ومن رضي عليه ابوه فيعيش حياة سعيدة ٠

وعبادة الاجداد بالشكل الاسلامي الذى نعرفه عنها اليوم هي عبادة لاجداد اسطوريين عرفوا بزهدهم في الحياة وتفانيهم في عبادة الله ٠ وسنطرق فيما بعد كيف اخذت عبادة الاجداد في الجزائر والمغرب عامة هذا الشكل عبر مرحلة تاريخية معينة (٢) مرت بها المنطقة٠

وتعتبر عبادة الاجداد كموقف من الموت وسيلة لتجنب التأثيرات المفضية الى العدم وذلك حفاظا على تماسك الجماعة في مجابهتها للموت ٠ انها استئناس للموت حيث ان الموت ماهي الا انتقال من مرحلة الحياة اولى الى مرحلة ثانية تعيش فيها الجماعة في عالم الاجداد ورعايتهم فالموت الفردية هي انتقال الى حياة الجماعة تحت رعاية الاجداد ٪

١ـ كلما مر بالشخص حدث خاص في حياته وذو اهمية هب باقامة وليمة تذكرا وشكرا لوالده او للجد الولي ٠ تختم الوليمة بدعاء ترحما على الفقيد ودعوته للرضا على الابن والعائلة برمتها ٠

٢ـ تذكيرا فاننا ننطلق في هذا البحث من كون ان موقف الانسان من الموت في منطقة سعيدة لايخرج عن نطاق مضمونة كونية تحدد موقف الانسان عامة من الموت من جهة ومن جهة اخرى ان هذا الموقف يسبق المرحلة الاسلامية حيث بقي حيا رغم تأثيرات هذه الاخيرة ٠

« ان الطريقة الاكثر فعالية لمجابهة الآثار العدامية للموت هي جعلها مجرد اعدام للمظهر المحسوس بمعنى الفرد الموت عندئذ تصبح جسرا بين الفرد الى الجماعة ،في جوهرها الاكثر صلابة ، الا وهي جماعة الاجداد ونستطيع بمنظور التحليل النفسي اليونجي التساءل عما اذا كانت جماعة الاجداد هي الشكل المتعالي ،المجرد ،الوعي ،الجماعة اسقاط في الخيال (عالم مثالي) لرغبة الجماعة للاستمرار دون نهاية » (١)
اليس دفن اموتانا في مقابر حول الولي الجد تعبير مجسد لهذا التفسير التحليلي النفسي السوسيولوجي لظاهرة عبادة الاجداد .

كما انه اضافة لهذا فان المكانة السياسية للجد تنعكس على القبيلة التي تنتسب اليه وتدعي شرفها وقيادتها للقبائل الاخرى انطلاقا من هذا الانتساب الاسطوري (٢)
حيث ان هذا الانتساب يلعب دوره الانتماء الانتخابي في موسسات سياسية وادارية جلبتها العصرنة .
ويبقى هذا الجد ماثلا في مخيال المنتسبين اليه كزعيم روحي وسياسي لعب دوره ذلك اثناء حياته ولازال يملك هذه السلطة على من انتسب اليه . « اذ كانت هناك علاقة مبقا بين الميت قبل موته علاقة سيطرة (ابوة ،اعتلاء سياسي للشيوخ) لذا نجد ان الاموات الذين سيتكلفون بالربوبية ويصبحون آلهة هم الجد ، زعيم العشيرة ، الثامان كانوا وسيبقون آباء الشعوب » (٣) .

١- LOUIS VINCENT THOMAS, Les sociétés devant la mort OP. cit, P356

٢- انظر عبد المجيد - النظريات الاقتصادية عند ابن خلدون خاصة عندما تطرق لبنية القبيلة واسسها التنظيمية والسند الروحي والعقائدي الذي يوسسها ص ٢٦٣ مرجع مذكور .

٣- EDGAR MORIN, L'homme et la mort, OP. cit, P.169

انه لمن الصعب البحث عن تصور منسجم لمفهوم الروح في العقليـــة الشعبيـــة . فلا توجد اثار مكتوبـة عن ذلك فالذكر الشعبي يتعامـــل مع الممارسة النفوية وما تختزنـــه الذاكرة وكان لنا الا اللجـــوء الى تحليـل الجمل الملفوظة حول الروح هذه الجمل والعبارات التـــي تعبر حقا عن تصور للنفس البشريـــة .

فكثيـرا ما يتلفظ الناس بكلمـة روح دلالة على الشخصية . كأن يقال " انا بروحي شفت كذا وكذا ..." مثلا ومثلا " دبر على روحك " بمعنـــى تدبر امرك كأن يقال " نتاعي روحي " للتـوكيد على تملك الشيء او " نمشي روحي " بمعنى امشي لوحدي . وكل هذه العبارات تفيد الهوية والتميز والروح بهذا المعنى هي مجموع مكونـات الشخصيـة من وعي واحاسيس . وكـــل هذه العبارات والملفوظات التي ذكرناها . تفيد مواقف اجتماعية ونفسية والروح بهذا المعنـى استعدادات نفسيـة ومعرفة شعور واحاسيس وعواطف

ويقال عند الموت " خرجت روح فلان " بمعنى مات وانتهى وعند الاحتضار يقال " نفس فلان تدخل وتخرج " وعندما تسئل بعض الاهالي عن مصير الروح بعد الموت يقال لك " تطلع الروح عند خالقها " (١) .
كما يعتقد الاهالي ان روح الميت لاتفارق الاحياء طيلة مدة الحداد ..
كما يقال كذلك ان في هذا المكان او ذاك " تنوض روح " عن المنتحر يقـال " فلان قتـل روحه " وعن المجرم القاتل يقول الاهالي " يا قاتل الـــروح وين تروح "

١ـ يحدد هذا التصور مدة الحداد في الاسلام في ثلاثة ايام فقـط . فالنفس في الاسلام ليست مستقلة بل تحت رقابة الله وملائكته (ملك الموت) انها عند خروجها عن نطاق الجسد لاتفعل ذلك بارادتها بل بارادة من الله حيث يقبضها انها ملكه . وحسب هذا التصور فلا داعي للحداد الممتد في الزمن حيث لايجوز وهو بذلك منافي لتعاليم الاسلام ولاداعي للخوف من روح الميت فهي بقبضة الله ورقابته .

وعن بعض المرضى نفسيا والملقبون بالدراويش(١) يقال فلان روحاني بمعنى ان هناك ارواحا سكنت وجدانه لذا يعتقد الاهالي انه هؤلاء قادرين على فعل المعجزات ولهم علم ليس لاى شخص عادى هثيلا له كالمعرفة بالغيب والتنبؤ .

ولقد ذكرنا عن النفس الاجملة واحدة اذ ليست بنفس الاهمية التي تكتسبها الروح . " فلان يتنفس " نسبة للنسمة التي تدخل وتخرج من مناخيره . فالاهالي واعون بان نهاية الانسان هي عند انقطاع هذه النسمة عن مناخير الانسان .

والنفس ليست تلك النسمة وحسب قد نسمع من الناس احتشاما كلمة نفس كناية للعملية الجنسية " فلان نفسه ضعيفة " مثلا . او كأن يقال " النفس غرارة " اى انا لمفس التي لايتحكم فيها الانسان تودى به الى الانحراف وارتكاب المفاسد . وتبدو هنا النفس ممثلا للرغبات والنزوات " فلان نفسه عزيزة عليه " اى انه بمستطاعه ان يمتع نفسه بما ترغب من شهوات وتظهر النفس على هذه الشاكلة مجموع الرغبات من جهة ومبدأ للحياة من حيث انها النسمة الباعثة للحياة في الجسد ويلاحظ هنا قرب هذا التصور من طروحات المتصوفة الذين يرون في النفس موطن النزوات والشهوانيات كما انها كذلك البخار المنبعث من المناخير كما اوضحنا في العنوان السابق من هذا البحث الخاص بالتصور الاسلامي للروح قد يكون هذا التصور للنفس تأثير من التعاليم الطرقية .

١ـ الدراويش هم نوع من الصوفية ، يكثرون الرقص ويعتبرونه عبادة فحركة الجسم تحرر الروح في تسابيها نحو الله . وهذا الصنف من المتصوفة عرف به الاتراك ولاغريب في انه اثر في مجتمعنا على جماعة من الطرقيين والمتصوفة .

هذا عن النفس . ولكن الروح صعب الكشف عنها . جان سرفييه عندما يتكلم عن مكونات الشخصية عند فلاحي القبائل سائلا « الطالب » حارس الإرثودوكسية - يقول « الروح مبدأ الهي ، النفس اللطيفة تخرج من اخر زفرة وتبقى مع ذلك بجانب الجسد بعضا من الزمن « النفس » النفس النبتوية انها الوعي الكائن للإحشاء في الاحشاء والاتي من الام » (١) .

ويضيف ان مكان وطبيعة النفس والروح يتحددان حسب معطيات بيولوجية « النفس النباتية ، تتمثل في العواطف والسلوك العاطفي يحملها الدم موطنها هو الكبد . وتتمثل النفس اللطيفة أو النسمة في الارادة تتحرك في العظم وموطنها هو القلب » (٢) . ويضيف ان « النفس النباتية انثى ، رطبة وثابتة ، والنفس اللطيفة ذكورية جافة و متحركة »(٣)

١- Jean servier, Les portes de L'année, op.cit, P.24.

٢- Ibid, P23.

٣- Ibidem

نحن نجهل اذا كان حقا هذا هو تصور النفس البشرية عند فلاحي القبائل لان الكاتب لم يستند الى معطيات شفوية كالاقوال والمآثر الشعبية ولكنه استند الى كلام الطالب والذي قلنا انه يحمل التصور العالم للروح انطلاقا من المذهب الصوفي ، والفائدة التي يمكن أن نجنيها من هذا التصور هو انه يحدد طبيعة الروح وموطنها والعناصر التي تحملها : انها الارادة وموطنها القلب (١) وتتحرك في العظم وهناك عبارات تردد بمعنى قوى الروح كتعبير عن الارادة : كأن يقال فلان ز قلبه حامي " بمعنى قوى الارادة ولا قدام ولايقبل المذلة يعكس الشخص الذي " قلبه بارد " ضعيف الارادة قليل الكرامة هذا من جهة ومن جهة اخرى تعطي العقلية الشعبية القلب صفة البصير كأن يقال " خبرني قلبي " تعبير عن الحس والاحاس القبلي كما يقال لاعن الاعمى انه يبصر بقلبه بمعنى انه يرى ويعي العالم انطلاقا من قلبه كذلك يقال عن القادر هو صاحب الارادة القذة " فلان دمه حامي " بمعنى ساخن . وعن العظم فان العقلية الشعبية تعطيه صفة ناطقة كأن يقال " نريح باش نتصنت لعظامي " ونظن هنا انه تعبير عن السكينة والتأمل . والتحدث مع مكنونات النفس اوكأن يقال :" نمشي للحج نغسل عظامي " بمعنى ان الحج هو تطهير للروح والتي تسكن العظم لكل هذه الصفات هي ميزة الشخص وهويته انها المبدأ العاقل في الروح واما جانب العاطفة والاحاسيس فان موطنها الكبد عكس ما هو الحال عند القبائل بالمكل الذي ماغه سرفيه . فالشخصية الانسانية في هذا التصور عند اهالي منطقة سعيدة تتكون من عنصرين النفس والروح ثنائية مستوحاة من التفكير الصوفي ولكنها مضمونة بمضامين مختلفة . لا ينصور أهالي منطقة سعيدة

١- لقد سبق وان اشرنا في الهامش عندما طرقنا موضوع النفس في الاسلام ان اخوان الصفا يقسمون النفس الى ثلاثة كما هو معروف عند الفلاسفة المسلمون ولكنهم ونعتبرهم الاوحدون في ذلك يعطون لكل قسم منها مكانا في الجسم تتموقع فيه الكبد ، القلب ، والدماغ .

للروح وجودا الا في شكل ملموس اوقريبا من ذلك فاذا كانت مجموع الاحاسيس والتصورات المجردة فان موطنها لايمكن ان يكون الا ملموسا . وذلك خلاف تصور الروح في الديانات الكتابية وفلاسفة اليونان القدامى والمسلمين كما رأينا سالفا واعتبار موطن الروح في عضو بيولوجي مجسم في جسم الانسان لاتفارقه الا بعد اضمحلال هذا العضو بعد اربعين يوم كما يقره المعتقد الشعبي تنسف المعتقد الاول القائل بالتحاقها بخالقها فور الممات من اصله مما يدل على ان هذا المعتقد الديني الاسلامي الرسمي (١) ليس متجذرا في العقلية الشعبية بدليل ان الممارسات الطقسية التي تتبع حلول الموت تتنافى وهذا الاعتقاد .

جان سرفييه في " ابواب السنة " يبالغ ويجعل من التفكير الشعبي مطابقا لخطاب " الطالب " الذى سأله عن الروح . ومعروف ان الطالب هو حارس المعائر الرسمية التصور العالم الذى يحمله لايمكن ان يحمله عامة الشعب وخاصة فلاحي القبائل وجبال جرجرة . اذ يقول:

" الروح - مبدأ الحي هي النفس اللطيفة خرجت مع آخر زفرة ، والتي تبقى بجانب الجسد بعضا من الزمن ، " النفس " الروح النباتية ، انها الوعي الكامن في الاحشاء والاتي من الام (٢)

ان العناصر التي نتوفر عليها من الفاظ وامثال بخصوص الروح في منطقة تسمدة تجعلنا نفكر خلاف ما نقله لنا جان سرفييه عن منطقة القبائل . فالفرق بين النفس والروح

١- يحدد هذا التصور للنفس - مدة الحداد والتي تتلخص في ثلاثة ايام فقط فالنفس في الاسلام ليست مستقلة بل انها تحت رقابة الله وملائكته فحتى عند خروجها تنتزع بارادة اوبامر الله وحسب هذا التصور فالداعي للحداد الممتد في الزمن حيث يجوز وهو بذلك منافي لتعاليم الاسلام ولاداعي كذلك للخوف من عودة الروح روح الميت فهي بقبضة الله

٢- Jean servier, Les portes de l'année, op.cit, P.24

هو ان النفس مرتبطه بالوظائف الحيوية للبدن :
التنفس، حركه، توالد. اما الروح فمرتبطة بوظائف مجردة:
إحساس، إرادة، عواطف، الخ..... إذ نوضح ذلك كما يلي:

- النفـــس : الباعثـة للحركة في الجسد تحمل مبادئ الحيـاة

- التنفس : وهي الزفير المنبعث من المناخيـــر .
- العمليـة الجنسيـة
- التوالد وحفظ الذات ،
- الرغبات والنزوات — الغذاء الخ ...

تخرج مع مجيـــئ الموت وهـــي المائتـــة ليست الخالدة

- الروح : تتكـون من التبصر والارادة وموقعهمـا في القلب يتنقـل عن طريق الدم لان المكان الذي يسقط فيه دم مقتـــول يقـال عنه " هذا المكان تنوض فيه روح " او كأن يقول قاتـــل او فرد يريدان يمارس العنـف ضد شخص آخر يقول :

" اليوم طيح روح " بمعنى سيسيل الدم وهذين المبدأيـــن متحركين جافيـن .

٢) مبـدأ الشعور والاحاسيس العاطفيـة موقعه الكبـد . رطب وثابت .

الروح لاتموت عكس النفس فاذا خرج المبدأ الاول مع النفس يبقـــي ملازما للجسـد يحوم حوله ولايمكن ان تفارق الروح هذا العالم الا عندمـا يتحرر المبدأ الثاني المكون لها وهو الشعور والاحاسيس العاطفيـة بعـد انفجار الكبـد . والروح هي الوحيدة الخالدة .

والـــروح بهذا التصـور بعيدة عن التصـور الاسلامي المجرد .
فالاسـلام لايحـدد مكانا توجد بـه الروح في الجسـم لان هـذا التصور شبـه ملمـوس كأن تعطي للروح ذاتها ووجودا ملموسـا .
لانا لروح عند اهالـي منطقـة سعيدة لاتعود الا في صـورة ملمـوسـة ولايكتمـل وجودها الا في تقمـص صورة صاحبهـا ، فالميـت اذ رأه احـد اقاربـه في الحلـم يقول ان روحـه عادت ولايمكن اعادتها الى عالمهـا الا باقامـة وليمـة تفقدا لذاكـره .
بعض الناس يرون صور الاولياء في احلامهـم . ومن رأى وليـا في حلمـه اقام وليمـة للتهدئة من روعـه لان حـذارى من غضب الارواح وخاصـة ارواح الاجداد .

هنـاك معتقـد اخر عند اهالـي منطقـة سعيـدة ويتمثـل في تغطيـة كل المرايـا عند حدوث الموت وفي البيـت وخاصة في الايام الاولـى وذلك مخافـة ان تحـب الـروح نفهـا امام عالـم آخر تعكـه المرايا وبالتالي تدخـل في ذلك العالـم الموهوم وتلازمـه وبالتالي لاتفارق هذا العـالم البتة .

وقـد لاحظ لوى ـ ف ـ طوما هذه الممارسـة في بعض المناطق الريفيـة حيث تنظـف وتظهر غرفـة الميت وتغـطى المرايـا "[1] وهذا مالاحظ كذلك ادغار موريـن في فرنسـا والمانيـا .

ويعتقد كذلـك اهالي منطقـة سعيدة ان ظـل الانسـان هو عنصـر ثان من شخصـه فالظـل مقدس يحمـل ربمـا روح الانسـان فكل من حاول الاعتداء على ظلـه مزاحـا يصـد بقـوة اذا كان طفـلا من قبـل أمه او ابيـه واستنادا الى هـذا كلـه يمكن القـول ان لكل انسان قريـن

١ـ Louis vincent Thomas, Mort et Pouvoir, OP. cit, P42

تأتي الايات القرآنية المتكلمة في موضوع الموت بلفظ النفس تارة والروح اخرى " والله يتوفى الانفس حين موتها " (١) . كل نفس ذائقة الموت (٢) . " كتبنا على بني ت اسرائيل انه من قتل نفسا بغير حق "(٣) والى غير ذلك من الايات العديدة التي ذكرت لفظ النفس في الكلام عن الموت، ويأتي ذكر الروح في القليل منها والاية معروفة :" يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ،وما اتيتم من العلم الا قليلا (٤)" ." ونفخنا فيه من روحنا (٥) ، ويبدو بين اللفظين " نفس " و" روح " تطابق حينا واختلاف حينا اخر ، الا ان المفسرين ومفكري الاسلام ، اختلفوا في تحديد كل واحدة منهما .

لان الاسلام يقر بحقيقة البعث المزدوج للروح والبدن ،فأيهما احق بالخلود في العالم الاخر ،النفس ام الروح فقط او البدن كذلك وهذا اجبر مفكري الاسلام على التفكير في تحديد كل واحدة منها لبناء نظرية كاملة حول البعث والعالم الاخر انطلاقا من مبادئ الاسلام..

لقد حدد لوى كاردية المستشرق الفرنسي اتجاهين مختلفين في الاسلام :

" الكلام التقليدي ،وخاصة منه الاشعري الذي يرى في الجسم او البدن والنفس البشرية الروح او النفس الناطقة طبيعة واحدة : نفس ناطقة ⟷ بدن . والاتجاه الثاني وهو الروحاني الذي يفصل بين البدن والنفس ويمثله بعض المعتزلة ،الفلاسفة الشيعة والغزالي"(٦).

١- سورة زمر
٢- سورة العنكبوت .
٣- سورة الاسراء .
٤- سورة الاسراء
٥- سورة الانبياء
٦- Louis Gardet, Dieu et La destinée de l'homme, Lib. VEIN, Paris, 1968, P. 243

بن سعدان: " اول قسمة قسمت للناس من الخيرات الروح ليتروح به في مكانة الاغيار ، ثم العلم ليدله على رشده ثم العقل (...) صاحبا للروح في الجولان في الملكوت "(١) اذا فالروح ملازمة للعقل في معرفة الله بنظر المتصوفة فالروح والعقل يمعدان الى ربهما فهي التي تعقد الاتصال بالله ،النفس فانية والروح باقية لاتموت مضاف اليها العقل ويتقرب المتصوفة في طرحهم هذا كثيرا من الفلاسفة في نفيهم مادية الروح ...

اما المعتزلة فنذكر لهم رأيين متشابهين ،الاول لابراهيم النظام والثاني لعبد الوهاب الجبائي%

يرى ابراهيم النظام ،الذي يصفه عبد الرحمان بدوى بالمادى على الطريقة الرواقية ،ان النفس جسم وروح النفس حية بذاتها لاتسمح بان تكون القوة والحياة مختلفتين عن القوى والنبي ، وجود النفس في الجسد هو ازعاج آفة تسقط عليها وسبب للاختيار وان تحررت منه كانت افعالها ضرورية (٢) فالنفس كادية في جزء منها ،الجسم ويقول ابن الروندى " انا لانفس من نوع الاجسام الاخرى وهذا مايدعوه النظام بالالوان والذوق والروائح وهي بمثابة ضرر لها اذ يدخل الناس الجنة بدون بعض هذه الاجسام فانهم لايستطعون الاكل والتناكح والشراب "(٣)

اذا فالنفس لاتموت مطلقا او تتلازم مع الاجسام لضرورات رأيناها عبر ماعبر عنه النظام ،الذي يشبه موقفه هذا (موقف النظام) موقف عبد الوهاب الجبائي الذي يرى ان " النفس جسم (اوجسيمة) انها ليست الحياة ،الحياة محدثة النفس لاتستطيع استقبال المحدثات اذا هي نوع خاص من الاجسام" (٤) فالنفس اذن جسم له وجود مادى خاص غير محدثة بمعنى ازلية لايمسها الفناء باقية لاتموت ..

ونرى هنا الفرق في التسمية ،فالمعتزلة يرون فيها النفس وهي الازلية الخالدة عبارة عن جسم خاص ويشاطرون الاشاعرة في ذلك بينما يرى المتصوفة الخلود في الروح وما النفس الا موطن الخبث اما الصفاء والطهارة فالروح ..

١- نفس المرجع ص ٤٢٢

- Abderrahmane Badawi, Histoire de la philosophie O.P.cit, P 131

٣- Ibidem.

٤- Ibid, P.158

وفي قصيدته حول النفس يوضح ان النفس التي تسقط من السماء باتجاه الجسم هي النفس الانسانية الناطقة وليست الحيوانية ولا النباتية . يقول :

" هبطت اليك من المحل الارفع ورقاء ذات تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة عارف وهي التي سفرت ولم تتبرقع(١)

فهبوطها من السماء باتجاه الجسم اذن ،دون ان تدركها الحواس من حيث هي غير مادية ،والنفس مترددة في اتصالها بالبدن ، فهي مزواجة مكرهة على هذا الاتصال ، ومن جهة الفته وكرهت للفروق :

" وصلت على كره اليك وربما كرهت فراقك وهي ذات تفجع(٢)

فهي مترددة كارهة نزوع سجنها - وهو البدن - الى الشهوانية والغضبية ... ومتطلعة الى السعادة الروحية " لما تكون هذه النفس مرتبطة بالبدن الذي هو مكان فارغ ،تخاف دائما من فقدان الاشياء السامية و التي عرفتها من قبل ، ولهذا لاتحب مفارقة البدن كما ايلفنا " (٣) والدليل على انها النفس الناطقة الهابطة من السماء ، عند ابن سينا هو هذا البيت الوارد في القصيدة :

" وتعود عالمة بكل خفية في العالمين ،فخرقها لم يرقع (٤)

فالنفس اذن ،والنفس الانسانية خاصة لاتموت بموت البدن " الموت هو مسمى البدن الساكن ،المنعدم الحركة والحياة صفة الحياة النفس التي فارقته دون عناء " (٥)

ويرفض ابن سينا تناسخ الارواح فلكل انسان روح واحدة عنده (٦)

واستقلال النفس كجوهر وخلودها وعدم موتها بعد هلاك البدن يجعل ابن سينا يفكر في انعدام البحث البدني فما البعث الا للنفس . ونورد له رأيا واحدا يوجز البراعة المنطقية المتوطئة بفيلسوف كبير :

فلو كانت النفس تعاد بنظر ابن سينا لوجب " ان لاتعاد دفعة واحدة وانما تعاد اعادة تدريجية متطورة ،حتى اذا وصلت مادتها الى الطور الذي بعدها لاتفاد النفس عليها ،لم تكن هناك مناص ،من ان العقل الفعال يستحدث نفسا جديدة تتصل بهذا المزاج ،فاذا كانت الاعادة التي يقول بها اصحاب نظرية البعث الجسماني تقتضي عود الروح الاولى الى هذا البدن ،لزم ان يحل بجسم الواحد نفسان : نفسه القديمة ونفسه التي اقتضاها تكوينه من جديد(٧)

١- الاشارات والتنبيهات ،ج٢ ،قصيدته حول النفس ،ص ١٠٠ .
٢- نفس المرجع ،نفس الصفحة .
٣- OSNANE CHAHINE, OP. cit, P 99.
٤- الاشارات والتنبيهات ،ص ١٠٠ .
٥- OSNANE CHAHINE, OP. cit, P. 99.
٦- واما التناسخ في اجسام من جنس ما كانت فيه مستحيل والا اقتضى كل مزاج نفسا تفيض وقارنتها النفس المتنسخة . فكان لحيوان واحد نفسين " ص ٩٥ ج ٢ من الاشارات والتنبيهات .
٧- نفس المرجع ، ص ٩٦ .

وسوف نرى الخلط الذى يحدث لدى الغزالي لما يطرق هذه المسألة وننتقل الى رأى فرقة من الفرق التي سجلت حضورا عظيما في باحة الفكر الاسلامي الا وهي الفرقة الاسماعيلية ٠

ونذكر رأى احد الدعاة الاسماعيليين في هذا الشأن الا وهو علي بن محمد بن الوليد -١١٣٢م -١٢٢٢ م - ٥٢٢هـ - ٦١٢ هـ - الذى يقول "ان النفس هي المحركة لابناض هذا الجسم على النحو الذى هياه لها خالقها وقدرها عليه ،وان كل حركة من محرك اما ان تكون من داخل واما ان تكون من خارج وكان ما كان ٠ فاما الذى حركته من خارج فاما مجرد مجرور جرا واما مدفوعا دفعا وبطل ان تكون حركة البشر (٠٠٠) وقد ثبت ان حركته من محرك مختار ،والمحرك المختار نسميه نفسا " (١) ٠

فالانسان غاضب قوى وممتعض في حالاته ،فهذا الغضب لابأتيه من ذاته والدليل على ذلك امتناعه عن ذلك اثناء موته ٠ " ولما لم يكن من ذاته كان من غيره ،فالغير هو الذى نسميه نفسا ولما كان كل شيء اتحد بحد شيء فهو عينه ومثله ولكا كان حد الجوهر هو القابل للمتضادات من غير استحالة عن ذاته ،وكانت النفس المحركة لبعض قابلة للمتضادات مثل العلم والجهل والشجاعة والجبن والكرم من غير استحالة عن ذاته وكانت النفس جوهرا (٠٠٠) انها موصوفة بالجوهر كونها حاملة لامحمولة وقابلا لامقبولة (٢) وهي مكان لاكتساب العلم ومتناقة دوما لاكتسابه وهي حية بذاتها خلقها الله في الجسد وجعل لها عمرا وأجلا وما الجسد الا واسطة لبلوغ هدفها وهو القلم بخفايا وخبايا هذا العالم ،تفارق هذا الجسد متى اراد خالقها ولها باتصالها بالجسد كيان مستقل عنه وهو صورتها وان فسدت المادة لاتفسد النفس (٣) ٠

فالنفس اذن منفصلة عن الجسد ونعيمها خارجة تماما فالجسد مانع لها اذ انها في حياتها تنزع دائما الى العقل ٠

١ـ على بن محمد الوليد " تاج العقائد ومعدن الفوائد " دار المشرق بيروت ١٩٦٧ ص ١٦٠ ـ ١٦١

٢ـ نفس المرجع ص ١٦١ـ ١٦٢

٣ـ هذا الطرح قريب جدا من طروحات الفلاسفة في تصور النفس وعلاقتها بالبدن حيث انها العارفة والمتعوقة لمعرفة الكائن الاول مثل ما هو الحال عند ابن سينا واخوان الصفا المتمين للاتجاه الاسماعيلي٠

... الى استغلاص صورته ومتحدة بحباله وقوة كماله تلك الصورة المعراة من موانعها مناسبة لذوات الملائكة وصورها ولايزال حالها يتزايد وقواها تدرك حتى تصير الى أمر تستمد به قبول فيض العقل على الدوام وتنقطع عن انزار البدن ومقتضى عمل الحواس ويقع التجاذب تارة الى العقل ، وتارة الى البدن لضرورة الغذاء لانه المانع من الاتصال الكلي . فاذا آن وقت الانفصال بالموت ارتفع الحجاب وزال المانع ،ودام الاتصال لان النفس باقية ببقاء توحيدها فيترادف على ذاتها من جهة مباها " (١) .

فالنفس برأى الاسماعيلية - جوهر منفصل عن الجسم وما هذا الاخير الا واسطة تستعمله لبلوغ العلم بالاقتراب المتزايد والمتصاعد نحو العقل ،وحتى وان حصل الموت بلغ الهدف ،ولامكان لكلمة روح في كل ما عرضناه من فكر هذا الاسماعيلي ، فالجوهر هو النفس عكس المتصوفة ويقع الغزالي بين المتصوفة والفلاسفة في رؤيته للنفس لذا نجده يستعمل اصطلاحات غير مستقرة في ذكرها ، يرى الغزالي " " ان معاني الالفاظ المترادفة على النفس وهي اربعة النفس القلب الروح والعقل" (٢) .
" فأما النفس فتطلق بمعنيين : احدهما ان يطلق ويراد به المعنى الجامع للصفات المذمومة ، وهي القوى الحيوانية ، المضادة للقوى العقلية وهو المفهوم عند اطلاق الصوفية (...) والثاني ان يطلق ويراد به حقيقة الآدمي وذاته ،فان النفس كل شئ حقيقته ،وهو الجوهر محل كل المعقولات وهومن عالم الملكوت العارضة عليها ،فان اتجهت الى الصواب ونزلت عليها الكينات الالهية وتواترت عليها نفحات فيض الوجود الالهي فتطمئن الى ذكر الله عز وجل وتسكن الى المعارف الالهية وتطير الى اعلى افق الملكية فيقال نفس مطمئنة (٣)

فهي في صراع مع قواها فتارة تزع الى العقول وتتلقى المعقولات وتثبت ،وتارة تسيطر عليها قواها (الشهوانية ،الغاضبة الخ ..) فتنزل الى حضيض البهائم وهذه هي النفس اللوامة .

اما الروح فهي وهو كذلك مرادف للنفس هو " الروح الانساني المتحمل لامانة الله المتحلي بالمعرفة ،المركوز فيه العلم بالفطرة

١- نفس المرجع ص ١٦٥ - ١٦٦
٢- Louis Gardet, Dieu et La destinée..., OP. Cit, P 245

٣- نفس المرجع ص ١٧

الناطق بالتوحيد بقوله بلى فهو اصل آدم ونهاية الكائنات في عالم ال
المعاد" اما الروح فيطلق ويراد به البخار اللطيف الذى يمد من
منبع القلب ويتصاعد الى الدماغ بواسطة العروق اينما الى جميع البدن
فيعمل في كل موضع بحسب مزاجه واستعداده عملا فهو مركب الحياة فهذا
البخار كالسراج لاتي xxxxxxxxxx قامت به كالضوء وكيفية تأثيره
في البدن ككيفية تنوير السراج اجزاء البيت ويطلق ويراد به المبدع
الصادر من امر الله تعالى الذى هو محل العلوم والوحي والالهام وهو من
جنس الملائكة المفارق للعالم الجسماني قائم بذاته على تبيين " (١)

فالنفس على هذا الشكل من التحليل تبدو غموض الغزالي في فهم
الظاهرة فمار الروح برأيه الامرانف للنفس يأخذ معنيين : البخار
الحيوى الذى يحرك ويعطي الحياة وهي من جهة مكان للمعقولات والمعارف
والنفس برأى الغزالي خالية من كل مادية وهي جوهر " ليس لها مقدار
ومساحة ولاتدرك حسا ولايدركها جسم وان ادراكها لايكون بالات جسمانية (٢)
اذن هي جوهر مجرد عن كل مادة ولكن يبقى تحديد المصطلح ناقص عند
الغزالي ...

اما الفلاسفة فقد انتجوا هم بدورهم أدبيات هامة حول هذا الموضوع
وقد دار بينهم وبين رجال الدين المتشددين جدال واسع حول هذه الاشكالية (٤)
لحد تكفيرهم وطلب قتلهم من قبل ابن تيميه في احدى فتاويه ،ونذكر
لهم آراء كل من اخوان الصفاء وابن سينا وابن رشد ...
يقول اخوان الصفاء : "ان النفس تسكن الجسم موقتا لتحسين واكمال
معارفها ،وان عالم الاجسام غريب عنها ،انه سجنها موطنها الوحيد
هو العالم الروحي ،النفس او الروح هي جوهر سماوى ،منير ،يفعل ،يحس
بدرك لايموت لايفنى ،لها خلود في السعادة او التعاسة (٥).

١- نفس المرجع نفس الصفحة

٢- نفس المرجع ص ٢٧

- في كتابه المنقذ من الضلال - المكتبة الشرقية بيروت ١٩٦٩ ص ٤٥ يقول
"ان الانسان خلق من بدن وقلب واعنى بالقلب حقيقة روحه التي هي محل
معرفة الله "

٤- حول هذا الجدال في ج ٤ من فتاويه يخصص ابن تيمية فصلا عنوانه "الفلاسفة
منتطببين ومتكلمين منكرين للمعاد ملاحدة يجب قتلهم "

٥- يقول لوى كاردينه بهذا الخصوص " الفلاسفة يقرون بوضوح بان النفس الروح
منفصلة بطبيعتها عن كل مادة تنتمي بذاتها الى عالم المعقولات وتعود
بعد الموت ص ٩٦ .

انها الوحيدة التي لاتموت من سائر الارواح الموجودة في البدن تقبض وتعاد الى البدن في القبر ثم تخرج اذتعود اليه يوم البعث. فوجودها ليس مشروط بوجود الجسم اذ لايعطي ابن القيم اى قيمة - من حيث هو كيان مادي بالنسبة الى الروح.
وبعد من ضمن الارواح "الروح التي يويد بها الله رسله واولياءه" وكذلك الروح التي يلقيها على من يشاء من عباده هي غير الروح التي في البدن" (١)

ويواصل تحليله للروح والتي يرى فيها كما اسلفنا أرواحا وليست روحا واحدة فالقوى المودعة في البدن هي كذلك أرواح "فيقال الروح الباصر والروح السامع والروح الشام" (٢) وتموت هذه الارواح بموت البدن وهي غير الروح التي لاتموت بموت البدن ولاتبلى كما يبلى.
و" يطلق على اخص من هذا كله وهو قوة المعرفة (٣) بالله والانابة اليه ومحبته وايثاره الممة الى قلبه وارادته ونسبة هذه الروح كنسبة الروح الى البدن، فان فقدتها الروح كانت بمنزلة البدن اذا فقد روحه وهي الروح التي يويد بها اهل ولايته وطاعته، ولهذا يقول الناس فلان فيه روح، وفلان ما فيه روح وهو بوق وهو قصبة فارغة" (

فالروح اذن بالنسبة اليه ليست واحدة وانما ارواح.
١- الاولى: الروح: النفس الملازمة للحياة وتقبض عند الموت.
٢- الثانية: هي روح يويد الله بها اولياءه ورسله ويلقيها على من يشاء وهي ملكة المعرفة بالسر الالهي.
٣- الثالثة: ارواح ملازمة للبدن تقوم بالوظائف الحسية من بصر وسمع وشم (٤) الى آخره وتموت مع موت البدن.
فالاولى لاتموت بل تغادر الجسد عند الموت ملازمة له ليحي وحين يبعث تعود الثانية لاحاجة لها بالبدن فهي الهيئة وجودها ليس مرتبط باى وجود.

١- نفس المرجع ص ٢١٩
٢- نفس المرجع ص ٢١٩
٣- نفس المرجع ص ٢١٩- ٢٢٠
٤- يلاحظ تقارب نظريته مع نظرة الفلاسفة في تقسيم انواع الروح هذا التقسيم المرتجل يفتقد للانتظام المنهجي في الطرح وذلك عائد لبعد المولف عن الفلسفة وعداوته لها.

الا وهو ابن القيم الجوزية (٧٥٠ هـ) ويرد في هذا الرأى خاصة
على الاشاعرة وبعضا من المعتزلة ، اصحاب مادية الروح ، ويعرض في
هذا الرأى اثنتان وعشرين نقطة نذكر اهم وابرز ما تنتهي فيها :

١ـ لو كانت الروح جسما لكانت على صفات سائر الاجسام لايخلو هي فيها
من الخفة والثقل والحرارة والبرودة والنعومة والخشونة والسواد
والبياض وغير ذلك من صفات الاجسام وكيفياتها . ومعلوم ان الكيفيات
النفسانية انما هي الفضائل والرذائل لاتلك الكيفيات الجسمانية
فالنفس ليست جسما .

٢ـ انها لو كانت جسما لوجب لوجب ان يقع تحت جميع الحواس او تحت
حاسة منها او حاستين .

٣ـ لو كانت جسما لكانت ذات طول وعرض وعمق وسطح وشكل وهذه
الابعاد لاتقوم الا بمادة ومحل ، فان كانت مادتها ومحلها نفسا
لزم اجتماع نفسين وان كانت غير نفس كانت النفس مركبة
من بدن وصورة وهي في جسد مركب من بدن وصورة فيكون للانسان انسانيتين

٤ـ أن كانت جسما لكان اتصالها بالجسم ان كانت على سبيل المداخلة
لزم تخلل الاجسام وان كان على سبيل الملاصقة والمجاورة كان الانسان
الواحد قسمين احدهما يرى والاخر لايرى " (١)

وعندما ينتهي من نحو اقاويل المدعين بمادية الروح يتعرض
نظرية في الروح والذى يقول عنها مستوحاة من المبادئ الشرعية
" اما الروح التي تتوفى وتقبض فهي روح واحدة ، وهي النفس واما ما
يؤيد به الله أولياءه من الروح فهي روح اخرى غير هذه الروح كما
قال تعالى " اولئك كتب عليهم الايمان وايدهم بروح منه (...) اما
الروح الاولى التي هي النفس فتسمى كذلك لانها تعطي الحياة للبدن
فسميت النفس روحا لحصول الحياة بها وسميت نفسا اما من النفس
النفيس لنفاستها وشرفها واما من تنفيس الشئ اذا خرج فلكثرة خروجها
ودخولها في البدن سميت نفسا . ومنه النفس بالتحريك فان العبد
كلما نام خرجت فاذا استيقظ رجعت اليه ، فاذا مات خرجت خروجا كليا
فاذا دفن عادت اليه فاذا سئل خرجت فاذا بعث رجعت اليه " (٢) .

١ـ ابن القيم الجوزية ـ الروح في الكلام من ارواح الاموات والاحياء ـ
دار الكتب العلمية بيروت ١٩٧٩ ص ٢٠٠

٢ـ نفس المرجع ص ٢١٩

ويقصد هنا الفلاسفة ومنهم ابن سينا ويواصل :
" وانما نريد ان نعترض الان على دعواهم معرفة كون النفس جوهرا قائما بنفسه ببراهين العقل ، ولسنا نعترض (...) بنقيضة ، بل ربما يتبين في تفصيل الحشر والنشر ان الشرع مصدق له ولكنا نذكر دعواهم دلالة مجرد العقل عليه والاستغناء عن الشرح فيه (١)

وهنا ينتقد ابن سينا في فكرة النفس السماوية التي يجعل منها جوهرا مستقلا بذاته لادخل لله في احداثه وخلقه ، فبدل النفس السماوية المستقلة بذاتها يود ابن رشد رؤيتها بخالقها وادماج الشرع (٢) في تبيان كيانها وتفاصيلها ..

ولايريد ابن رشد التفصيل في مسألة النفس لانه يرى بان الكلام فيها غامض جدا " (٣) حيث يقول في موضع اخر ان " علم النفس اغمض واشرف (٤)".

وتبعا لطرح الفلاسفة فانهم خلاف المتكلمين الائمة او المتصوفة يقرون بوجود نفس واحدة وليست الروح بل النفس وحدها . وفصلوا فيها على مستوى بالغ في التجريد انطلاقا من ادوات منهجية مستعارة من فلاسفة اليونان . وساعدهم ذلك على تأسيس نظام معرفي حول النفس منطقي ومبنى يمكن ان نسميه بالارهاصات الاولى لعلم النفس في الفكر العربي الاسلامي ، ولقد رد ابن رشد كثيرا لفظ علم النفس في " تهافت التهافت " ..

وبعد ذكر كل من آراء اصحاب الكلام المتصوفة والفلاسفة أن لعرضنا ان ينتهي الى الفكر الفقهي الاول الملخص للمبادئ الحرفية للاسلام ، الفكر الرسمي (٥) بذكر آراء احد التلاميذة الاكثر اخلاصا للفكر الحنبلي والاكثر تشددا في السنة الا وهو ابن القيم الجوزية (٧٥٠ هـ) الذي يرد في هذا الرأي على الاشاعرة خاصة وبعض المعتزلة من اصحاب مادية الروح ، ويعرض في هذا الرأي اثنتين وعشرين نقطة نذكر اهم وابرز ما اتى به فيها :

١ـ نفس المرجع نفس الصفحة
٢ـ والملفت للانتباه هنا ان كلام ابن سينا في كل فصول التنبيهات والتعليقات لايرجع الى اي سند شرعي في تفسيره لمسألة الروح .
٣ـ تهافت التهافت ـ ابن رشد ـ ص ٨١٨
٤ـ نفس المرجع ص ٨٣٧
٥ـ GARDET, "Philosophie et religion", in "Elaboration de l'Islam. P.U.F. Paris, 19. P.60. يتكلم عن انتصار المذهب الحنبلي بعد انحطاط الفلسفة في الاسلام

وقد خصص الشيخ الرئيس - كما يدعوه الافغاني جمال الدين مؤلفا ، في موضوع البعث والمعاد عنونه بـ" رسالة اضحوية في أمر المعاد " ، اذن فالنفس وحدها هي التي تذوق سعادة العالم الاخر اوشقواته ، انها وحدها المعذبة والمثابة ،لانها جوهر يشتهي يغضب ويعرف ويذكر بقدراته للكامنة فيه ....

وهذا مخطط لمكونات النفس عند ابن سينا

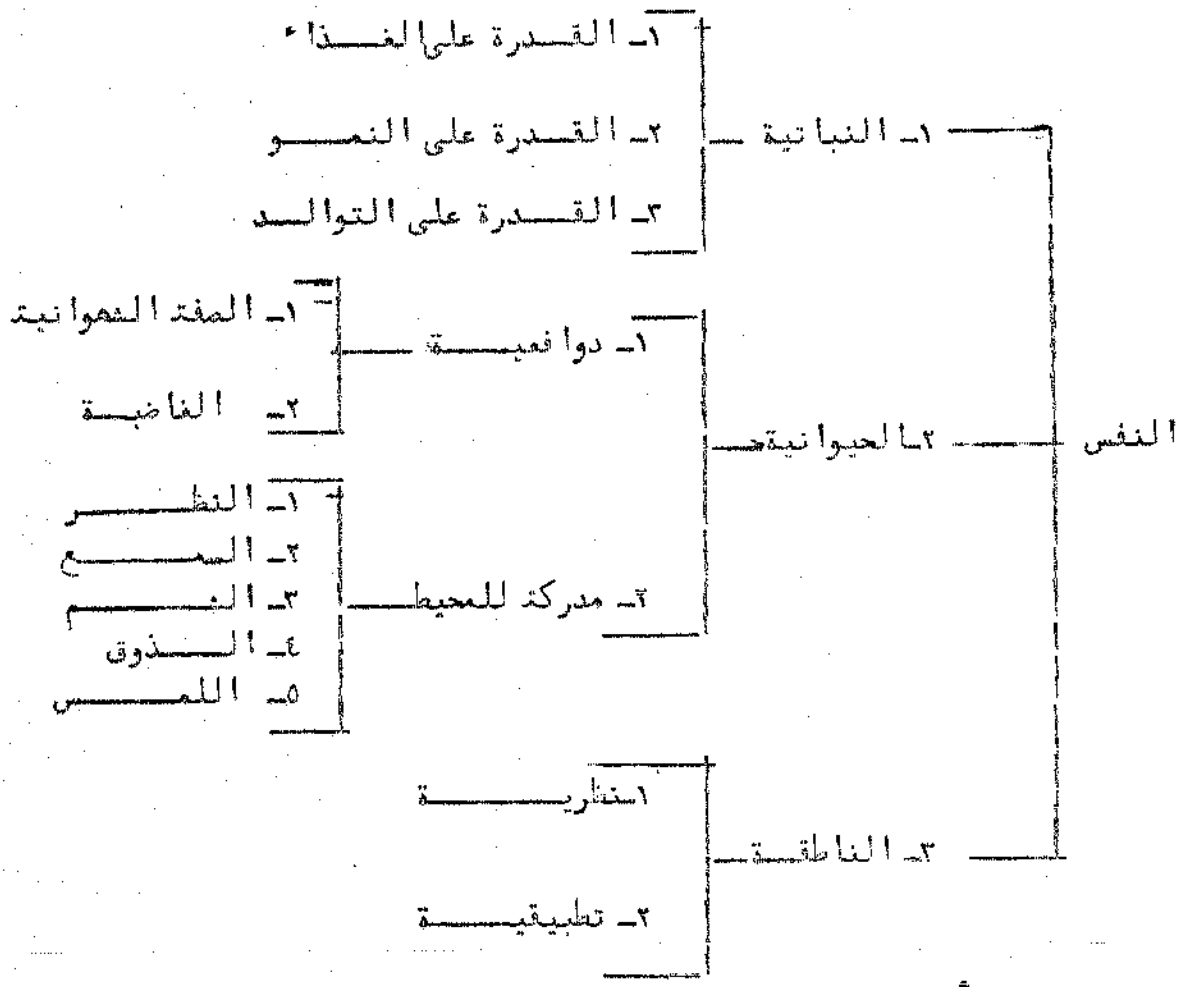

ووقفنا عند رأي ابن سينا في النفس لانه فصل فيه وخاض في اغواره وخصص له قسطا وافرا من تفكيره .

اما ابن رشد فيتفق مع الطروحات الفلاسفة في طرح اشكالية النفس لكنه يعترض في تهافت التهافت"

وليس شيئا مما ذكروه مما يجب انكاره في الشرع فانها امور مشاهدة اجرا الله تعالى العادة بها (٢)

١- OSMANE CHAHINE, OP. Cit, P.101

٢- ابن رشد، " تهافت التهافت" ج ٣ ، دار المعارف المصرية ، القاهرة، ١٩٧١ ، ص ٨١٨ .

النفس الثانية ،وهي النفس الحيوانية وهي القسم الثاني من النفس " تنتمي الجسم طبيعي - تتحرك اراديا ، لها كذلك القدرة على القيام بالفصل والعزوف عنه ،والنفس الحيوانية المحركة مقسمة الى نوعين : دافعة ونشطة والقدرة المحركة بصفتها مهيجة لها فرعان : قدرة شهوانية وهي التي تهيج في سبيل الحركة بالاقتراب من اشياء متخيلة ترى على انها ضرورية او نافعة ،بحثا عن اللذة (...) والفرع الثاني الذي يشكل القدرة الحركية وتسمى القدرة الغاضبة تترك لدفع الاشياء الضارة " بحثا عن الانتصار " (١) ...

اما القسم الثالث فهو النفس الناطقة " انها جوهر غير مادي انها مستودع المعقولات (باعطاء) وهذه النفس لاتموت بموت البدن حسب ابن سينا فالفساد لايدركها ،انها لاترتبط بالبدن كالسبب بالنتيجة وهي تفهم حقائق الموجودات ز بالتفكير والبحث ويبدو لنا ان جوهر الانسان خالد لايموت ، وان المعنى (٢) المعقول لايرتسم في منقسم ،ولا في ذي وضع"(٣).

١- Ibidem

٢- في الاشارات والتنبيهات - انك تعلم ان الشئ الغير المنقسم قد تقارنه اشياء كثيرة لايجب ان تصير منقسمة في الوضع ، وذلك اذا لم تكن كثرتها كثرة ماينقسم في الوضع كجزاء البقلة لكن الشئ المنقسم الى كثرة مختلفة الوضع لايجوز ان يقارنه شئ غير منقسم وفي المعقولات معان غير منقسمة لامحال والا لكانت المعقولات انما تلتئم من مبادئ لها "ج ٤" دار المعارف المصرية - ١٩٦٨ ص ٤٠٦ وما قبلها .

٣- وفي كتاب ليف ماركيه ،نجد نفس هذا التصور عند اخوان الصفا " انا الذي يميز الانسان عن باقي الحيوانات هو ان نفسه تتألف من قدرات ثلاث اثنتين : نفس نبتوية (تغذية - نمو) موطنها الكبد وتتحرك في العرق نفس حيوانية (حس وحركة) موطنها القلب وتتحرك في الاوردة - النفس الناطقة (فكر وتبصر) موطنها الدماغ تتحرك في الاعصاب ص ٢٢٩ لكنه يختلف من حيث ان الاخوان يحددون مواطن النفس .

-Yves Marquet, La philosophie d'Ikhwan El Safa S.n.e.d, Alger, 1973.

-OSMANE CHAHINE, OP. cit, P. 99.

وقد اهتم ابن سينا اكثر بمسألة النفس حيث خصها بموضعين من مؤلفاته: "القصيدة" (١) و "الاشارات والتنبيهات" ففي الاشارات والتنبيهات فصل فيها القول، وتوقف عند صفاتها ،يقول في "القصيدة": "ان النفس تسقط من العالم العلوي باتجاه البدن ثم تنقطع عنه اي البدن، عند الموت" (٢) زاذن تظهر النفس لاول وهلة ككائن مستقل عن البدن لتفارقه عند الموت،

والنفس عند ابن سينا جوهر وحيد "هي انت وهذا مستدل عليه ،لها تشبعات ،ولها فلكات مبعثرة في جميع الاعضاء، ولما تحس بشيء من قبل احد اعضائك وتتخيل وترغب، تغضب ،لعلاقة بين هذا الجوهر وهذه الفروع يجعل لها قابلية لتخلق بالتكرار بعض الاذعان او عادة او طبيعة (ثانية) لتصبحان المتحكمتين في هذا الجوهر القائد مثلما تفعله الاستعدادات الثابتة (ملكات)، لكن كما انهذا يحدث في الاتجاه المعاكس في غالب الاحيان ،يبدأ استعداد عرضاني، ثم يتبع في هذا الجوهر القائد، وعند ذلك تنقل التمفصلات والتأثيرات الى التشعبات ثم الى الاعضاء. انظر عندما تدرك قرب الله بصفة محسوسة وتتأمل في جبروته يقشعر جلدك وشعرك" (٣). اذن فالنفس تنقسم عند ابن سينا الى ثلاثة اقسام:

١- النفس النباتية
٢- النفس الحيوانية
٣- النفس الناطقة

والنفس النباتية تنتمي - حسب ابن سينا - الجسم طبيعي فيا عضاء ،بصفته شيئا يولد، ينمو ويتغذى ،وللنفس النباتية حركات عن طريقها تحفظ الجسم وتوالده ولها كذلك افعال تمرر مادة الغذاء لاتباعها بها واذن رغم كل هذه الحركات والافعال، فان هذه النفس تفعل دون خيار ولامعرفة ويشرح ابن سينا ما للنباتات من انفس ووسائل كمال ،تمثل القوى الثلاث: التغذية النمو، والانتشار" (٤)

١- هي قصيدة هو شعرية كمول النفس

٢- OSMANE CHAHINE, Anthologie et theologie chez Avicenne. Maisonneuve, Paris, 1962, P.96

٣- AVICENNE, Directives et remarques, J. VRIN Paris, 1951, P. 311.

٤- OSMANE CHAHINE, Anthologie ....., op. cit, P.97

باي وجود مادي اما الثالثة فهي ملازمة للبدن تموت بموته وتبلى معه.

فعلى غرار الغزالي ،فان الاصولي السني يتعثر في تبيان ماهية الروح . فهي تارة النفس والقلب والعقل مثل ماهو عند الغزالي وهي ثلاث عند ابن القيم ،فيها المائتة واللامائتة ،فتارة نفس وتارة روح الهية عارفة .

وكلام لهم عن الروح لدى الفلاسفة والمتصوفة التي تظهر عندهم بوضوح النفس وليس غيرها الا الفلاسفة النفس درجات ثلاث نباتية حيوانية وناطقة الاولى والثانية تموتان مع البدن . لتلازمها معه ولاوجود لها الا به الثالثة تستعمل البدن وادواته لبلوغ الكمال سعيا الى المعرفة الالهية او الكائن الاول (١) كما هو عند ابن سينا .

اما المتصوفة فيفرقون بين النفس الحاملة للخطايا والساعية الى الاثام والروح الملهمة من عند الله والتي تجد في البدن امتحانا لها وسجنا (٢) يمنعها من بلوغ الملكوت . فاذا مات وانقطع عن الحياة تحررت لتسبح في عالم الله .

فكل هذه الاراء التي استعرضناها تحاول ان تفسر الروح او النفس لتعقلنها بحثا عن فهم عقلاني لعلاقة الروح او النفس بالبدن وتفاصيل هذه العلاقة . فاذا حاول الاشاعرة وبعض المعتزلة تبيان مادية الروح فذلك حرص منهم على تثبيت امكانية عودتها الى الجسم يوم البعث هذا من جهة ومن جهة اخرى عدم توفرهم على الاداة المعرفية ، والمنهجية لتصور وجود مجرد للنفس او الروح . الا انه لايجب استهجان تصورهم فانه يدخل في اطار محاولاتهم الوصول الى معرفة وفهم الدين عن طريق العقل (٣)

١- الذي يرادفه المبدأ الاول الارسطي فنظرته للنفس "اخذ فيها عن ارسطو وافلاطون" انظر كتاب عبد الرحمان مرحبا، من الفلسفة اليونانية الى الفلسفة الاسلامية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٣، ص٥٢٢

٢- ابو بكر ابي سدان يقول بخصوص ذلك في طبقات الصوفية مرجع مذكور
خلقت ارواح من النور واسكنت ظلم الهياكل " كما يقول الحلاج على علاقة الروح بالبدن بهذه الصورة " انا طائر وهذا قفصي "في :

-Louis Massignon, Akhbar El Halladj Gutner
Paris, 1931, P. 131.
-MOHAMED. ARKOUN, La pensée arabe, OP.cit, P.74-3

وقد رأينا كم هي هشة حججهم امام نقد الفلاسفة وابن القيم الجوزية حيث لايمكن للروح ان تأخذ صيغة المادة .

الفكر التقليدي او فكر الاصولي يقر بروحانية الروح واتحادها بالبدن في الحياة لتعود اليه يوم البعث.
ولاتنفصل هاتين النظريتين الكلامية والتقليدية عن التقليد القديم والوارد في العهد القديم (١) من ارتباط الجسد بالروح وعودتها اليه يوم البعث ،لكن تتفق هذه النظرة في " دمج الجانب الوضعي للسيوكولوجيا الانسانية والمقرة بالجوهرية الروحية للنفس ومن ذلك فان الفلاسفة يعتبرون النفس والجسد منفصلين .

الجسد آلة للنفس هذه الاخيرة تعيش حياة الجواهر المنفصلة لكن يتفقون في دمج الاجساد كعناصر تبعث هي الاخرى يوم البعث "(٢)

١- العهد القديم سفر أعمياء " تحيا اموات تقوم الجثث"
٢- Louis Gardet, Dieu et la destinée..., OP.cit P. 246

- كونيـــة ظاهـــرة القريـــن -

- القريـــن هو صورة الانسان الاخرى :

والقريـن هو تصور كوني لدى الانسانية البدائية (١) لشخـــص الانسان وقد لاحظنا كيفما ان هذا التصور يحدد كثيرا من الممارســـات ازاء الاموات . كأن يدفنوا وبمحبتهم متاعهم وقد لاحظنا كيف ان سكـان المغرب فيما قبل التاريخ كانوا يعاملون موتاهم على هذه الشاكلـة . وعن كونية هذه الممارسة وهذا التصور / انظر الفرع الخاص بعبـــادة الاجداد / والعنوان السابق (القبـــر ومستلزماتـه) .

وهـذا الاعتقـاد بالقريـن له اثر نفسي واجتماعي عميـــق . حيث يحدد كل الممارسات الطقسية ، فالروح بهذه الصورة مستقلة وسلطتهـــا مطلقـة وليست مرتبطة بأي مبدأ الهي يحكمهـا فسطوتها مرها وخيرها تحدد سلـوكات الافراد ابان الحداد ، هذا عن الميت العادي وبالنسبـــة للاجداد فان سلوكهم باتجاه الاحياء يتحدد بطبيعـة سلوكات هـــؤلاء ازاءهم وازاء تعاليمهم ووصاياهم . وهذا نص يوضح كونية القريـــن " القرين الانساني مخفي (...) انه جزء من الانسان في حالة اليقظـــة يستطيع ان ينفصل عنه اثناء النوم (احلام) ينفصل عنه عند الموت اذ يعيش اثناء ذلك الضريح العائلي (...) الاموات في حاجة الى قرابيـــن يرفقون بأعـز ما كانوا يملكون او يحبون (تبغ ، فواريز ، مرايا) يتدخلون في حياة الاحياء من جماعتهم والذين يرونهم في الحلـــم يفرضون عليهم تقديم القرابين والاضحيات ، يعاقبون الآثمين للتقاليـــد ويجيزون السلوك الحســـن بالمحاصيل الزراعية الجيدة "[٢]

١- CF. EDGAR MORIN, L'homme et la mort, OP. cit.

٢- HUBERT DESCHAMPS, "Ethnologie de Madagascar", In: Ethnologie regionale I, OP. cit, P. 1439

هذا النص اخرجناه من سياقه الذي هو مجتمع مدغشقر ووظفناه في البرهنة على كونية ظاهرة القرين وانظر فيما يخص هذا الموضوع: قسم عبادة الاجداد، والقسم الخاص بالحداد ، وتوقفنا عند هذا الحد لتفادي التكرار غير المفيد.

ـ عبـــــادة الاحـــــداد في منطقـــة سعيدة .

١ ـ الزيـــــارة :

يعتبر ضريح الولي مزارا للاهالي حتى يقومون بدعاويهم باتجاه روحـــه لتعود عليهم بالخير كابعاد الامراض والشفاء من السقم واطالة عمـــر الوليد طلب السعد والنجاح في شوون الدنيا (١) .

قد تقتصر الزيارة على تقديم نقود لمقدم الضريح والقائم بشؤونه وقد يذهبون حتى الى ذبح ديـك واقامة وليمة او يسلم الديك مذبوحا الـى مقدم الضريح ويبت الزوار في بهو الزاوية ويغادرونها في صبيحـــة اليوم الموالي .

والزيارة العادية تقتصر على اعطاء بعض النقود الى "مقدم الولـي" او الاتيان بطعام ـ غالبا الكسكس ـ الى جمهور الزائرين . يقـــوم بعد ذلك النسوة بطلاء بعض الاماكن من جدار الضريح بالحنـــة وتطبعن على الجدار صورة ايديهن كف اليد والاصابع الخمسة (٢) وهي يد للاه فاطمة بنت النبي محمد حيث تصد هذه اليد الشـــرور الخبائث وتحيط بالنوايا الشريرة .

ويلتقط النســـوة من حول الضريح التراب لتستعملنـــه كشفاء للصداع حيث يبلل ويطلى على جبين المصاب ، كمـــا يوضع هذا التراب في حزم صغيرة من القماش تربط على رقاب الاطفال وحتى الراشدين البالغين وفي الجزء الاعلى من الذراع برفقـــة طلسمات يكتبها الطالب الحافظ للقرآن .

١ـ لدرجة ان فريق المدينة لكرة القدم يقوم بزيارة اسبوعية صبيحة كل جمعة يستجلب كرامة الولي " سيد الحاج عبد الكريم "

٢ـ عبد النائي مغاربي يقول بان " الخامسة تمثل بعدد الاصابع الخمسة " النبي ابن عمه علي فاطمة زوجته وولداهما الحسن والحسين " في كتابه

واذا كان في المناطق الاخرى من الجزائر تخصص لكل ولي في المزايا العلاجية . مثل ما هو الحال في منطقة تلمسان ونذكر منهم على سبيل المثال سيدى داودى بن ناصر بأغادير قرب تلمسان والمختص في علاج العقم الذى تزوره كل امراة عاقر لتستعيد عافية الانجاب . سيدى بوراس مختص في علاج الصداع . سيدى محمد بن يعقوب مختص في امراض العيون وهناك أولياء مختصون في علاج الأمراض النفسية مثل سيدى يعقوب سيدى علي بن مقيم وسيدى كانون(١) هذا بالنسبة لمنطقة تلمسان اما سعيدة فهذا غير وارد . فاى مريض يزور اى ولي يأمل في شفاءه مهما كان مرضه ، ويضطر الاهالي الى زيارة زوايا واولياء خارج المنطقة ومنها تلمسان بالذات(٢) وذلك عندما يستعصي شفاء المرضى ،كالنساء العواقر اللواتي يضطرن الى زيارة اولياء ذوى شهرة في علاج العقم .

وهذا لايعني ان الاهالي بهذا السلوك يديرون رؤوسهم للطب الحديث . بل ان الامراض التي تتطلب ربما وقتا طويلا للعلاج في المؤسسة الطبية الحديثة تبعث اليأس على الناس فيضطرون الى الالتفات الى المنفذ الوحيد وهو بركة الولي .

تذهب عائلة المريض الى ضريح الولي بصحبة المريض يذبحون الاضحية ديكا ،او خروفا حسب امكانية العائلة شريطة ان يكون القربان ذكرا وكذلك حسب مكانة الولي في سلم الكرامات يقيمون وليمة لزائرى الضريح يبيتون الليل قرب الضريح في الزاوية حتى يتمدد المريض ببركة الولي وتعفيه من سقمه واذا كان المريض امرأة عاقر

١- C.F. Abu Bakr Ben Choaib, "Marabouts guerisseurs" In: Revue africaine, V5, 1905

٢- C.F. Yvonne Turin, Affrontements Culturels en Algerie coloniale, economie, medecine religion, 1830-1889, Para, Paris, 1971.

امرأة عاقر فانها تنام قرب قبر الولي او فوقه (١) اذا امكن وقد اورد هيرودوت خبر هذه الظاهرة خمسة قرون قبل المسيح في مؤلفه " التواريخ "

وكثيرا ما نجد في الحويطات والاشجار التي تتعلوها احزمة للنساء تركت معلقة حتى تتحرر بطونهن لتنتفخ خصوبة وانجابا بفضل بركة الولي وتذكر فيفيانا باك ان " ان النساء يذهبن في سعيدة لزيارة سيدى عبدالقادر لطلب الصحة ، الخصوبة والمطر (...) ليتخلص النساء من عقرهن فانهن يتجهن ايضا الى السود : ويقمن بشبه اتحاد مع مايمثل الاسود العبد او ثور سيدى مرزوق رمزيا " (٢) .

سيدى مرزوق الذى يضاهي في الذاكرة الشعبية لدى السود في سعيدة سيدى بلال صاحب النبي " فتوسع اخوانية سيدى بلال تترجم على اساس الخصوبة : قال الله لسيدى بلال اينما تذهب تنجب اطفالا " (٣) لذا فان البحث عن الخصوبة من جانب النساء يتجه الى زيارة السود وزاويتهم المسماة من قبل الاهالي " بقربي الجماعة " التي تمثل سيدى مرزوق او سيدى بلال .
وبالنسبة للامراض المستعصية الشفاء فان زيارة الطالب ضرورية اذ يذهب اهل المريض الى الطالب هذا الاخير اذا لم تكن

١ـ في مقال صدر يوم ١٢ـ٧ـ٩٢ بالجزائر الجمهورية العدد ٤٨٣ يخبرنا صحفي في مقال عنونه " الصخر العجيب وشجرة الرجاء " ان النساء في ثوغراست ولاية تيزى وزو يقصدن مكانا كان يقف عنده كبار الاولياء واصبح مقدسا فيه صخرة تتسلق عليها النساء ومنهن العواقر طلبا للانجاب .

٢ـ -Viviana Pacques, l'arbre cosmique ..., op. cit P. 60

٣ـ -Ibidem.

اذا لم تكن له مقدرة اخراج " الجن " المسبب للمرض او الوسواس فانه يقوم بقراءات طقسية لآيات قرآنية يتفحص بعدها المريض ثم يأمر اهله بالذهاب به الى ولي وفي معظم الاحيان يكون من الاولياء الكبار وهو الذي يصف لهم كيفية تقديم الاضحية او القربان خروفا اوديكا اوعنزة حيث تذبح الاضحية قرب الضريح بالنسبة للاضحية الكبرى وفي بهو الضريح احيانا خاصة ان لم يوجد ضريح مبني وغالبا ما يتم في الحويطات ويقول او يعتقد الاهالي ان الجنون التي اصابت المريض تحب شرب الدم لكن اختلاط هذا الاخير ببركة الولي يحول دون اذاء الجن للمريض وتبعده عنه .

تقام وليمة من لحوم الاضحيات لصالح الفقراء ويتناول المريض احشاء ورئتا القربان اذا كان عنزة او خروفا وفي حالة ما اذا كان طيرا يحضر به حساء يتناوله المريض يعتقد الاهالي ان الجنون تتناوله معه دون ملح (٢)

١ـ المرض النفسي لدى المجتمعات البسيطة تقليدية والبدائية كذلك هو نتاج عملية سحرية بعثت في المريض الاوراح الشريرة لدى المسلمين فان تعايش الجن مع الانس طبيعي ويمكن في اى وقت تستحوذ على الانسان وساوس للجن فالاضطراب النفسي هو نتاج سكني الجنون ذاتا للمريض .

٢ـ ابو بكر بن شعيب يذكر نفس الممارسة في منطقة تلمسان في المرجع الذي ذكرناه سابقا .

٢ = الحفـــلات الموسميـــة :

تنقسم السنة لدى اهالي منطقة سعيدة ذات الاقتصاد الزراعي الى قسمين ،كل قسم يجمع موسمين .يتحدد القسم الاول ببدء سقوط المطر والبذر والقسم الثاني يبدأ منذ نضوج الزرع حتى حصاده .

تتقاسم القبائل مهام الاحتفال بزمني الفلاحة باحياء حفل يدعى " الوعدة " (٢). أتيمولوجيا فان الكلمة تعني الوعد من اصل "وعد " والتي معناها الوعد بشيء .او الالتزام بشيء " (٣) .

انها العهد الذى قطعته سلالة القبيلة مع جدها تحترمه وتقدسه وبالمقابل يعود عليها ببركة يرضي عليها ويحميها وتدوم الوعدة عادة يومان واحيانا سبعة . وتحي مرتان في السنة هناك وعدة تحييها قبيلة الكرامة على تخوم مدينة سعيدة في الجهة الشرقية وفي الجهة الجنوبية وعدة سيدى معمر وتحييها قبيلة الوهايبة بالاشتراك مع قبائل وعروش اخرى .

ويتقاسمان بذلك السنة الزراعية وعدة سيدى معمر تقام مع نهاية السنة الزراعية في نهاية الربيع وبداية الصيف وعدة سيدى الحاج عبدالكريم تقام مع بداية الخريف الاولى تاتي مع نضوج الزرع وبداية الحصاد والثانية تأتي مع الحرث والبذر .
فالزمن الاول يبدأ مع بداية الخريف ،وهو الزمن الحاسم في تهيئة الزرع وبذره فالاهالي يتجهون الى الولي لينزل بركته على الزرع تسقط الامطار حتى يكون الموسم خصبا وينضج الزرع وتأتي نهاية الربيع فتقام الوعدة كذلك دعاء للولي حتى يحمي الزرع من الآفات والكوارث ويتم نضج المحاصيل ليتم حصادها وجنيها صيفا كما ونوعا .

١- حول علاقة النمط الاقتصادي بتصور الزمن .أنظر: C.F. Pierre Bourdieu, Algerie 60, Minuit, Paris, 1977. CH I.

٢- في بعض مناطق الجزائر في الشرق تسمى نشرة وفي ريف هذه المناطق يطلق عليها زردة أنظر: Noureddine Touabi, Religion, Rites et mutations, op. cit.

٣- Ibid., P. 114.

وهنا تتجلى العبقرية الشعبية في استئناس الموت وفي ادماجه في سيرورة الحياة ، وتصبح الموت بذلك مصدرا للخصب والحياة تحت رعاية الجد .

كما ان وعادى عديدة تقوم هنا وهناك مع احترام التقسيم الزمني الآنف الذكر وهي وعدة عين المانعة تقيمها قبيلة الوهايبة (١) لوحدها تقربا لجدها سيدى احمد بن سن ديدة وتقام له مرتين في بداية الخريف وفي بداية الربيع كذلك . وهناك وعدتان تقام لمدة اسبوع كامل هي وعدة سيدى خليفة وتقيمها قبيلة الخلايفة ويبعد ضريحه بحوالي سبعين كلم جنوبا مدينة سعيدة .
ووعدة سيد الحاج بن عامر مي كذلك تدوم اسبوعا كاملا ربما راجع لمرتبة الولاية التي يمتلكها كل ولي منهما . تذهب كل عائلة ممن تدعي الانتساب الى الولي وتبني خيمتها - (الحبير) - باللغة المحلية قرب الولي وتذبح اضحيتها وتقيم وليمة اساسها الكسكس . وتدعو كل زائر لتناول الطعام المعدى الى الولي والمليئ ببركته .

وفي بعض " الوعادى " الهامة يقام حفل حقيقي فنيه الموسيقى ولعب البارود و" الفنتازية " حيث يتباهى الفرسان بعركوباتهم ويطلقون البارود في السماء (٢)

١- اقوى قبائل سعيدة تدعي الانتساب الى سلالة النبي محمد عن طريق سلالة الوهابيين بالسعودية .

٢- تروى عنه اساطير حول قدسيته حيث انه بمقدوره تحويل الاشياء النبات والانسان من حالة الى اخرى .

٣- تذهب فيفيانا باك الى ان اطلاق البارود هي اعادة لانفجار نجم اسطوري يلعب دورا كبيرا في تقسيم الزمن في العقلية الشعبية وهذا عندما تحلل ظاهرة اطلاق البارود عند السود في المنطقة ولا نعرف رمزيته في الوعادى التي يقيمها البيض .

٣ ـ العنـاصر الماديـة لعبادة الاجداد :

كل عبادة لها دعائمها المادية فاليهودية تستعمل المعبد اليهودى ليمارس فيه مؤمنيها شعائرهم . المسيحية تستعمل الكنيسة الشموع الماء وغير ذلك . ان كل عبادة كل طقس يتعامل مع عناصر مادية تشكل دعامته ومشحونة برمزية تحددها تجربة كل مجتمع يمارس تلك العبادة وتشكل لسانا (١) تواصليا يكمل العناصر الروحية معتقدات نموس كلمات حركات تدخل في تكوين الطقس وتشكيل بنيته .

اذ تدخل في طقوس عبادة الاجداد في المغرب العربي عامة ومنطقة سعيدة بصفة خاصة عناصر مادية مثل الضريح الذى يأخذ شكل القباب او الحويطات بالاضافة الى نباتات ومنها الشجرة بصفة خاصة اعلام قطع من القماش اوانى الى غير ذلك .

أ ـ الاضرحة (القباب) :

لاتبنى الاضرحة في اى مكان بل هناك امكنة ومواقع خاصة ومتميزة وعموما فان الضريح الذى هو مكان دفن الولي يقام في مكان اختاره هو " الشيخ يموت برائحة القداسة . يدفن في مكان خلوة اين كان ينزوى لغرض التعبد ، يدفن بطلب منه في هذا المكان الذى كان شاهدا على مشاهداته ومكاشفاته " (٢) .

فمكان الدفن هو المكان الذى وقع فيه الاتصال بين الولي والله (٣) انه مكان التقارب بينهما ويصبح ذلك بالتالي المكان مقدسا ومكان اتصال بين الناس والعالم الماورائي وفي غالب الاحيان تقام قباب دون وجود اى ضريح ولكن لاتكون هذه القبة في نفس اهمية الاضرحة الكبرى التي تحوى جثمان الولي .

---

١ ـ Luc de Heusch, "Pour une ritologie generale", Op.cit P. 219

٢ ـ Abdelhamid Benachenou, Connaissance du Maghreb, imp. de l'armee, Alger, 1971, P. 142.

٣ ـ قد يقام ضريح في مكان مر به الولي اثناء حياته ويقام كذلك ضريح على قبره حين مماته وهذا مايفسر وجود اكثر من ضريح لولي واحد وسيدى عبد الرحمان بوقبرين دليل على ذلك .

وفي منطقة سعيدة بالاضافة الى الاضرحة الكبرى " رجال البلاد" (١) توجد قباب صغيرة ذات اضرحة واخرى لاتحتوى على قبور وتغيب القبة في بعض الاحيان لتترك المجال لبناية بسيطة ذات اربعة جدران وسقف مائل بالقرميد.

ب- الاضرحة الكبرى:

تحيط بالمدينة عدة اضرحة منها ضريح سيدى الحاج عبدالكريم يقع غربا على الطريق المؤدى الى سيدى بلعباس على بعد خمس كيلومترات من المدينة وسيدى معمر جنوب المدينة على بعد سبعة كلم على الطريق المؤدى جنوبا الى السهوب وفي الريف الاعمق نجد ضريح سيدى الحاج بن عامر . في بلدة الحاسنة شرق المدينة على بعد اكثر من عشرين كيلومتر . وجنوبا في مدخل السهوب سيدى خلف الله . سيدى خليفة وهم عديدون .

تمتاز هذه الاضرحة بكبلر قاعدتها المربعة بابها المقوس وقبتها النصف كروية هلال ونجمة وفي كل زاوية توجد زائدة وقد تدرج بنائها على شكل سلم . وداخل البهو يتوسط الضريح الفضاء الفسيح في الداخل وقد احيط بشباك معدني مثلما هو عليه الحال بالنسبة لضريح سيد الحاج عبدالكريم . سيدى معمر غلف قبره بهيكل خشبي اخضر وقد غطي بقطعة من القماش الاخضر ونجد في معظم الاضرحة اعلاما خضراء وزرقاء واحيانا من مختلف الالوان وبجانب القبة ينتصب مبنى كبيرا يسمى بالزاوية وهي مكان للذكر والصلاة والتعليل وتظهر هذه الاضرحة على اجمل وجه مبنية بدقة ورصانة قلما نجدها في البنايات الموجهة للاحياء في الريف ولاغرابة في ان الحضارات البربرية الماقبل اسلامية - ماقبل الاسلام- في الجزائر تركت حيا بكل كبرياء كل ما بني للاحياء لم يصلنا الا القليل منه .

١- حماة المدينة من الاخطار التي تحيط بها فهي الاعين الحارسة للناس والعمارة ومعروف في المدن الكبرى الجزائرية ان لكل منها حارسها الجزائر العاصمة حارسها سيدى عبدالرحمان سيدى الهوارى في وهران انظر بهذا الصدد - Jaques Berque, L'interieur du Maghreb, Gallimard, Paris, 1978, P.55

وهكذا فان رجل الريف الجزائري قد تفنن في بناء " مقامات " لاوليائه (اجداده الاسطوريون) دون الاحياء الذين لم يكن لهم الحظ في الحياة تحت اسقف هذه البنايات الجميلة المبعثرة في حقول الريف الواسعة .

فالحضارة التي قامت في منطقة تيهرت(١) قرب منطقة سعيدة لم تترك لنا شاهدا عليها الا الجدارات (٢) التي اقيمت لتحتضن توابيت الاموات .

معظم الاضرحة مطلاة اما بالاخضر وحده او الابيض وحده واحيانا نجد اللونان معا . وقليل جدا ان نجد اضرحة مطلاة باللون الازرق وفي غالب الاحيان نشاهد على الجدار داخلا وخارجا صورة ليد طبعت بالحنة (٣) . وكل ضريح تنتصب قربه شجرة كبيرة او مجموعة من الاحجار .

ج- الاضرحة الصغيرة :

كثير ما نجد عبر الريف " مقامات " صغيرة تتراوح احجامها من الكبير الذي يتعدى علوه المترين بالنسبة للجدار بدون القبة الى الاصغر بقرابة النصف متر لايحتوي معظمها على قبور ومع ذلك بنيت لتصبح مزارا لكل من مر بقربها ،وتأخذ أسماء الاولياء كبار معروفين في الوسط الصوفي مثل قبة سيدي محمد الفحل ،للا سعيدة (٤)

١- CF: Katima Kadaria Kadra, les Djeddars, E.N.A.L, Alger, 1983.

٢- اكبر الاثار البربرية الباقية قبر تين هينان بالصحراء وقبر موريطانيا .

٣- يد لالا فاطمة تصد الاعين الحاسدة . ونجدها في حضارات اخرى في تعليقا في كتابه حول هذه الظاهرة على انها " موجودة في كل بقاع الارض جاءت منذ ما قبل التاريخ لانعرف عنها شيئا " ب : Ashley Morgan, Les premiers âges de l'homme, Marabout Université, Paris, 1974 P. 220.

٤- يجمع الاهالي على ان هذه الولية اعطت اسمها للمدينة مع غياب أي قبر مهما كان شكله ويقول الاهالي ايضا ان الضريح بني على قبر دفنت فيه "كلبة " ربما هذا للتأثير فيمن يؤمنون بوجودها "كولية" اللذين يزورنها بانتظام . الا ان الضريح قد تم هدمه في السنوات الاخيرة من قبل المجموعات الاصولية الداعية الى العودة الى الدعائم الاولى للدين .

لا سعيدة عن هذه الاخيرة يقول الاهالي انها اقيمت على قبر لكلبة دفنت عند موتها وان جهل الناس ادى بهم الى بناء ضريح حولها واصبحت محط زيارة النساء . وعموما فان بناء هذه الاضرحة والقباب وهذه " المقامات " ليس غريبا عما كان يفعله الاولياء اثناء حياتهم حيث ان هذه "المقامات" تبنى في اماكن لمجرد كونها في يوم من الايام كانت مكانا اخذ فيه الولي قسطا من الراحة او لاداء صلاته " (١).

وفي بعض الاحيان توجد مقامات باسماء اولياء ،لم يعيشوا البتة ولم يمروا بهذه المنطقة ابدا مثل مولاى عبدالقادر الجيلالي " سلطانا الاولياء " مثل ما يلقبه به اهل المنطقة وانما بناء هذه "المقامات (٢) يبقى تعبير عن احترام قدسي لشخص هذا الولي اذ يحصي الرائد كوفي في مقاله المذكور في الهامش والصادر بالمجلة الافريقية بوجود اكثر من مائتا مقام مخصص لعبد القادر الجيلالي.

بالاضافة الى هذه القباب التي ذكرنا توجد مباني مربعة لاتعلوها قباب اسطحها من القرميد الاحمر العادى وفي الغالب موجهة هذه البنايات لشخصيات صوفية غير ذات اهمية في سلم الاقطابيات (٣)

١- Commandant Cuvet, "Marabout, monument votif en Afrique du nord" In: Revue africaine vol64, P.279 Kraus Reprint, op. cit

٢- الاسم الذي يطلقه الاهالي على هذه المباني

٣- اضرحة الجد المنتسب اليه قبيلة من القبائل او مجموعة منها تجد ضريحه اكثر فخامة وبهاء ولكل ضريح من هذه الاضرحة يمين "المقدم" الذي يخدمه .

د - الحويطات :

- وهي عبارة عن ركامات من الصخر وقد اخذت الشكل المربع او الدائرة ولايعدو علو جدارها المتر وتوجد عبر حقول الريف (١) مبعثرة هنا وهناك وفي غالب الاحيان تطلى هذه الاحجار بالجير الابيض وتسمى احيانا باسماء للاولياء سيدى فلان وسيدى فلان . وهي مكان لزيارة كل من يقربها او يمر عليها . تبنى هذه الحويطات عادة عند جذع شجرة . ويستعملها الاهالي مصلى لاداء اى صلاة من الصلوات .

و - الاواني ووسائل الانارة :

في الحويطات نجد اغلب الاحيان اواني معدنية قديمة صحون ،وسائل انارة بالبترول واواني للقهوة ،كما نجد شموعا منطفئة وآثار لذوبانها يضعها الزوار تشتعل قربانا للوالي وعندما سئلنا احدى النسوة اللواتي يزرن اضرحة الاجداد او الحويطات عن سبب اشعال الشمعة ووضعها داخل الضريح او الحويطة اجابت على انها فعلت ذلك لتشعل او تلهب قلب احدى النساء والتي ظلمتها .

هـ القماش على غصن الشجرة المقدسة :

عندما نلحظ جيدا اغصان الشجرة فاننا نرى خرقا قطعا من القماش وقد ربطت على الغصن . وتأخذ هذه القطع من القماش مختلف الالوان والاشكال وتقوم النساء خاصة بهذا العمل . والعقدة بنظر النسوة اللواتي يربطن قطع القماش هي ايقاف الشيء حسب نية كل امرئ وعبارة الدعاء التي يتلفظ بها كأن يطلب ايقاف المرض عن قريب له او ايقاف الجبر والحظ لعدوه وما الى ذلك .

١= الفلاحون عندما يستصلحون حقولهم يراكمون الحجارة تلقائيا تحت جذوع الاشجار واحيانا بوعي وكأنهم بصدد الجمع بين الزوجين شجرة حجارة .

- عبـادة الاجـداد لدى شعوب اخرى -

منذ فجر التاريخ يطالعنا علماء الحفريات على اثر عبادة الاموات من دولمينات فرنسا الى قباب المغرب وجدارات فرندة في جزءه الاوسط.

وتطالعنا الابحاث الانثربولوجية على اخبار الشعوب الاخرى التي تمارس نفس الطقس وان بطرق واشكال اخرى في جزر سليمان بالمحيط الهادى اقيم مخصصا لاستقبال الرماد. (تحرق وتحمل الارملة الرماد في صدفة (١) الى دارها في مكان عند بركان بافانا ، ثم تتعود على المجيء مرتين لاخر لتزور اقاربها في القرية وذلك في مبنى صغير خصص لها لتقييم فيه قرب منزل الاقارب تقدم لها قربانا واضحيات يقوم الاقرباء بالدعاء للميت مع ذكر مطارته الفنية ، والتقنية اثناء حياته. قبل تناول الوجبة العائلية وقبلا للذهاب الى الصيد تقدم الاطعمة في آنية من طين مع الدعاء اليه " انظر الينا بعين راعية .... تسهل علينا بالصيد الوافر للخنازير اجعل شباكنا ملئ بالاسماك وتوجد عبر كامل الجزيرة هذه المقامات الصغيرة والمغطاة باوراق النخيل واحيانا يقطع خشبية منحوتة فتعلق عليها باقات الورق. والتي من المفروض انها تمثل اقامة هنيئة للارواح وتوجد كذلك قرب هذه المقامات فكوك خنازير. قدمت كاضحية للميت" (٢).

وتبدو على هذه الصورة طقوس عبادة الاجداد (٣) بسيطة لدى شعوب

١- لقد رأينا في الفصل السابق كيف ان الصدفة ترمز للميلاد او الميلاد الثاني وهي ترمز في هذه الحالة الى الميلاد الثاني للميت حيث وضع الرماد داخلها

- Patrick Oreilly, "Les iles salomons, InEthnologie regionale I, Gallimard, Paris, 1972, P.1189

٢- يجب التفريق بين " عبادة الاموات - وعبارة احترام هي اكثر صدقا والتي تتجلى عبر سلوكات الأفراد ابان الجنازة والرعاية المحاطة برفات الميت والتي تعتبر دعامة لكل طقس جنائزي محترم اصيل وحتى التقنيات الخاصة بالتطهير الجثة هذا منجهة ومنجهة اخرى عبادة الاجداد التي هي موقف ديني تجاه الاموات والذي يعتمد على فكرة صحيحة مفادها ان الانسان عنصر من اللاهوت هو صورة الله ، وانه اكتسب كيانا روحيا من عند الله " وهذه الفكرة تتناسب حقا مع عبادة الاجداد الاولياء في المغرب العربي هذه الفقرة لـ: Louis vincent thomas, " Les societes levant La mort " in: Encyclopedie universelle, vol:11. P.355

لدى شعوب أوقيانيا ، كما اوردنا حيث ان كل ميت يصبح موضوع عبادة اذ تقيم كل عائلة مقاما لموتاها ويصبح الميت على اثر ذلك مصدر حظ ومساعدة في الصيد وليس للميت ابان حياته صفة خاصة اثناء حياته ماعدا كونه كان صاحب مهارة تقنية ضف لكونه اب لعائلة وهذه الاخيرة الوحيدة التي تقدم له القرابين وتوجه له دعاءها ويبدو هنا عبادة الاموات ممارسة اجتماعيا ، اذ تمارس على مستوى جماعة مصغرة هي العائلة باتجاه معيلها الميت وهو الاب .

وفي غينيا الجديدة تمارس عبادة الاجداد على الشكل التالي "عبادة الاجداد لها دور اساسي في كل البلاد وهناك اختلاف ثقافي بين سكان الجبال وسكان السواحل . سكان الجبال يعبدون اساسا الاجداد القدامى الذين يعتبرونهم مصدر سعادتهم وحمايتهم ويوكلون الى الموتى الجدد وظائف العادلين والقاسطين او المنصفين يعذبون من ظلم وعمل شرا ، بينما يضع سكان السواحل الاجداد القدامى طي النسيان ويعبدوا الاموات الجدد الذين يعتبرونهم اكثر رحمة عليهم "(١)

سكان غينيا الجديدة ابعد الناس عن العالم القديم ولكن رغم ذلك يمارسون طقوس عبادة الاجداد مثلهم مثل العالم القديم .

-Francois Girard, "La nouvelle Guinée", In. Ethnologie regionale I, op. cit, P. 1089-1090.

عبادة الاجداد تمارس من مغارق الارض الى مغاربها لوى ق طوما يخبرنا ان :

" عبادة الاجداد اقدم ديانة مارسها الصينيون . الفسنة قبل المسيح (...) الاجداد الاموسيون هم وحدهم الجذيرون بالعودة للحياة وهم وحدهم موضوع العبادة "(١) ومع تطور الزمن احتل الحدادون مكانة مرموقة في المجتمع واصبح دور الرجل مهما عكس المرحلة الاولى حيث كان للمرأة الاحقية الاجتماعية وحدث تحول رئيسي اصبح على اثره " الاجداد الابويون والذين مازال الصينيون يحتفلون بذكرياتهم عند طريق الواح وضعت على مقامهم . وتوضع القرابين اذ يقدمها اب الجماعة العائلية ويبقى الجد النموذج الواجب اتباعه وكلما قام الحي بانجاز فاذا فان الجدد هو الذي يقلد " (٢) كما ان اليابانيين يقدسون " الكامي " او ارواح العائلة العشيرة او الامة (اجداد الامبراطور) .-٣-

ومن آسيا الى امريكا اللاتينية وفي البرازيل بالضبط يروى لنا جان زيقلر قصة طقس ديني خاص تمارسه مجوعة افريقية مورد كامل النص حيث يتم اللقاء بين الاموات (ايجون) والاحياء في " دار منقسمة الى الى فضائين احدهما مخصص للاموات والاخر مخصص للاحياء . فضاء الاحياء منقسم الى اثنين بواسطة قضيب خشبي يميننا ، الرجال ، الشيوخ الاطفال ، الذكور جالسين على مقاعد من خشب الى اليسار النساء ممتدات على حصائر لايظهرون الا الاوجه الايدى والارجل من تحت لحوف بيضاء (...) في وسط الدار عمود يحدد الفضاء المخصص للاموات (ايجون) والفضاء المخصص للاحياء . انطونيو الملك الراهب جالس عند العمود (...) احد الحاضرين يمرر صحونا توضع فيها نقود ترجع بعد ذلك الى الملك . الراهب الذي يلمس الارض بجبينه وفمه ، ثم سمع ضجيج في عمق القاعة ، رجال مهمتهم الضرب على الارض المحيطة بدار الاموات بواسطة العصى لابعاد ايجون (الاموات / من حول الدار حتى يتسنى للناس الدخول اليها ، ثم تغلق الابواب والنوافذ لايخرج احد ولايدخل حتى الصباح من اليوم الموالي.

١- Louis v. Thomas, les societes devant..., O.P.cit, P355.

٢- Ibidem.

٣- سنرى ارتباط عبادة الاولياء كيف تحدد مكانة القبائل في البنية الاجتماعية . حيث يتحدد دورها السياسي، من خلال انتمائها الى هذا الجد او ذاك.

تدق الطبول تفتح الابواب وتسمع اصوات غريبة ومرعبة بالنسبة للحاضرين انها اصوات امواتهم . ثم يظهر الاموات الواحد تلو الاخر عددهم خمسة يدورون كل واحد دورة كاملة نفسه ثم يجلسون على كراسي في الفضاء المخصص لهم . الايجون اجبولا موضوع على رأسه تاج من معدن انه الجد الرئيسي للعشيرة هو زعيم الاموات هذه الليلة لباسهم يغطي كامل اجسامهم لايظهر اى شئ يوحي بانسانيتهم(١)

يبدأ زعيم الايجون بالكلام باتجاه العائلات الحاضرة ويتحادث مع كل رب عائلة سأل عن اخبار اولاده انه اب الجميع ويبلغهم تحية الاجداد الاخرين الذين لم يحضروا هذه الليلة ويطمئنهم بالحب الذى يكنونه لهم ثم بعد ذلك يجيب عما يسول - يأمر ينصح ويحذر في اغلب الاحيان (٢)"

وكونية عبادة الاجداد كشفتها الحفريات المختلفة التي عرفت بائدة متعددة في مختلف بقاع الارض . فمن ضمن عناصر انتقال الانسان من الطبيعة الى الثقافة هي التعامل مع الموت الذى يعتبر الارهاص الاول لتفكير ميتافيزيقي (٣) حيث يدفن الميت او يحرق وتوضع رفاته في اماكن خاصة قبور أو بنايات وتوضع معها قرابين واعطيات يستعملها الميت في خوض رحلته الى العالم الاخر عالم الارواح . ولازالت هذه المعتقدات التي تعد زمنيا من ملامح الفجر الاول للانسانية بالنسبة للمجتمعات المتقدمة تاريخيا . تمارس في المجتمعات المسماة بدائية كما اسلفنا الذكر.

١ـ مادامت عبادة الاجداد الاجداد موقفا وممارسة دينية فان الجد موضوع العبادة يجب ان يتخذ صفة متعالية على كل صفات البشر لضمان قدسيته
-Jean Ziegler, Les vivants..., op. cit. p. 194

٢ـ في كلامه عن المدفن القديم لدى بربر ما قبل التاريخ يقول قبرائيل كامبس في كتابه الذى سنذكره فيما بعد " هذه المواقف تفيد اولا اعطاء مدفن للاموات وتعتبر هذه الدليل الاركيولوجي لوجود دين مرتبط بالاموات "

عبادة الاجداد هذه التي تتزامن والتصورات الاولى لشخصية الانسان حيث لامعنى للروح التي هي مفهوم اتت به لاحقا الديانات الكتابية ،حيث ان التصورات الاولى لشخصية الانسان مزدوجة ،الانسان وقرينه ،(١) لكل شخص قرين ،الفرد الواقعي المحسوس له قرين غير محسوس لم يغادر الشخص عند موته ويمكن ان يغادره عندالموت حيث ان البدائي كان يظن ان رؤية شخصه في الحلم هو خروج قرينه عن ذاته وبالتالي موته الموقت اثناء نومه . ولازال نلحظ تأثير هذا التصور حتى في ديانة كتابية راقية كالاسلام .

" الله يتوفى الانفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الاخرى الى اجل مسمى " (٢)

اذن المعتقد الاول المتعلق بالموت ، كان يرتكز على مفهوم القرين حيث عندما يموت الشخص ينفصل عنه قرينه ليستقر في عالم الارواح ،التي كانت تتميز بقوة تأثير كبيرة على عالم الاحياء وما زال هذا الاعتقاد حاضر الى اليوم رغم قدمه ،والانتشار الواسع للديانات الكتابية والتي اتت بمفهوم مخالف للموت والحياة .

ان قدم هذا المعتقد يتزامن ونشأة الانسان العاقل (٣) ذاته حيث بنيت للقرين معابد خاصة دولمينات مناهير وغيرها والتي عثر عليها علماء الاثار في عدة مناطق من العالم ؛ اوربا افريقيا اوقيانوسيا وكوريا في آسيا . وتعتبر هذه البناءات اولى ارهاصات المعمار بصفة عامة والمعمار الديني بصفة خاصة وينسب علماء الاثار هذه البنايات الى ما يسمى بالحظارة المينالية التي تتميز بالبناءات الضخمة فبالاضافة الى الدولمينات فان هناك نوع اخر من البنايات وهي المنهر ،الكروملیش والبولهين.

١- انظر: Jean pierre vernant, Mythe et pensée chez les Grecs, Maspero, Paris, 1978. P. 65-78
اليونانيون القدامى يطلقون على القرين اسم "كولوسوس"
GF: Edgar Morin, L'Homme et la mort, Point, le chapitre: 2.

٢- سورة زمر يفسر ابن عباس الاية حرفيا " الله يتوفى الانفس- يقبض ارواح الانفس (حين موتها) حين منامها (والتي لم تمت) ايضا (في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الاخرى (التي لم تمت في منامها) الى اجل مسمى في كتابه: تنوير المقياس، ص٣٧٩، دار الكتب بيروت .

٣- يقول قبرائيل كامبس " انا ولى المعمارات الحجرية الحقيقية المحفوظة الى يومنا في الغرب هي المباني الجنائزية " ص٢٩٤ من كتابه —
Manuel de recherches prehistoriques, Doin editeurs, Paris, 1981.

في مختلف مناطق الجزائر شرقها وغربها في الوسط وفي الجنوب وتتعدد هذه الاثار وتتنوع من دولمينات بازينات الى مغارات وقبور عادية . وقد وجدت داخلها هياكل عظمية عظمية في مختلف الوضعيات من الانكماش على شكل الجنين الى الامتداد بالاضافة الى رزم من العظام وجدت موضوعة في اواني فخارية وقد عثر على قرابين متعددة ، هياكل احصنة كلاب واغنام قرب هياكل الاموات بالاضافة الى اواني فخارية محلي واسلحة (١) كان يستعملها الشخص الميت في حياته .

وكان الثور حاضرا كقربان اساسي في عدة مناطق من الجزائر ما قبل التاريخ حيث يقول جبرائيل كامبس :

" ضمن الحيوانات الاليفة ، الثور كان اكثر تمثيلا : اذ عثر على عدة عظام بقر في ثلاثة عشرة امكنة مختلفة (...) فاللحم المفضل حتى الآن في جنوب المغرب الاقصى هو لحم البقر وفي نفس هذه المناطق الجبلية فان مجرد ادعية آمين تصحبها اضحية وهي ثور صغير (...) اغلب القبور التي تحوي هذه الاضحيات من القرابين تقع جنوب تيارت ووجدة (...) واكثر من ذلك فان اثار اضحيات البقر وجدت في جهات بعيدة من جنوب غرب الجزائر في منطقة عين الصفراء عين الصفراء والمناطق الشرقية الاستبسية بولاد جلال (عين الحمراء) "(٢)

ان وجود هذه القرابين المقدمة للاموات وخاصة في غرب الجزائر حيث تشهد على روية للموت تجعل من الميت شخصا مسافرا الى عالم الاجداد والارواح وجب تموينه بزاد يتقوت منه ، وهذا دليل على وجود ايمان بالقرين هذا الاعتقاد الذي نعتبره اساسيا في بنية عبادة الاجداد وما دام المؤلف يؤكد على وجود هذه الاثار في الغرب فانه من غير المستبعد ان توجد اثارها في منطقة سعيدة .(٣)

١- في كتابه Manuel de recherche يعرض فيه كامبس نماذج لدولمينات وجدت في عدة مناطق من الجزائر بالاضافة الى صور ورسومات تعرض بقايا الهياكل الانسانية واشكال دفنها واثار لقبور عديدة وقرابين حيوانية بالاضافة الى حلي واسلحة .

٢- Gabriel Camps, Aux origines de la berbérie, op.cit, P.508-509

٣- C.F, Labanchere, Archives de Missions serie III T.10 وحيث نطلع على وجود مقبرة (نيكروبول) يقع على هضبة حيث عشرات البازينات لازالت على احسن حال .

ان عبادة الاجداد ،كأول تفكير ميتافيزيقي شامل حول الكون ، أرست قواعد الاستقرار والمدينة والتأمل في طبيعة هذا الكون ،لعبت دورا كبيرا في دينامية البناء الحضاري ، ويولي مونفود اهتماما بالاضحة الاولى ، كأول نمط معماري حيث اهتم انسانها قبل التاريخ ،وحتى يومنا هذا باقامة مباني لموتاه وافخم وابهى من منازله وديار حياته . وانسان المغرب يبين لنا هذا عبر ما تركه من آثار لمباني امواته ،وهذا ما سنراه بالنسبة لجدارات منطقة تيارت في ضواحي فرندة ،والمحاذية لسعيدة وبالضبط في جبال الاخضر .

الجدار هي التسمية العربية (١) لهذه البناءات المقبية بمعنى الحيطان ،وقد يكون لها اسما بربريا اختفى من اللغة ليعوض باللفظة العربية . تقع هذه البناءات على رأس هضبة (٢) اي على مرتفع . وهي عبارة عن بناءات جنائزية وملحقات تعبدية ، وان كانت تشبه مثيلاتها في باقي شمال افريقيا الا انها حسب الباحثة " تختلف عنها وتمثل ابداعا اصيلا . تراكب البنى الداخلية وتسويات خارجية تمثل مجموعة خاصة بهذه البناءات ، خطط داخلية غير موجودة في البناءات الاخرى ، تراتب عناصر بربرية تطبع هذه البناءات بصفة الاصالة (٠٠) البناء الرئيسي الموجه لاغراض جنائزية شكلها الخارجي يشبه البازينات ذات درجات رباعية الزوايا . مشكلة من عناصر معمارية مختلفة (٣) كما وجدت قرب بعضها صفائح صخرية وضعت لاستقبال القرابين ومما يدل على انها امكنة للعبادة هي توجه ابوابها ودهاليزها الى الشرق .

١- Fatima Kadaria Kadra, Les Djeddars, E.N.A.L, Alger 1983, P07

٢- Ibid, P. 25

٣- C.F. Herodote, histoires, o.Pcit

" انه لايدعو للدهشة حيث ان الاضرحة الكبرى في الجزائر ،مدغاسن قبر الرومية ضريح بلاد قيطون فاذا كانت هذه البناءات غير موجهة بحد ذاتها فان أروقتها ودهاليزها موجهة في اغلب الحالات نحو الشرق لدرجة تجعلنا نقيم العلاقة بين القاعدة المتبعة بشكل شديد بالنسبة للعناصر التعبدية ونفكر في وجود علاقة بين عبادة الاموات والشمس . هذه العلاقة قد تؤكدها شهادة هيرودوت الذى يشير الى عبادة الشمس عند الليبيين ومن جهة اخرى وثائق أثرية تشير الى رسوم للقرص الشمسي في العديد من البناءات " (١) كما ان الباحثة كشفت على هذه الاثار كشفت عن رسومات ورموز مسيحية كالصليب كما يجمع معظم المورخين ان هذه الاضرحة التعبدية اقيمت ابان القرن الخامس وتشهد هذه البناءات على وجود مملكة بربرية مسيحية في منطقة سرسو فيما يسمى بموريتانيا القيصرية . كما ان العثور على كتابات لاتينية تشهد على تواجد لاتيني انذاك في هذه المنطقة وهذا دليل على ان المسيحية عندما دخلت البلاد لم تستطيع القضاء على المعتقدات القديمة والتي تجسدها هذه الجدارات بل تعايشت معها ولازالت حتى وقت قريب هذه البناءات الجنائزية محل اعتقاد نظرا لطابعها المقدس حيث ان احد الشيوخ الزهاد اقام بهذه المنطقة سنة ١٩٦٦ واقام ١٣ زاوية في ١٣ جدار وباتت هذه الجدارات محل زيارات النساء (٢) وهذا دليل على ان الذاكرة الجمعية لاتنقطع .

وتشهد الباحثة بكامبس الذى يقربانا الاضرحة والبناءات الجنائزية كانت محل تعبد حيث يقيم الناس فيها الليالي تقربا وتعبدا للاجداد استنادا الى ماذكره هيرودوت وعن غرفتين ملازمتين لكل جد اذ تقول الباحثة " انها مهيئة لممارسة تعبدية ،فالمقاعد الموجودة داخلها كانت تستعمل بدون شك لراحة الزائر الراغب في الميت في الضريح " (٣) وهذا مايتأكد من خلال ممارسات الحاضر وشهادات مورخ اليوناني الذى ذكرنا فيما قبل شهادته حول ممارسة عبادة الاجداد خمس مائة سنة قبل المسيح .

١- Fatima Kadria Kadra, Les Djeddars, op.cit, P.342

٢- Ibid, P.29

٣- Ibid, P.348

فكما رأينا فان عبادة الاجداد يقدمها قدم الدولمينات في المغرب قد تأقلمت مع مستجدات الدين المسيحي الذي تعايشت معه وهذا عبر جدارات منطقة تيارت وكان لها نفس المصير مع الاسلام الذي يقضي عليها . بل تعايش وتعامل معها واكثر من ذلك لقد اصبحت قاعدة الاسلام شعبي ضارب في اعماق الثقافة الريفية .(١)

لكن كيف تكونت قاعدة هذا الاسلام الشعبي الذي نشاهد تجلياته اليوم في المعتقدات الشعبية طقوس ممارسات قدسية باتجاه اضرحة الاولياء وانتشار الزوايا والطرق عبر كل الجزائر من الشاذلية الى الطيبية اذن من هم هؤلاء الاولياء الذين تقدم لهم القرابين

انهم اولياء الله جمع (ولي) ليست هذه الكلمة غريبة عن الاسلام يذكر الاسلام في عدة مواضيع من القرآن هؤلاء كأشخاص مقربين لله لكن الاسلام الصوفي ولي تعني المقرب اي المقرب لله . لكن الاتجاه الصوفي اعطى لهذا المفهوم بعدا عظيما حيث فضل مقام الولي على مقام النبي حيث ان " الرسل مبشرون ومنذرون والورثة منذرون خاصة لامبشرون لكنهم مبشرون اسم مفعول فاذا بشر الولي احدا بالسعادة فما هو في هذا الباب مبلغ البشارة في ذلك بتعيين السعيد . وبشارة الانبياء متعلقة بالعمل المشروع وهو ان من عمل كذا كان له كذا في الجنة او نجاه الله من النار بعمل كذا ... وله (اي الولي ان يعطي تعيين السعيد لامن حيث العمل فيقول في الكافر وهو في حال كفره انه سعيد ، وفي المؤمن في حال ايمانه انه شقي فيختم لكل واحد بالسبب الموجود لسعادته وشقاوته تصديقا لقول الولي " (٢)

١ـ نعارض هنا رؤية طوالبي للظاهرة التي يعتبرها مجرد حماسية للتقاليد في غياب النموذج الثقافي في الريف " بالعكس فان المسألة اعمق من ذلك عبادة الاجداد هي النموذج الثقافي بامتياز في الريف الجزائري

٢ـ حسين فرج " نظرية النبوة عند ابن عربي" ـ دراسات عربية عدد ٣ ، ١٩٨٩ ، ص ٤٨ .

فالنبي قد يحدد قواعد شرعية عامة اسندت له من قبل الله وما عليه الا البلاغ فالشرع يبلغ للناس ولازوم للنبي ان يكون عالما بما يختبئ تحت نوايا الناس ولافهم طبائعهم المتخفية وعلى الخلاف من ذلك فان الولي يستطيع تعيين السعيد وان كان كافرا اى لايتبع قواعد الشرع والشقي وان كان مسلما لان الايمان الخفي (١) وهو الحق هو الذى يأخذ بعين الاعتبار لان لديه علم الخفايا .

وقصة النبي موسى مع الخضر اصدق مثال على ذلك فالنبي مهمته محددة مكانا وزمانا فاذا بلغ فانتهى فان مهمته انتهت بينما مهمة الولي خالدة اذ انه في اتصال مباشر مع الله .

" اسم ولاية مشتقة من ولي والتي تعني اقرب ، نفرق بين نوعين من الولايات احداها عامة والاخرى خاصة النوع العام هو المشترك بين كل الخلق المؤمن (...) والخاص وهو ولاية الذين وصلوا الى المعرفة وتعني هذه الولاية الخاصة حالة من فناء العبد في الحق وبقاءه فيه فالولي هو الفاني فيه والباقي فيه ، الفناء هو نهاية الانجذاب نحو الله والبقاء هو بداية الانجذاب في الله " (٢)

واذن فان الولي ليس مقصده بالزهد مقاربة الله فحسب فناء فيه بل هو ولوج في روح الله ، والبقاء فيها وهو بذلك يتسم بالوهة من حيث ان الله أوكل اليه من وحيه " (٣)

اذن الولي هو من غرق في التعبد والزهد لله حتى درجة الفناء فيه ، بالتنازل عن متاع الدنيا ومغرياتها ، وادارة الوجه لله دون مقابل سوى الحب المتفاني . وعرف المتصوفون الذين ينسبون لأنفسهم الولاية بالتقشف والزهد في الحياة لدرجة ان التصوف اشتق من " الصوف الذى كانوا يلبسونه على شكل عباءات متواضعة كرد فعل ضد مظاهر البذخ ولباس الحلية والحرير التي هي من مغريات الدنيا تضيع وتتيه النفس عن طريق الله" (٤)

١- يفرق المتصوفة بين الاسلام والايمان او الشرع والايمان والباطن والظاهر حيث يقولون بان حقيقة الاسلام ليست في ظاهر النص القرآني بل في ما وراء السطور وهو الباطن فالظاهر هو الشرع والباطن هو الايمان والحق هو هذا الاخير

٢- Abderrahmane El jami, Vie des soufis trad, Sylvestre de saly, Sindbad, Paris, 1977, P.41

٣- في كتابه فصوص الحكم يدعي محي الدين ابن عربي انه رأى في الحلم النبي محمد وهو يمد اليه الكتاب ذاته موصيا اياه بكتابته ونشره على الناس

٤- Abderrahmane El jami, Vie des soufis, Op. cit, P.21

والاولياء طبقات فمنهم " القطب والافراد والنقباء والغوث والامام والبدل والخليفة والوتد كما يسميهم ابن عربي ولكل من هؤلاء خصائص تميزه عن غيره " (١) ولكل طبقة ترتيب حسب درجة قربها من الله والكرامات التي تملكها كل طبقة من هؤلاء " (٢) لانريد الخوض هنا في فلسفة التصوف لكن نحاول ان نلقي الضوء على اهم مايتميز به الاولياء من خصائص عن باقي العباد.

يقول السهروردي شهاب الدين ابو حفص عمر والذي يعتبر قطبا في الصوفية وقد ذكره الجامي في كتابه حياة المتصوفة .

" نعتقد ان الاولياء من ضمن امة محمد (...) يتلقون كرامة سماوية بصلواتهم كل مايطلبون نفس الشيء كان يحدث في زمن الرسل كل واحد منهم كان له اتباع كرامة خاصة من الله وفعلوا اشياء خارقة للعادة هذه الرعاية التي خص بها الله الاولياء هي تكملة لمعجزات الانبياء " (٣)

الاصل التاريخي لعبادة الاولياء التي ماهي الا متغير لعبادة الاجداد الكونية كما مر معنا . والضاربة بجذورها في اعماق التاريخ المغاربي ولازالت قائمة على شكل عبادة للاولياء والحقيقة انه منذ دخول الاسلام لبلاد المغرب (٤) فان الظاهرة لم تفتأ ان لبست الزي الاسلامي اذ يعتبر اول مسلم دخل الى الجزائر منتصرا هو عقبة ابن نافع من اكبر قادة الجيوش الاسلامية الفاتحة الا انه فلما توفي مقتولا في احدى المعارك اقام له اهالي المنطقة ضريحا سموه " سيدي عقبة " حيث اصبح مكانا للحج والتبرك من قبل الاهالي.

١- حسين فرج ، مرجع ص ٤٧

٢- يذكر ١٣ طبقة من الاولياء فبعد القطب الثوري والغوث ويمثلان الرتبة الاسمى يأتي الاقطاب اهل العاصفة الاوتاد الاسلاك المعجوبون اهل الخطوة الطيارين ارباب الكشف الابدال النجباء النقباء اصحاب الكبد اهل الحذرة وكل اسم من هذه الاسماء يوحي بوظائف كل ولي من هذه الطبقات cf Noreddine Boubli Religion et rites op.cit
Abderrahman El Jami La vie des saints op.cit

٣- يذكر المنكرلي في كتابه - المغرب في بلاد افريقيا والمغرب - ترجمة دسلان ميزونيف باريس ١٩٦٥ ص ١٠١ - ١٠٢ ممارسات متعلقة بالتنجيم والمعالجة عن طريق السحر ، تفجير العيون للماء في الارض والتي تتعلق كما ذكرنا بعبادة الاولياء والتي يقوم بها هؤلاء احياء .

لكن البداية الحاسمة لهذه الظاهرة صاحبت الهجرة المكثفة لاهالي الاندلس الى المغرب بعدما ضعفت الدولة وانقسامها الى ممالك ضعيفة اصبحت محل مطامع الملك المسيحيين .

وقبل ذلك (٢) كان المهاجرون الاندلسيون والتجار ورجال الدين يتوافدون على بلاد المغرب حاملين معهم الافكار الدينية الجديدة التي ابدعها مفكرو وفلاسفة التصوف ضف الى ذلك كون دولتي المرابطين والموحديين طالت سلطتهم في بلاد الاندلس لحمايتها من غزو الأعراء والملوك المسيحيين كل هذا حفز على تحول الفكر الصوفي الى الفضاء الثقافي المغربي حيث دخله اولياء كبار فيهم حواضر المغرب والجزائر خاصة ونذكر اهمهم سيدي الشيخ محمد المغراوي الهواري دفين مدينة وهران وحارسها ويصفه محمد الزياني في كتابه دليل الحيران وأنيس السهران في اخبار مدينة وهران ب " قطب الاولياء ورئيس الزهاد الاتقياء وعالم وهران وعاملها ورفيع الدرجات وكاملها . صاحب الكرامة الظاهرة ،والعلوم الوافرة والاسرار الحاضرة المقطوع بولايته باتفاق " (٢) وعن نفس الكائن ان الشيخ الهواري نفسه ينصح بان " الدعاء عند قبر ابي مدين مستجاب " (٣) قاصدا سيدي بومدين دفين مدينة تلمسان بقرية العباد . ويخبرنا نفس الكاتب كيف ان اهالي تافيلالت بالمغرب الاقصى على موطن دفن جثمان احد الاولياء لولا تدخل احد الاولياء الاحياء فأل عن وسط سجلماسة كمكان مجايد يستطيع فيه الولي الميت ان ينشر فضله على جميع بلاد تافيلالت " (٤)

مما يدل على ظهور عبادة الاولياء في وقت مبكر وفي القرن الرابع والخامس عشر وقع حدثا هام في تاريخ المغرب الثقافي وهو اتوافد مهاجري الاندلس على بلاد المغرب هروبا من القمع الذي شهدوه من ملوك اسبانيا . وكان فضل هذه الهجرة كبير على اهالي المغرب اذ ان هجرة الاندلسين كانت هجرة عقول مدبرة وفنون راقية انتجتها حضارة الاندلس .

١- E.F. Henri Lhote, Les touaregs du Hoggar, Armand Colin PARIS 1984

٢- محمد بن يوسف الزياني دليل الحيران وانيس السهران في اخبار مدينة وهران - ش و ن ت الجزائر ١٩٧٩ ص ٣٧ عاش هذا الكاتب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

٣- نفس المرجع ص ١٥٣

ونذكر بعض ما جاء عن فضل مهاجرة الاندلس على حضائر المغرب العربي ومنها بجاية على سبيل المثال التي اتخذها ملوك الحماديين عاصمة لهم اصبحت محط رجال الاندلسيين الذين اصبحوا يشكلون نسبة كبيرة من سكانها ثم ا عندما الحقت بالدولة الحفصية واعتبرت عاصمة اقليمية وبابا لافريقيا الحفصية على الاندلس. اسها مسلموا الاندلس

ونقرأ في اخبار الحلاج " وعن عمران بن موسى قال : سمعت بعض البصريين يقول : كنت انكر على الحلاج واقدح فيه حتى مرض لي أخ وكدت اموت عليه اسفا عليه . فهمت على وجهي مما داخلني من الحسرة عليه حتى وقفت على باب الحلاج فدخلت وقلت : يا شيخ فلان اخي اشرف على الموت وادع له فضحك وقال : انجيه بشرط تفي لي به - قلت : ماهو - قال : لاترجع عن الانكار على بالكفر وتعين على قتلي : فبقيت مبهوتا - فقال : لاينفعك الاقبول الشرط - قلت : نعم افعل . فصب شيئا من الماء على سكرجة وبصق فيها وقال لي: مر واجعل هذا الماء فيه فذهبت وفعلت ذلك فقام اخي في الوقت كأنه لم يمرض - او نائم فانتبه . فرجعت باخي اليه وشكرته فضحك وقال : لولا ان الله تعالى قال (لأملئن جهنم والجنة من الناس اجمعين) لكنت ابصق في النار حتى تصير ريحانا على اهلها " (١).

والمعجزات التي يقومون بها كثيرة على ما ورد في الاخبار والكتب اذ يقول القلباذي:

" الكل مجمع على توكيد هذه الكرامات اى كرامات الاولياء وتوضع في مصاف المعجزات مثلا لمشي على الماء التكلم مع الحيوانات . قطع مسافات هائلة في لحظة واحدة وكمثل ظهور شيء خارج مكانه وزمانه (كالفاكهة) في غير مكانها والموسم الذى تنضج فيه " (٢)

هذه اخبار ما نقل عنهم من معجزات وتعبر هذه المعجزات عن السلطة الروحية التي مارسها هؤلاء اثناء حياتهم وسنرى كيف ان هذه السلطة تصل الى حد انهم يصبحون موضوع عبادة من قبل اهالي الارياف وبعض شرائح المدن "(٣)

١- Louis Massignon, Akhbar EL HALLadj, Librairie Philosophique, Paris, 1975, P. 84-85

٢- KALABadhi, Traité du soufisme, Sindbad, Paris, 1981, P. 114

٣- لاتخلو المدن من المقامات والقباب في بعض الاحياء مثل تلمسان سيدة فتلمسان تعتبر (قرية العباد) قريبة للعباد التي تقع على تخوم المدينة تدل على انتشار الديانة الشعبية لعبادة الاجداد ظاهرة حضرية كذلك.

عندما ازداد ضغط النصارى عليهم وكان في طليعتهم جمع غفير من الفقهاء ورجال العلم الذين استقبلهم الحكام الحفصيين بكل حفاوة واكرام حتى ان الاخير فارس بن عبد العزيز حرص على تخصيص المونة اللازمة والمدد الكافي تشجيعا لهم على الوقوف في وجه النصارى وهذا ما يؤكد لنا ان النهضة العلمية والازدهار الاقتصادي الذي عاشته بجاية الحمادية والحفصية لم يكن متيسرا لولا قدوم عدد ضخم من العلماء والتجار والصناع الاندلسيون " (١) .

وتجدر الاشارة الى ان من ضمن العلماء ورجال الدين الذين كان ابومدين شعيب والذي انتقل بعدها الى تلمسان حيث توفي هناك واقيم له ضريح هنالك .

وابتداء من نهاية القرن الخامس عشر التي صادفت سقوط آخر معاقل العرب والمسلمين في الاندلس وهي غرناطة (٢) تواصلت وبشدة حملات الاسبان والبرتغاليين على سواحل المغرب العربي وخاصة السواحل الجزائرية الغربية ملاحقة للمهاجرين الاندلسيين للتنكيل بهم ومحاولة احتلال بعض مناطق المغرب العربي واحتلال وهران من قبل الاسبان كان اهم ما توجت به هذه الحملات وادى هذا بالاهالي الى الاستنجاد بالاتراك كما هو معروف وكان في هذا بالصفوف جيوشا من الاندلسيين . جندوا للدفاع عن السواحل الجزائرية وتشكلوا رباطات او زوايا كانوا يلتف الناس فيها على الجهاد ضد الغزات الاسبان والبرتغاليين ويقول عبد الحميد ابن أشنو " ان تصاعد الغزو المسيحي لبلاد البربر ، قد ادى الى تراص الصفوف المسلمين الذين اسسوا الزوايا كانوا يرون بان تعاستهم تأتيهم من الانحلال الخلقي وتلاشي الروابط الدينية اوعدم تطبيق التعاليم القرآنية وانا لوسيلة الوحيدة للتغلب على الاجانب هو القبض على زمام الامور هي العودة الى الصرامة والحرفية الدينية والزهد المتفاني " (٣)

٢- ناصر الدين سعيدوني في دراسات وابحاث في تاريخ الجزائر - م و للكتاب الجزائر ١٩٨٤ ص ١٢٨-١٢٩

٢- راجع الكتاب الرائع لواشنطون ايرفينيج - سقوط غرناطة - اينا الجزائر ١٩٨ حيث تحكي هذه الرواية التاريخية و المدعمة بمراجع موثوقة قصة سقوط غرناطة الى اخر ملوكها .

٣- Abdelhamid Benachenou, Connaissance du Maghreb, ed. Populaire de l'armée, Alger, 1971, P. 134

ولعب متصوفوا الاندلس دورا هاما في تأسيس هذه الزوايا وتكوين طلبة في الحقل الديني ،وفي ميادين اخرى كان لايعرفها الا الي انذاك حيث ان الزوايا هي مثابة دير يسيره منشئها وخليفته • يتداول عليها مريدون يدلهم الشيخ على سبيل الروحي بالممارسات الزهدية يمر فيها المومنون " المريدون " عبر مراحل في التعلم حتى الدرجة العليا من السلم الصوفي مرورا بالاحوال (١) • لكن الزاوية ليس لها فقط دورا دينيا وخلقيا بل تدرب ابنا ءها على اعمال مادية ودنيا وية مختلفة كالتكوين العسكري لمحاربة الغزاة في الخارج • الترقية الاجتماعية لابنا ء الاخوانيات ،القيام باعمال الفلاحة لتحسين الانتاج ـ بنا ء قنوات الري المدارس ومساجد " (٢)

ولم تقتصر عمليات البنا ء والمشاركة الفعلية في الحياة الاجتماعية لسكان الاندلس في المدن بل تعدته الى الارياف حيث ان رجال الدين من هؤلا ء انقسموا الى صنفين الاول استقر بالمدن وتقرب الى الحكام الاتراك في محاربة قوى الاسبان والبرتغاليين وهناك مماليك اقيمت تحت حكم شيوخ الصوفية مملكة سالة بالمغرب الاقصى ومملكة (٣) "كوكو" بالقبائل الكبرى بالمغرب الاوسط (الجوائر) ردا على ضعف الحكام وعجزهم على رد ضربات الغزاة الاجانب والصنف الثاني رأى ان من واجبه نشر الاسلام لدى اهالي الارياف وتشكيل قوى مادية للسلطة المركزية •

١- Eva vitray Meyerovitch, Anthologie du Soufisme Sindbad, Paris, 1978, P. 55.

٢- Abdelhamid Benachenou, Connaissance du Maghreb, op. cit, P. 134

٣- C.F. TAHAR oussedik, Le royaume de Koukou E.n.a.l, Alger, 1986

لدرجة ان الحكم المركزي قسم البلاد الى منطقتين الاولى هي دار الحرب والثانية دار الاسلام (١) فالاولى هي المنطقة التي اعلن فيها الاهالي عصيانهم تجاه السلطة المركزية بالامتناع عن دفع الضرائب والثانية هي منطقة اعلن فيها اهاليها الطاعة للسلطة المركزية ومعروفة دار الحرب باللغة البربرية (الامازيغية) بلاد السيبة (٢) . كثيرا ما كان رجال الدين المتصوفين يقصدون بلاد الحرب لتنظيم الاهالي وتوحيد القبائل لمحاربة السلطة المركزية وكانت الزاوية هي عنصر التوحيد بين هذه القبائل . وكان ينطلق من هذه الموسسة الفهم الاعمق للدين الاسلامي باتجاه الاهالي . حتى اضطر الشيوخ الصوفيون للوصول اليذلك تعلم الامازيغية والتواصل مع الاهالي ولاغرابة في ان الطرقية انتشرت خاصة في المناطق التي كانت محل ضغوط السلطة المركزية ((الكتل الجبلية بين مستغانم البليدة وفي القبائل بكثافة شديدة وفي الاوراس جنوب التيطري والقطاع الوهراني بين الجلفة وعين الصفراء وفي الحضنة اذ استقروا في المثلث سيدي عيسى - بوسعادة - ميلة وكانت تتفادى السهول العليا الوهرانية ، وسط الجهة الوسطى من البلاد وعدا الاوراس والقبائل نستطيع القول انها مفقودة في القطاع القسنطيني وذلك راجع الى وجود امارات مستقلة . بن جلاب ، بوعكاز في الجنوب اولاد مقران للمجانة النامشة ، الحنانشة في الشرق الجزائري)) ٣-

وترجع هذه المعارضة للسلطة المركزية كون هذه الاخيرة منوجهة النظر الطرقية تستعمل الاسلام قصد الظلم ولاجل امور دنيوية .

١- بدأ هذا التقسيم في زمن مبكر حتى قبل الاحتلال الفرنسي حيث كانت بلاد الحرب تسمى بلاد سيبة (متهربة من الضرائب) وبلاد المخزن تدفع الضرائب ولكن تستفيد منها كذلك من حيث انها خليفة السلطة المركزية تقوم بجمعها تعهدها [illegible] .

٢- لازال اهالي منطقة سعيدة يستعملون كلمة "سيبة" دلالة على البؤس والفقر

٣- Ahmed Nadir, "Le maraboutisme; Superstition ou revolution", IN: Methodes d'approche du monde rural, O.P.U, Alger, 1981, P. 197-198

واقامة هؤلاء في المناطق التي ذكرناها انفا كان له اثر عميق على التنظيم الاقتصادي والاجتماعي والسياسي في الريف حيث اقيمت اشكال تنظيم اقتصادية مبنية على ملكية الحبوس اطلق عليها علماء الاقتصاد بالاقطاع الديني "(١) كما ان الايديولوجية الطرقية ادخلت تصورات جديدة لانسان حيث ساهمت في تحرير العبيد والقضاء على العبودية واصبحت الزاوية ملجأ للمستضعفين واقيم شكل من التنظيم مبني على الاتحاد حول الاخوانية (٢)

" الطرقية لاتظهر كعمل ديني يكرس استمرارية لتناقضات المجتمع القبلي لكن كحركة اجتماعية واسعة التي كانت بوادر لوحدة وطنية . فالطريقة كانت تثبت السكان في اراضي كانت تحتلها سلميا وكان يترجم على مستوى سياسي الى مفهوم اقرب من الوطن . اذ بتنظيمها السياسي والاجتماعي باقتصادها التثقفي الذي يجمع الفلاحة بتربية المواشي بدأ الاستقرار والسلم بين القبائل وتوقيف الهجرة الداخلية التي كانت تعصف بجزائر القرون الوسطى . ويعملها الثقافي الذي كان نتيجة اسلمة وتعريب استطاعت ان تخلق نظاما من القيم الذي كان يقرب بيننا لاهالي ويخفف من التناحرات والاختلافات الجهوية " (٣).

ان احداث هذه الفترة انطلاقا من القرن الخامس عشر لعبت كما رأينا دورا كبيرا في تشكيل فضاء الريف الاقتصادي والاجتماعي وخاصة الثقافي والذي نعرفه اليوم حيث ان انتشار الطرقية قلب كل بنى المجتمع الريفي . الم يستطيع الامير عبد القادر انطلاقا من مبادئ الطرقية تجنيد اكبر قبائل الوسط والغرب الجزائري في مواجهة الاستعمار الفرنسي . وعن هذه الفترة يقول ادمون دوتيه حول هذه التحولات .

" ان عمل الاسلمة الكبير متجلي وواضح حتى بالنسبة لمن يقرأ تاريخ المسلمين سطحيا ابتداء من القرن الخامس عشر ، كل شيء تغير ، القبائل ليست لها نفس الاسماء ، بل بدلت باسماء الاولياء . المورخون غير متسامحين في تقييمهم لهذه المرحلة الاولياء لعبوا في الدولة والحياة الشعبية دورا كبيرا ، وكأننا بصدد قراءة تاريخين لشعبين مختلفين من ابن خلدون الى العرفاني " (٤)

١- C.F. Abdelhamid Merad Boudia, Formation Algerienne precoloniale, O.P.U, Alger, 1984.

٢- التجمع الاخواني يتعالى فوق القبائل والدول ونستطيع القول بحالمنا الاخوالا نه معادي للقبلية " النول ل:

٣- Fanny Colona, Savants paysans, O.P.U, Alger 1987, P 206

٤- Ahmed Nadir, O.P. cit, P 206
- Ibid, P 206 - 207.

وهذه شهادة على قوة وصلابة الاعتقاد بالاولياء في الجزائر لانا لماضي التاريخي يشهد لهم على سلطة كبيرة غيرت وجه البلاد والعباد في فترة جد عسيرة من تاريخ المغرب العربي والمغرب الاوسط بصفة خاصة . اذ يمكن حصر العناصر التي تشكل عبادة الاجداد المحور الاساسي لتدين شعبي لازال يحتل الفضاء الثقافي بكل جدارة :

١- تتجذر عبادة الاجداد في الواقع الثقافي في الجزائر الى اعماق ما قبل التاريخ .

٢- تتعايش هذه الممارسة مع الاديان الكتابية التي دخلت الى المغرب يهودية مسيحية اسلامية . هذه الاخيرة التي لعبت فيها تا الطرقية دورا هاما كما بينا انفا .

٣- دورا لمتواقدين من الاندلس التاريخي في مقاومة الغزاة الاجانب والوقوف بجانب الاهالي في الريف ضد الحكام المستغلين وادخال تقنيات (١) ومعارف دنيوية في الفضاء المغاربي .

كل هذه العناصر ميزت مكانة الاولياء عن باقي الناس سلطة دينية ودنيوية . مارسوها على الاهالي وبالتالي اصلحت اصبحت هذه السلطة اكثر تأثير على حياتهم عند ما مات هؤلاء واصبحوا موضوع عبادة ، حج وتلا وتزلف ولاتقاس قوة التدين الشعبي الذي يجعل الولي عنصرا اساسيا الا بالدور التاريخي الحاسم الذي لعبه هؤلاء الاولياء في حياة الجماهير العريضة من فلاحي الريف المغاربي والجزائري بالخصوص ابتداء من اواخر القرن الخامس عشر في قلب حياة سكان المغرب وخاصة سكان الريف لانه وجد لديهم الدعامة الثقافية التي استند عليها وهذا ما يفسر لنا قوة هذا التدين رغم ما لعبه الاسلام الرسمي في محاربته .

١- ان النعوت والمعجزات التي تنسب الى الاولياء " يالي يفجر الماء بعينيه اولي يداوي بدفلة ، البصاق " تعود ربما الى المعارف في الطب وتقنيات الزراعة التي ادخلها الاولياء الى الارياف الفقيرة والنائية حيث كانوا يحيون الاراضي الموات ويستغلونها . حفروا الابار وادخلوا تقنيات الري .

- الرمزية المرتبطة بسيادة الأحداد في منطقة سيدة :

١) الشكل المربع للضريح :

كل الأضرحة المتواجدة على أرض الجزائر مبناها مربع على غرار كل الأماكن المقدسة الاسلامية ،فالكعبة مربعة الشكل والمساجد في معظمها مربعة في بنائها ،فالتربيع في البناء ظاهرة اسلامية مرتبطة برؤية للعالم مبنية على الكمال والتوازن فللتذكير فان العدد أربعة وهذا ما عالجناه في الفصل السابق هو التوازن والكمال .

٢) القبـــــة :

معظم القباب الموجودة على الأضرحة هي من النوع النصف دائري قاعدتها دائرية ثم تتصاعد نحو الأعلى الى حد ذروة على القمة حيث وضع عليها هلال ونجمة . فالقبة لا شك في ذلك اسلامية دخلت على معمار المغرب العربي عند الفتح الاسلامي ،وتمثل في تصاعدها عملية انطلاقا من الأرض الى السماء وما القبة الا تعبير عن فكرة قديمة كنا تكلمنا عنها في الفصل السابق وهي بلوغ السماء . الصعود نحو المطلق اذ تلقى القبة وسطها الثقافي الذي نشأت فيه حيث يمكن القول أن برجبابل هو الحد الأول لفكرة القبة حيث بنى البابليون برجهم الأسطوري الذي يشبه القمع في بنائه صفحه الأرض وقمته السماء وعالم الآلهـــة .

---

١) هناك ضريح ذو ثمانية أوجه وأضرحة على شكل أهرامات لا توجد لها تلك القاعدة المكعبة المعتادة والتي تميز أضرحة الأولياء .أنظر : Le commandant Cuvet, Marabouts, monuments votifs en Afrique du nord, In Revue africaine, N° 64 1923

أليست أسطورة برج بابل معبرة عن هذه الارادة كوهم منهمكين في بناء ذلك البرج حتى تغطن " يهوه " واخفق مشاريعهم تبدلت لغاتهم وانقطع التواصل بينهم وهووا الى حضيض الأرض واستحال صعودهم الى الله ومنافسته في ربوبيتـــه .

واذا سلمنا بأن القبة كبرج بابل هي الربط رمزيا بين الأرض والسماء بين لخلق والله الواحد وبهذا نستطيع القول : أن الضريح بقبته مثل المسجد كذلك هو مكان تواصل العباد بالله . فالضريح يمثل اذن حسب تحليلنا هذا
١) الشكل المربع لبناء يمثل توازن الكون والعالم .
٢) انطلاقا من هذا التوازن ، ينطلق التواصل بالله عن طريق القبة ويمثل الضريح والمسجد بصفة عامة هذا الانطلاق من التوازن الذي هو الايمان ليربط الانسان علاقة مع الله وقاعدة هذا التوازن هو البر الوالي الذي تفوح روحه ايمانا وقدسية .

٢) القباب الصغيرة :

كثيرا ما نجد عبر الريف مقامات صغيرة تتراوح احجامها من الكبير الذي يتعدى ارتفاعه المترين دون القبة الى حد قرابة النصف متر لا تحتوي في معظمها قبورا ومع ذلك بنيت لتصبح مزارا لكل من مر بقربها وتأخذ إسماء أولياء كبار ، مثل سيدي عبد القادر الفحل لالا سعيدة ، وتقع هذه الأخيرة في المدخل الشرقي لمدينة سعيدة ويقال على لسان الأهالي أن جهل الناس أدى الى بناء ضريح حولها وأصبحت محط زيارة النساء . وعموما فان بناء هذه القباب وهذه المقامات ليس غريبا عما كان يفعله الأولياء في حياتهم حيث ان هذه

---

١) أليس تعاقب الفصول الأربعة معبر عن ثبات وتوازن الكون " الكعبة " ترمز الى الأساس والثبات لأنها حجرة مكعبة . القبة الاسلامية ترتكز على مكعب هو نفسه مسند على أربع أركان أنظر : "Le carre". In Dictionnaire des symboles, OP. cit, P.186.

المقامات تبنى في أماكن لمجرد كونها في يوم من الأيام كانت مكانا أخذ فيه الولي في حياته قسطا من الراحة أو لأداء صلاته "

وفي بعض الأحيان توجد مقامات بأسماء أولياء لم يمروا قط بهذه المنطقة مثل مولاي عبد القادر الجيلالي " سلطان الأولياء " حسب ما يقوله عنه الأهالي و وانما بناء هذه المقامات يبقى تعبير لاحترام قدسي لشخص هذا الوالي اذ يحصي الرائد كوفي في مقاله في المجلة الافريقية بوجود أكثر من مائتي مقام مقدس لعبد القادر الجيلالي .

بالاضافة الى هذه القباب الصغيرة توجد مقامات لا تعلوها قباب وانما بنايات على شكل بيوت عادية يعلوها سقف من القرميد الأحمر والشكل الذي بني به سيدي أحمد الزقاي .

٣) الحـــويطـــات :

وهي عبارة عن ركامات من الصخر وقد أخذت شكل المربع أو الدائرة ولا يعدو علو حائطها المتر، وتوجد عبر حقول الريف وفي أي مكان وفي غالب الأحيان تطلى هذه الأحجار بالجبس الأبيض تسمى كذلك هذه الحويطات أحيانا بأسماء أولياء سيدي كذا " فهي مكان مزار لكل من قربها وانا كانت قرب سكنى أو أن أحد المارين بها تصادف بوقت الصلاة فانه يجعل منها

- Commandant Cuvet, "Marabouts, monuments votifs", OP. cit. P. 279.

نستطيع أن نقرأ في القاموس الرموز أن هذه الأضرحة بأشكالها المتنوعة يغلب عليها الطابع الرمزي أكثر من أي وظيفة دينية موجهة " فالمقام التكعيبي يمثل الأرض أو الجسم بعناصر أربعة والقبة تمثل السماء أو الروح"
Dictionnaire des symboles, OP. cit, P. 168

ونقرأ من جهة أخرى أن لها رمز جنسي حيث يمثل هذه المقامات قضيب الرجل المنتصب نقرأ هذا في العنوان المخصص (القمع أو ICONE

معلى حيث يدخل من فتحتها ويؤدي طقوسه فيها .

٤) الأشجـــار :

لقد شرحنا في الفصل السابق الوظيفة الرمزية للشجرة داخل تصور أهالي منطقة سعيدة ، استنادا الى كونية الاعتقاد بالصفة السحرية والدينية للشجرة داخل النسق التصوري للموت بهذه المنطقة فبالاضافة الى تواجدها قرب قبور عادية فان الشجرة في معظم الأحيان لا تفارق ضريح الوالي فكل مقام يعلوه شجرة وكل حويطة الا وأشرفت عليها شجرة حتى أننا تجد تحت كل شجرة وكل حويطة ضحية نسبيا ركاما في الحجارة عند الجذوع وكما سبق وأن ذكرنا فان الشجرة في المنظومة الرمزية الكونية هي محور للكون هي مركز التلاقي بين العوالم الثلاثة الأرض ، السماء ، وعالم جهنم ، فوجود الشجرة برأيتا وفي جذعها الحويطة ، أسبق من الديانات الكتابية التي توالت على أرض العرب وهاهي تتعايش مع الاعتقاد بالأولياء الشكل الحالي المصطبغ بالاسلام لعبادة الأجداد . فالشجرة قبل وجود الضريح الذي يرمز حسب ما ذهبنا اليه الى تصاعد روح الانسان من وضعية التوازن والتي تمثلها القاعدة المربعة للضريح ، وقبة روح الولي المدفون ، والتي تمثل الايمان عبر القبة لتبلغ الخلاص والمطلق الرباني . والشجرة كذلك من حيث أنها الرباط بين العالم الأرضي والعالم السماوي بين العبد وربه .

فالتوسل اليها أو دفن الميـــــــــــــــــت بقربها هـــــو

ضمان رحيله الى العالم السماء وضمان وصول دعاء الأحياء الى القوى الخفية الربانية ، الشئ الذي يتنافى مع تحليلا تجان سرنيبه الذي نظنه لم يفهم عمق رمزية الشجرة وكونيته حيث لا يربطها باعتقاد ديني مرتبط بعبادة الأجداد وبرؤية شاملة للكون بل يكتفي بالقول بطريقة تخمينية أبعد عن الواقع .

" على مستوى الرموز المادية ، اتحاد روحين مبدأين أساسيين في الشخصية الانسانية والمتمثلين في الزوج ، الشجرة والصخرة أحدهما يمثل المبدأ المؤنث ، الأخر المبدأ المذكر في التقاليد بالشعبية الشجرة تعطى بدون شك الظل والرطوبة لـ " النفس " تسكن في الصخرة أو الحجرة والينابيع المتفجرة من الصخور هاهي الا رمزا للخصوبة الآتية من العالم التحتي "(1)

هذا الطرح الذي نراه مسقطا على الثقافة الجزائرية اذ لا نجد هذا التقسيم الا زدواجي للروح والنفس في منطقة سعيدة وغريب أن يكون موجود في الديانة اليهودية التي تفرق بين " الراوح " و " النفش "(2) وغريب عن مجتمعنا ثم أن الثنائية ذكر مونث في الرمزية الشعبية ماهي الا اسقاط علي ثقافتنا لمبدأ البينغ والبانغ الصيني في تصور الانسان والعالم

١- Jean servier, OP.cit, P. 28

٢- C.F. De. Raoul Montandon, La mort et l'inconnu ed. victor Attinger, Paris, 1948, P. 216-217.

مبدأ الذكر والمؤنث اسقاط لمفاهيم غريبة على الثقافة الشعبية في الجزائر لتفسير ظاهرة من الظواهر ويرجع ذلك الى عدم الغوص في عمق العقلية الشعبية المحلية والتي هي غريبة عن المؤلف فعلا وحقا .

٥) الأواني ووسائل الانارة :

في الحويطات نجد في أغلب الأحيان أواني معدنية قديمة ، صحون وسائل انارة بالبترول وأواني للقهوة وكما نجد شموع منطفئة وآثار لذوبانها ونعتقد بأن وجود هذه الأواني والتي نجدها في معظم الأحيان على قبور الموتى ما هي الا رسوبيات لطقوس قديمة تقدم على آثرها قرابين للتقرب من الموتى واما أواني يوضع فيها الزاد الكافي لبرافق الميت أثناء رحلته وكانت هذه الأواني فخارية ربما تعويضها بأواني معدنية يعود لأسباب اقتصادية لغلاء وعدم توفر الأواني الفخارية .

٦) القماش على غصن الشجرة المقدسة :

عندما نلحظ جيدا أغصان الشجرة فاننا نرى على أغصانها قطعا من القماش وقد عقدت على الغصن ونأخذ هذه القطع من القماش كافـــــــــــــــــــــــة

الأشكال وكافة الألوان وهي في عمل النساء خاصة وفي الفكر السحري تأخذ العقد رمز الابعاد ويتبع هذا الابعاد الماء الذي عبرت فيه المرأة التي ألقت الماء باتجاه أرواح الأجداد الخفية والتي لا يمكن الاتصال بها الا عن طريق السحرة بحكم مكانتها من الرمزية الشعبية و " العقدة " هي رمز كوني تمارسه شعوب كثيرة في العالم وتعتبر العقدة رمزيا وسيلة قطع أو ايقاف لتأثير أي كان أو ابعاد أي شر أو خير وهذا حسب الأمنية المعبر عنها من وراء العقدة فالربط في حياة الانسان هو وسيلة للتحكم في كل شيء متحرك وجب السيطرة عليه لتفادي شره أو لاستجلاب خيره فالمجرم سربط وثاقه لاتقاء شره . تربط الحيوانات لاجل تدجينها واستجلاب منافعها ان الربط رمزيا ـ كما أوردنا في الفصل السابق ـ كان في وقت من الأوقات وسيلة لاتقاء شر الميت حتى لا يعود ليزعج الأحياء .

المخيلة الشعبية تجعل من الربط وسيلة لاتقاء شر مياه الفناء التي تشدها شعره لفاطمة الزهراء بنت النبي (ص) محمد .
وفي تطرقه لمورفولوجيا العقدة والرباطات في الممارسة السحرية يذهب ميرسيا الياد الى كونها منقسمة الى قسمين :
" الأول " الرباطات السحرية المستعملة ضد خصوم انسانيين (في الحرب ، السحر) مع العملية المعاكسة وهي " قطع الرباطات "

. كون هذه أسطورة شعبية ما قبل إسلامية وأدخلت فيها فاطمة زوجة علي وبنت الرسول والمحبوبة والمحترمة من قبل كل أهالي المغرب العربي ربما تشبه هذه الاسطورة أساطير بلاد الرافدين التي تحمل هاجس الخوف من أن تغمر المياه عالم الأحياء وتفنيهم مثل أسطورة " اوتنابيشتيم " وفاطمة قد تدخل كعنصر الأمومة الحامية لأولادها .

الثاني : الرباطات والعقد النافعة كدفاع ضد الحيوانات المتوحشة ضد الأمراض والسحر، ضد العثاريث والموت".(١)

فالرباط والعقدة يمكن أن يكونا مصدر شر ومصدر خير ولكن العقدة الحالية للشر والمبعدة له لا يختلفان سوى أن الاختلاف بينهما هو أن الشخص يطلب من الروح الأجداد وأرواح الأموات عامة وبالكلام القصد من وراء العقدة فاذا طلب أبعد المرض عن الابن واذا قصد في دعاءه جلب الموت والظاهرة الأكثر انتشارا هي الدعاء لاضعاف الطاقة الجنسية باتجاه شخص من الأشخاص حتى لا يستطيع ممارسة الجنس في دخول الأول على عروسه وبالتالي يفشل زواجه ويمس في كرامته كرجل(٢) وكل هذا توسلا الى روح الأموات والأجداد.

٢) الضريح يبحث عن الكمال والتوازن :

كل معبد ديني كل مقام مقدس يعتبر بحكم عناصره كما بينا مركز للعالم مكان التقاء العوالم الثلاث الأرض والسماء والعالم الخفي وهذا ما تمثله الشجرة قاعدة الضريح والقبر والقبة المتجهة نحو السماء ارادة الوصول الى السماء وطلب المغفرة والشفاعة من روح الميت الجد هي بحث عن المطلق والكمال. فالوسط أو المركز هو رمز للكمال ليس الاسلام دين الوسط " وجعلناكم امة وسطا " الاية . فالامة المختارة المتوازنة الحاملة لرسالة الله لا تتطرف فتهلك بل تلتزم الوسط يبحث الأهالي في توسلهم الى الولي على الكمال وهو الاتصال بالله حيث ان الولي هو الوسيط بين الله و عباده انه مركز المطلق و الكمال فالتضرع اليه و التوجه الى روحه بالعبادة هو محاولة لجلب التوازن للفرد والجماعة و الانسجام مع العالم والكون .

١- Mircea Eliade, Images et symboles, p. 215

٢- عندما يراد للمريض سوء يربط تمائم على الشجرة قرب الولي المقصود. وتتبع ذلك عملية سحرية طلسمات تكتب عند طالب يحتهن السحر - وعند ذلك يتعطل جهازه التناسلي ويفشل في أداء العملية الجنسية وتغتصب رجولته .

تلقي عبادة الاجداد بوجهها الاسلامي سندها الفلسفي والمذهبي في التصوف حيث ان الميت المعبود هو الولي الجد الاسطوري والتصوف مذهب ديني متميز عن الاتجاه الديني السلفي المستند على القرآن والسنة والتعاليم الشرعية المستنبطة من القرآن والسنة، من ظهريهو وجهها والاخلاص للمومنين والامة الابالانضواء تحت تعاليم القرآن والسنة وسيرة السلف الصالح (١) . ويأتي المتصوفة مقترحين قراءة اخرى للرسالة المحمدية .

" التصوف هو احتجاج صارخ عهادة قوية للاسلام الروحي ضد اى اتجاه يريد جعل الاسلام دينا شرائعيا وحرفيا ولقد طور تقنية مفصلة لزهد روحي تتطلب درجاتها التقدم والبلوغ ميتافيزيقيا بعينها اسماها العرفان ، ان تقاطب الشريعة والحقيقة اساسي للحياة هذا المذهب او هي بالكامل ثلاثية مكونة من الشريعة (المعطى الحرفي للوحي) الطريقة (الطريق التعبدى . الحقيقة الروحية لمبلغ شخصي) (٢) والتقاطب شريعة حقيقية ياخذ مرادفات اخرى ظاهر / باطن اسلام / ايمان (٣) .

١- العلم لدى الفقه الرسمي هو العودة الضرورية الى ما قاله السلف الصالح منه تستقى كل تفسيرات النص المقدس بالاضافة الى استعمال تقنيات المعرفة اللغوية والنحوية واستقراء مظاهر النص لا باطنه فالكتاب مغلق لا يصل الى فهمه الا الاولون والعلماء الرسميون المخولون للقيام بالتفسير لا يقومون بذلك الا رجوعا الى قول السالفين الاوائل وغلق الاجتهاد مبكرا ابتداء من القرن الثالث الهجرى (حماية) للاسلام من النتائج الالحادية للاجتهاد العقلي .

٢- HENRI CORBIN, Histoire de la philosophie islamique GALLIMARD, PARIS, 1964, P. 208.

٣- Hocine BENKHEIRA, "Le lieu absolu; remarques sur le concept islamique du politique" IN Dirassat Magharibia, N° 3, Université d'Oran, juin 1989, P. 29.

الظاهر بالنسبة للمتصوفة هو ما توحي به النصوص ظاهرا يتطلب العلم بشرائع الله يقول ابن تيمية وردا على علم المتصوفة (العرفان بما يلي " اصل كل شيء العلم والتعبدية والعمل به ، والتقوى والورع عن المحارم " " الفقر " المسمى على لسان الطائفة والاكابر وهذا الزهد في الدنيا العمل بالعلم وهذا هو الفقر فاذا الفقر فرع من فروع العلم . والامر على هذا وما ثم طريق او صل من العلم والعمل بالعلم على ما صح وثبت عن النبي (ص) -(١) . ولتوضيح مفهوم العلم يستطرد ابن تيمية " الصراط المستقيم . يشمل على علم وعمل % عمل شرعي " (٢) ويضيف ايضا " فالسالك طريق الفقر والتصوف والزهد والعبادة "(٣) ان لم يسلك بعلم يوافق الشريعة والاكان ظالا عن الطريق وكان ما يفسده اكثر مما يصلحه " (٤) فالعلم اذن هو علم الشريعة والسلوك والصراط المستقيم باتجاه الله لايمكن بدون علم الشريعة ومن خرج عن الشريعة طلبا لله فهو ظال عن الطريق .

فما هو العرفان والطريقة بالنسبة للمتصوفة

العرفان : " الفلسفة الصوفية تفرق بين العالم والعارف والعلم والمعرفة ، فالعلم برأيهم تلاعب بالكلام . وحفظه دون بلوغ روح الاشياء "(٥) . اي ان كل معرفة متعلقة بما هو غير جوهري في الدين. واما المعرفة، وهي ما يسمونه ببلوغ الحال، وهي حالة التأمل ويسمونه المشاهدة ، ويتم عن طريق القلب

يقول ذو النون المصري في هذا الموضوع " هناك ثلاثة انواع من المعرفة لله قبل كل شيء . معرفة ان الله واحد والنبي يحملها كل المومنين ثانيا : المعرفة المتعلقة من البرهان والتدليل ويحملها الفلاسفة والمتكلمون ورجال الدين ، وثالثا : معرفة صفة توحيد الله والنبي يحملها اولياء الله ومن يتأملون فيه من قلوبهم يكشف لهم ما لم يكشف للاخرين من هذا العالم "(٦)

١- ابن تيمية الفرقان بين اولياء الرحمان واولياء الشيطان دار الكتب العلمية بيروت ص ٢٥ بدون تاريخ

٢- نفس المرجع، نفس الصفحة.

٣- نفس المرجع، نفس الصفحة.

٤- نفس المرجع ص ٢٦.

٥- HOCINE BENKHEIRA, Le lieu absolu, OP.CIT, P.50

٦- EVA VITRAY MEYEROVITCH, Anthologie du Soufisme OP. CIT, P.72

فأولياء الله هم الحاملين لمعرفة الباطن وقد رأينا كيف ان ابن عربي يفضل الولي عن النبي فالنبي يحدد قواعد شرعية عامة قد لاتقتضي كثير علم ومعرفة لان للولي طريقته الخاصة لبلوغ التسامي الى الله .

الطريقة : "وتعني الطريق ، المسلك والسبيل ولها معنيان لدى الصوفية المعنى الاول هو طريقة للسيكولوجيا الاخلاقية لقيادة كل موهبة فردية بتسطير مسلك الروح باتجاه الله متخطيا مراحل مختلفة من التطبيق الحرفي للشريعة حتى بلوغ الواقع الالهي الذي هو الحقيقة .

والمعنى الثاني للطريقة فانها مجموع شعائر التمرن الروحي المتبعة من قبل جماعات اسلامية والتي اصبحت تسمى فيما بعد بالاخوانيات التي تتبع خطى معينة بقيادة الشيخ " (١) والحقيقة لايوجد فرق بينهما سوى ان الاولى عبارة عن زهد ومجهود تعبيري شخصي والثانية هي تمرين جماعي عن طريق الزهد لبلوغ حقيقة الله مما حدى بالحلاج الى تبني نظرية الحلول التي مفادها ان " "الانسان الهي في الاساس اذ ان الله متنعه على صورته ومثاله " (٢) لقد قال " انا الحق جاعلا بذلك نفسه الله فأعدم " (٣).

ونستطيع كذلك ايجاز نظرية وحدة الوجود لابن عربي كالتالي :
"العالم المادي ظل الاله وهو وحدة الوجود الحقيقي لذلك فالوجود كله حقيقة واحدة ، من حيث كونه في اعيانه المتعددة عبارة عن تجليات لهذه الحقيقة " (٤) .

١- Zaid, P55

٢- دي لاسي اوليري الفكر العربي ومركزه في التاريخ، دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٨٢، ص ١٦٥.

٣- نفس المرجع نفس الصفحة

٤- المستشرق جيب وعادل العوا، علم الأديان ، مرجع سابق ص ١٤٥.

جاك بيرك يتكلم عن الاتجاه الحلاجي الحلولي عند احمد بن يوسف متصوف مغاربي اذ " كان يمارس الاتصال بالله كما كتب لملك فاس « الحمد لله الذي اعطاني من فضله ووصفني بصفاته لقد اصبحت هو وهو انا » (١) ان هذا التوجه يضرب الشريعة عرض الحائط هو الذي جلب للمتصوفة الهجوم من قبل السلطة الرسمية وعلماء الشريعة حيث اعتبروا دعاة للالوهية كما هو الحال بالنسبة للحلاج واشد اعداء التصوف هم الحنابلة ممثلين في الايمام ابن تيمية حيث يفتي بقتل المتصوفة (٢) في احدى فتاويه وفيما اهم ماجاء على لسان ابن تيمية حول المتصوفة

فلا يجب على احد ان يستدل - احد على ان فلان بمجرد ان له مكاشفات وتصرفات شيطانية والتي هي ميزات السحارة والنصارى واليهود « فلا يجوز لان يستدل بمجرد ذلك - على كون الشخص وليا تقيا وان لم يعلم منه ما يناقض ولاية الله ، فكيف اذ علم منه ما يناقض ولاية الله ، مثلما يعلم انه لايعتقد وجوب اتباع النبي صلى الله عليه وسلم باطنا وظاهرا بل يعتقد انه يتبع الشرع الظاهر دون الحقيقة الباطنة ، او يعتقد ان الاولياء الله طريقا الى الله غير طريق الانبياء عليهم الصلاة والسلام او يقول ان الانبياء ضيقوا الطريق ، او هم على قدوة العامة دون الخاصة (٣) « فالحلال ما احله الله ورسوله والحرام ماحرمه الله ورسوله ، الحرام ماحرمه الله ورسوله والدين ما شرعه الله ورسوله (ص) . فمن اعتقد ان لاحد من الاولياء طريقا الى الله من غير متابعة محمد صلى الله عليه وسلم فهو كافر من اولياء الشيطان » (٤)

١- Jacques Berque, L'interieur du Maghreb, op.cit, P89

٢- انظر: ابن تيمية ، الفتاوى، الجزء ٣٢، فتوى بعنوان " الفلاسفة المتكلمون والمتطببين من منكري المعاد - وجب قتلهم "

٣- ابن تيمية ، الفرقان ، ..... مرجع سابق ، ص ١١

٤- نفس المرجع ... ص ٢٣

وأولياء الله هم فقط من يؤمنون بمحمد ـ ص ـ وما انزل فلايكون وليا لله الا من امن به وبما جاء به واتبعه باطنا وظاهرا ومن ادعى محبة الله وولايته وهولم يتبعه فليس من اولياء الله ، بل من خالفه كان من اعداء الله واولياء الشيطان(١) فاولياء الله بالنسبة لابن تيمية المتقون مراتبع شرع الرسول ظاهرا وباطنا والذى هوالطريق الوحيد لبلوغ الله من اتخذ طريقا اخر كان وليا للشيطان اذ " يجب على اولياء الله الاعتصام بالكتاب والسنة لاغير " (٢) ويميز بين صوفيين اذ يقول ان " ابن عربي وامثاله وان ادعوا انهم من الصوفية فهم صوفية الملاحدة الفلاسفة "(٣)

ان موقف ابن تيمية هذا هو تنديد ورفض للتصوف (٤) جملة وتفصيلا تصوف يتحاشى القرآن والسنة ويدعي تملك طرق اخرى لبلوغ الله ويمكن تعداد ثلاث نقاط اصطدام احدثها التصوف مع دعاة الاسلام الشرعي السلفي .

١ـ " دافع المتصوفون عن الصلاة الدائمة التي لها شكل الاتصال الدائم الذى لاينقطع بالله . وبهذا فقد مالوا الى ترك الصلوات الخمس المفروضة في اوقات معينة والتي هي احدى واجبات الاسلام وسمة من سماتها البارزة وأدى موقف الصوفية هذا من الصلاة في النهاية الى اعتبارها مفروضة لعامة الناس الذين لم يحرزوا اى تقدم في المعرفة الروحية العميقة ، ولذلك يمكن للذين نالوا حظا ونضجا في معرفة الجمال الالهي اهمالها وهذا هو نفس الموقف الذى اتخذه الفلاسفة (٥)

٢ـ ادخل المتصوفون الاذكار والرياضيات الدينية وهي ترداد اسم الجلالة ولم تك هذه الصورة من العبادة معروفة في الاسلام في بادئ عهده فهي بالتالي بدعة " (٦)

١ـ ابن تيميه الفرقان ص٦

٢ـ نفس المرجع ص٣٢

٣ـ نفس المرجع ص٤٤

٤ـ لكنه ينوه بتصوف يعتمد الشريعة من كتاب وسنة كطريق لبلوغ الله كتصوف الصحابة الاوائل .

٥ـ دولاى اوليرى الفكر العربي ومركزه في التاريخ مرجع سابق ص١٧٣

٦ـ نفس المرجع نفس الصفحة

٣ـ اما الاعتراض الاكثر جدية فهو ان التصوف في الواقع يستغني عن تعاليم القرآن ضمنا ان لم يكن ظاهرا اذ انه يعرض مفهوما جديدا لله وموقفا جديدا من القيم الدينية ."(١)

ولقد رأينا كيف تحولت قيم الصوفية في المغرب لظروف تاريخية وثقافيه الى ديانة شعبية حقيقية لعبت دورا تاريخيا كبيرا في بلورة تاريخ المغرب العربي المعاصر . لقد رأينا كيف ان شيوخ الزوايا والرباطات وحدوا القبائل ضد الحكم المركزي الجائر والغزو الاجنبي الاسباني وكيف ان الثورات الجزائرية في القرن التاسع عشر كلها كانت منوحي الاخوانيات والزوايا ونذكر على سبيل المثال ثورة الامير عبد القادر المقراني ـ بوعمامة ـ بوبغلة (٢) وبومعزة " خمسون سنة من الوقائع المظفرة والدموية وبتظافر عوامل اخرى اوفي عزلة حربية تبرهن على حيوية دائمة النشاط لهذا النوع من الاسلام والمسؤوليات التي كان يتخذها ازاء الاستعمار" (٣) . ولكن عندما تمكن الاستعمار الفرنسي من البلاد والعباد وخاصة بعد تطور المدينة مع بداية القرن العشرين وظهور ثقافة عالمة في المدينة وهجرة الشباب من الريف الى المدينة واتصال شباب المدينة بقيم العصر واطلاعهم على الثقافة العلمية سواء كانت فرنسية او عربية ادى الى رفضهم للمعتقدات المتعلقة بالاولياء ومعجزاتهم الطبية حيث تطور الطب العصري واستدل على اثر ذلك الاهالي على نجاعته رافضي شعوذة الاولياء ومعجزاتهم المزعومة ويقول علي مراد بخصوص ذلك " ان تطور التلعيم ساهم في خلع صفة الغرابة لاساطير الاولياء وانعدامها في معالجة الامراض عن طريق المعجزة اللجوء الى العلم كما ان كثير من الشباب الذي يقطع ارتباطهم بالقبيلة مندمجين بجاذبية العصر والامال المستقبلية التي غذاها لديهم بدأوا في قلة الرباط بينهم وبين النظام المرابطي ووسطهم الاصلي" (٤) كما ان العزلة التي يوجد فيه النظام المرابطي ووسطهم الاصلي في وسط ريفي مفقر وافتقاره لرجال متفقهين في الدين افقده النفوذ الذي كان يمارسه ثقافيا كقوة دينية لامنازع لها وبالتوازي مع ذلك بدأت حركة الاصلاح المشرقية تؤثر في النخبة المثقفة في المدن التي بدأت بكشف امجاد ماضي غابر وتاريخ حضارة

١ـ نفس المرجع نفس الصفحة .

٢ـ C.F, MOSTEFA LACHERAF, Alperie nation et societe, S.n.e.d, Alger 1978 et Fanny collona, savants paysans, O.P.U, Alger, 1987

٣ـ Jacques Berque, L'interieur du Maghreb, O.P.U, P.426

٤ـ ALI MERAD, Le reformisme musulmans en Algerie de 1925 a 1940, Mouton & co, Lahaye-Paris, 1964 P.74

حضارة الاسلام وبتأثير الحركة الوهابية (١) .وحركة الاصلاح في الشام والمشرق عامة بدأت تظهر حركة اصلاح منظمة تحت قيادة ابن باديس انضوت تحت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كثفت نشاطها الاصلاحي في اتجاهين اثنين : اصلاح ثقافي عن طريق تعليم اللغة العربية والقضاء على الامية - واصلاح ديني[٢] وهو الاتجاه الاكثر اثارة في عمل هذه الجمعية ونأخذ الأساس من موقف الجمعية تجاه عبادة الأولياء من الادبيات التي جمعت للشيخ الابراهيمي خطب محاضرات وغيرها والتي جمعت له في كتاب الجزئين عنوانه عيون البصائر .

ان مشروع لجمعية هي اعادة الامة الى اسس اسلامية تعتمد تعاليم القرآن والسنة اذن النزاع بينها وبين شيوخ الزوايا هو نزاع ابعاده تتمثل في استراجيات سلطة (٣)

" ان محل النزاع بيننا وبينكم هو هذا العامي - نريد ان نحرره من استعبادكم ونطلقه من اسركم . وتريدون ان تبقى عبدا تستغلون خراجه ولايستقيم لكم هذا منه الا بجهله وغفلته . فانتم تجهلون في تجهيله وتضليله ومن ذرائعكم لذلك ان تبعدوا ما بيننا وبينه فهلا واحدة هي اقرب الى النصفة والمعدلة وهي ان تضلوه اذا ما تهدوه وان تتركوا له ماله اذا لم تصلحوا حاله .(٤)

ولكن كل الممارسة الطرقية تعمل باتجاه يعاكس اتباع طرق التعبد الرسمية وهي عبادة الله وحده دون وسيط وهذا يبعد الناس مسافات طوال عن دعوة الاصلاحيين باتجاه التوحيد الالهي على النمط الارثودوكسي والذي يقبع وراء ارادة توحيد مركز زعامة الامة .

١- C.F, Louis Gardet, La cite musulmane, Lib. vrin, Paris, 1976, P.35

٢- C.F ALMEAD, Le reformisme..., OP. cit.

٣- انظر كذلك لابراهيمي عيون البصائر ، ش.و.ن.ت، الجزائر، ١٩٧٨، ص ١٨٥

٤- نفس المرجع ص ٤٤

" انهم بعد انا فسدوا فترتهـا وأماتوا ماغرسه الاسـلام فيهـا من فضيلـة وفككـوا كلما احكم بينها من روابط اخوة وراضوهـا على الذل والمهانـة والخضـوع وسدوا عليها منافـذ النـور استقامـت لهم على ذلـك . فرقوهـا فرقا وقسموها الى مناطـق نفوذ يتزاحمون على استغلالها واستعمارها واغروا بينها العداوة والتضريب والبغضاء وانك لتسمعهم يقولون الاخوة والاخوان فاعلـم انهم لايريدون اخوة الاسلام العامة ولايرعون من حقوقهـا حقا وانما يريدون اخوة الشيخ واخوة الطريـق وكل ما يجب عليك من حق فهو لا فيك الطريـق اعاذك اللـه منها وان هذه الاخوة القاطعـة تضرب عليهم كل من لـم يتصـل معهم بحبـل الشيـخ (١) .

يبـرز هذا النص الهاجس الذى كان يسكن النخبـة الوطنيـة القاعدة فرض هويـة وطنيـة جامعة للامة هذه الهويـة التي كانت تقـوم في وجهها ثقافـة قبلية مبنيـة على الطرقية عماد الهوية الريفيـة الغالبـة انذاك والتي بدات تتقهـقر امام ثقافـة حضريـة (٢). ناهضـة مبنيـة على موسسات تعليم فرنسيـة . وموجة من التاثير الاصـلاحي الاسلامي بالمشرق والداعيـة الى توحيد الامة الاسلاميـة على مبادئ السلـف الصالـح .

واختصارا يمكن القـول على لسان الابراهيمي نفسه " وقفت جمعيـة العلماء المسلمين من البدع العامة والشعائر المستحدثة كبدع المساجد وبدع الجنائز وبدع المقابر وبدع الحج وبدع الاستسقاء وبـدع النذور كما وقفت من بدع الطرق وظلالات الطرق وقفـة المنكر المتشـدد الذى لايخشى في الحق لومة لائـم في وقت استحكمت فيه هذه البدع التي اصبحت دينا مستقرا وعقيدة راسخة " (٣) .

١ـ نفس المرجع ص ١٠٤

٢ـ فاني كولونا تقول " عند مرور نصف قرن من الاستعمار كسر هذا الاخير المجتمع القبلي انشا او اعاد انشاء مدن ، وخلق تقسيما طبقيا وجب اجاد اشياء اخرى . الزوايا ، وحتى اذا استمرت في الوجود ، اصبحت فارغة من اى مضمون سياسي وعاجزة اجتماعيا ، كذلك فان الاجوبة المنقسمة للطرق تلائم مجتمعا منقسما الى قبائل ، وبمقابلها فان الشروط الجديدة التي خلقها للاستعمار جعلت من الضروري والممكن خلق حركة شاملة على مستوى البلاد ، بمقدورها التكفل بالافراد المعزولين عن القبيلة ، بفضل دين اصيل وفر ذاتية بمقدورها كذلك التلائم مع الماط التنظيم الاستعماري . وفي كلتا الحالتين فان المبدا التوحيدى الوحيد هو الذين في مواجهة الاستعمار هذا المبدا الذي يستغل حسب نظام ديني وهي في ظروف غياب تقاليد سياسية مركزوية "

٣ـ الجزائر الابراهيمي معيون الشعائر مرجع سابق ص ١٣٠

ولازالت عقيدة جمعية العلماء المسلمين قائمة على مستوى رسمي . عند الاستقلال قامت السلطة الرسمية بالاستحواذ على ايديولوجية العلماء عن طريق الاعلان عن اسلامية الدولة (الاسلام دين الدولة) (١)

ومع ذلك فان الدولة لم تتمسع تطور الديانة الشعبية بل حاولت ان تعايش بين دين الدولة الذي هو دين المدينة ودين الزنق الذي يتمثل في عبادة الاولياء " حيث ان التعميش الرمزي للديانة الشعبية لم يتبعه اي اجراء قانوني ذو طابع قهري " (٢) وهذا ما نلمسه عبر تصريحات الموظفين الدينيين السامين في الدولة والذين تكونوا في معظمهم في كنف جمعية العلماء او كانوا مقربين لها وهذه اجوبة لهؤلاء عن سؤال طرحه نور الدين طوالبي في بحثه المعنون " الدين الطقوس والتغيرات " الى كل من وزير الشؤون الدينية ورئيس المجلس الاسلامي الاعلى وذلك سنة ١٩٨٠

وكان السؤال كالتالي :

- يبدو انه منذ الاستقلال (٣) لاحظنا عودة بعض النشاطات الطقسية والدينية والتي يقال عنها في اماكن اخرى انها مختلفة للعقيدة الاسلامية ونقصد بالخصوص الوعادي ، النشرات والزردات .

ماهو رأيكم في ذلك

فكان جواب الوزير كالاتي :

" هذه الممارسات حاربتها الحركة الاصلاحية منذ نشأت الثورة الجزائرية اوقفتها لمخالفتها لرسالة القرآن من جهة وعرقلتها لفعالية الكفاح المسلح فظهورها بعد الاستقلال مؤشر للامبالات من قبل السلطة الدينية الادارة الوزارية ستعمل كل ما في وسعها لقطع الطريق امام هذا الميول الدخيلي المفسد " (٤) . وعلى نفس السؤال اجاب السيد رئيس المجلس الاسلامي الاعلى .

" كل هذا بدعة ، كما هو الحال كذلك بالنسبة لبعض الممارسات المنسوبة الى الدين كالابتهالات والرقصات داخل المساجد وبناء الاضرحة على القبور والدعاء للاموات الخ ..." (٥)

١- وهذا منصوص عليه كمادة اساسية في دستور البلاد.

٢- FANNY COLLONA, Savants paysans, OP. cit, P. 176

٣- اخبار متداولة بيننا هالي منطقة سعيدة مفادها ان المعمرين كانوا يقيمون الوعادي لصالح الفلاحين والعاملين في المزارع حتى اثناء حرب التحرير

٤- Noureddine Touabi, Religion, rites et mutation, OP. cit, P. 279

٥- Ibid, P. 283

وعن الوزردة يضيف رئيس المجلس الاسلامي الاعلى " يظن المنظمون لهذه التظاهرات انهم بقيامهم بذلك عند الضريح بالمدح والرقص انهم يتقربون من الله . ولكن هذه البدعة زيادة على ذلك فان الطعام المستهلك بهذه المناسبة غير جائز والسبب في ذلك ان الاضحيات لم تذبح قربانا لله بل لوسائط مزعومة (الاولياء) بين الله والعباد " -١-

واذا كان الاسلام الرسمي يستجيب الممارسة الدينية الشعبية والمتمثلة في عبادة الاولياء والطقوس المواداة بمناسبة ذلك . فان حركات دينية اخرى تدعو الى العودة الى الاصول ، ترفض وتحارب بالعنف هذه الظاهرة حيث ظهرت في وسط الثمانينات جماعات تهدم وتحطم اضرحة الاولياء في الريف وتدعو الى محاربة عبادة الاولياء كاشكال من الوثنية التي اتى الاسلام لمحاربتها ح

وخلاصة القول ان الدين الرسمي والمتمثل في المدافعين عن حرفية النصوص من قرآن وسنة يرفض جملة وتفصيلا الممارسات المتعلقة بممارسة الاولياء والخلفية الفلسفية المستندة اليها وهي التصوف وخاصة منهم الاتجاه الحنبلي مثل ابن تيمية الذي ركزنا عليه تحليلنا . ان كل المعادين لهذه الديانة الشعبية وهابيين واصلاحيين جزائريين يستوحون مواقفهم الدينية من مواقف هذا الامام وذلك اصلا لمعلمه الامام ابن حنبل الذي كان من اشد المعارضين والرافضين لاي حجة عقلية تمس موضوع الدين وخاصة عند دخول الفلسفات اليونانية الفضاء الثقافي الاسلامي وتطور التصوف فكان ابن حنبل يرد دائما بآيات قرآنية وبطبق الصمت .

١- Ibidem

٢- انظر دي لاسي اوليري - مرجع سابق . انظر ايضا حسين مروة ، النزعات المادية في الفلسفة العربية الاسلامية . الجزء ٢ دار الفرابي بيروت ١٩٧٨

يظهر عبر ما درسنا انه تحققت المقولة المعروفة "بان الثقافة هي اجابة محلية لمشكل كوني" لقد لاحظنا عبر ما مر معنا مسألة الخصوصية هي شيء لايمكن ان يتحقق حيث ان الطبيعة الانسانية للواقعة في اعمق وجدان الانسان عبر بنى عميقة تشكل أم كل (١) البنى الناشئة عبر تفاعل الانسان مع المجتمع والتاريخ. فالبنية الموت لاموت الكامنة في الجهاز النفسي تولدت عنها بنى اخرى:
موت / ميلاد جديد . ليس / طلب . الانسان / القرين . والتي ماهي الا ترجمة للبنية الاولى والتي تتجلى عبرهم في اي سلوك طقسي يمارس بمناسبة الموت حيث تعمل الانسانية في كل المجتمعات على تحقيق الخلود لاموتها تنتظم كل سلوكاتها ازاء الاموات حول هذه البنية الام .
فبنية الموت / ميلاد جديد ينتظم حولها كل طقوس المرور التي تطبع حياة الفرد في منطقة سعيدة حيث انه ابتداء من الولادة و"السمية" مرورا بالختان حتى الزواج هي عبارة عن مراحل لموت رمزي وميلاد ثان تتبدل على اثره مكانة الفرد الاجتماعية حتى الموت حيث يغسل ويطهر ويدفن لتحضير لميلاد اخر في حياة اخرى وتأخذ عملية التطهير هذه طابعا كونيا . كما تدخل في هذا المجال صور ورموز للامومة الاولى عبر الارض، الماء وضعية الجنين عند دفن الميت لا رمي الرماد الناتج عن حرق الجثة في المياه المقدسة (نهر الغانج بالهند) . رمي الجثة في البحر مثلما هو الحال عند شعوب البحر . وقد رأينا كذلك كيف تقوم نساء الابورجين بالانحناء بأثدائها ونفخ الهواء باتجاه رأسه تكرارا للطفولة الاولى قبل الفطام .

ونفس الشيء بالنسبة لظاهرة تألم المرأة الشديد للموت حيث يتزاورن عندما تحدث اي موت ويبكين جماعات هذا التألم يعود ربما لأنهن اللواتي يمنحن الحياة، واكثرهن تألما لفقدانها .(٢)

١- Dan Sperber, "Contre certains a priori anthropologiques", IN: Pour une anthropologie fondamentale. 3, Op cit, P. 28

٢- مثال على ذلك التجمع النسوي الذي اقامته مئات النسوة امام قصر الحكومة كرد فعل على اعمال العنف التي استهدفت مدنيين قتلوا من قبل جماعات مسلحة
المصدر: وسائل الاعلام المكتوبة، المرئية، والمسموعة.

والبنية الثانية وهي ليس / صلب بنية تبين الانتقال من البشرة الزائلة الى العظم او الرماد عن طريق التعفن او الحرق او التجفيف او كما الحال عند سكان المناطق الباردة انتقال الجثة من حالتها الطبيعية الى التجمد عن طريق الجليد . وهي تترجم الانتقال من الموت الى الحياة الخالدة (البنيد الام) حيث تعتبر البشرة رمز للفناء والموت وبقاء العظم الرماد او الجثة المجففة او الجامدة رمز للخلود والبقاء كما انه لايكتفي بذلك في حالة الدفن فان العظام حتى ولو بقيت فترة معينة من الزمن فانها تبقى مغمورة تحت التراب ولكن توضع على القبر حجارة او ما يسمى " بالقبرية " كعنصر صلب يعوض العظم .

كما ان الانتقال من اللين الى الصلب هو ضمان لرحلة الميت الى العالم الاخر . وبالتالي فانها عنصر مزيوكولوجيا الاحياء تجاه الميت فالصلب يطمئن على ضمان انتقال روح أو قرين المتوفى الى حياة يرجو الاحياء ان تكون سعيدة بالنسبة لفقيدهم .

وفي الفصل الثاني لاحظنا كيف ان البنية الام يتولد عنها بنية اخرى وهي الانسان / القرين .
التصور الاول الكوني لمعضية الانسان فلكل شخص قرين القرين هو نسخة للانسان ولكن على شكل طل اوطيف فاذا كان الانسان مادي فان قرينه روحي مجرد هذا التصور الكوني الذي يجعل لكل شخص قرين مستقل قد يصل مستواه الى حد الالوهة اذا كانت لديه مكانة اجتماعية وسلطة روحية على الجماعة فانه في عالم الاجداد يتخذ صفة الاله ولكن القرين الشبح الطيف تعوضه بعد مجيء الديانات الكتابية الروح مفهوم مجرد لاصورة لها . ولاشكل وهي ليست مستقلة بل خلقها الله وهو المتحكم في مصيرها . ولكن لاحظنا كيف ان هذا التصور كان بعيدا عن فهم الاهالي (المغرب العربي عامة) مع مجيء الاسلام .
وبقي هؤلاء يؤمنون بالقرين لظروف ثقافية كونها أقرب للاستيعاب من عقل الفلاح البسيط ثانيا التنظيم القبلي الذي يفرض على كل قبيلة جدها الذي يحكم مصيرها في استقلاليتها عن باقي التنظيمات القبيلة الاخرى . فرض هذا الفهم البسيط المتجذر في التاريخ لان مفهوم الاله الواحد الذي يقضي على كل آلهة منافسة لايمكن يلج عقل الانسان القبلي بكل ابعاده الوحدوية للامة لذا وقفت العقلية الريفية بين قداسة جد يلعب الوسيط بين الانسان والجماعة والله الواحد بعدما كان الجد في القديم هو الاله بدون منازع .

ان لأي معرفة نهائية ،ليست مطلقة . فلا ندعي اننا وصلنا الى اجابة نهائية على الاشكالية التي طرحناها سابقا ،فكل نتاج معرفي قابل للنقاش والدحض والنقد ،الا اننا في حدود معرفتنا :
حاولنا بكل ما أوتينا للوصول الى بعض النتائج والتي لانعتبرها نهائية . لاننا صراحة خضنا في موضوع معقد وصعب من حيث انه يجد كل المعارف الانسانية في سبيل معرفة اوجهه

لقد تبدى لنا عند دراستنا للموت في الاسلام فان التصور الذي يأتي به الاسلام حول الموت . ماهو الا متغير للثابت الذي يتجسد في البنية الكونية موت/ ميلاد جديد ـ الانسان / القرين متغير نعتبره من الوجهة التاريخية اكثر تقدما من للمتغير الذي تتجسد فيه هذه البنية وهو الاعتقاد في القرين الذي يمثل الاعتقاد الاول في الموت والحياة الثانية وكذلك الموت ومحاولة مجابهتها بالتعالي عليها عن طريق التمثيل الرمزي لعناصر الولادة الأم . وكل ما تمثلة من خصوبة الخ . لكن الاسلام في رأينا كدين يستعمل بكل فعالية الموت ليودلجها مدمجا اياها كعنصر ضابط لسلوك الانسان في المجتمع ازاء المؤسسة وذلك باستعمال مفهوم الحساب والعقاب بصفة مزدوجة والتي تختلف عن استعمالها في الديانات الكتابية أو الكونية . مثل اليهودية والمسيحية حيث ان الحساب والعقاب يأتي بعد القيامة او الفناء النهائي للعالم حين يجمع البشر ليلقوا حساب الله الاخير . وهنا لايختلف كثيرا عن الاسلام لكن خصوصية هذا الاخير انه ينجم الحساب والعقاب قبل الفناء الاخير . وذلك بعد للموت الفرد مباشرة الشيء الذي لانجده في الديانتين الاخرتين ومرد ذلك في رأينا هو ضرورة الترهيب الذي يمارسه الاسلام على المؤمن والتي مفادها ان الموت تستطيع ان تضرب بالاذن الالهي في اي لحظة يأتي الحساب بعد الموت مباشرة وهذا مايسمى بعذاب القبر.

اذا الانسان في الاسلام معرض للعقاب والحساب في اقرب الاجال عكس الديانات الاخرى التي توجله بعد الفناء النهائي لتكتفي بذلك .
ويكون عند ذلك هذا الخطاب المرتبط بمصير الانسان بعد الموت قليل

قليل التأثير على البشر في بلورة سلوكاتهم حسب التعاليم التي نحملها. بينما الاسلام وجد له سلاما فعالا لتحريض الناس على السلوك حسب ما توصي به تعاليمه. حيث ان الموت تبقى الحاضر المخيف الرهيب الذي يمنح السلوك الاجتماعي للافراد باتجاه الاستقامة والما تأمر به المؤسسة الاخلاقية والدينية والسياسية. وهذا يلزم الانسان بممارسة حساب اقتصادي حقيقي من الاستزادة والانتقاص ومراكمة الاعمال او الاعمال التي يراها الدين خيرة وباتجاه ارادة الله حيث تقسم الاعمال حسب اهميتها وتقاس لكل مقدار ما يدره على صاحبه من اجر.

فالمسلم يعمل على تراكم رأس مال من الاجور يسمح له بمواجهة الحساب الاخير وبقدر هذا الرأسمال يكون موقفه من الموت مستسلما وراضيا اوقلقا خائفا. وهذا القلق وهذا الرضى ليس بالموت ذاتها بل ما يلحقها من هول العذاب او لذة ما يلقاه اذا كان مؤمنا. وتكون بالتالي هذه الفكرة الاولى المستخلصة من البحث.

ثانيا: لقد قمنا بمقارنة حول أزمة الموت في الغرب وأزمة الموت في المجتمع الجزائري من وجهة النظر التاريخية في كلا المجتمعين فاذا كانت ازمة الموت في الغرب نتاجا لتسلط منطق سياسي واقتصادي مبني على عقلانية السيطرة والتنظيم لقاعدة فئة تقود المجتمع وتسيطر على موارده الاقتصادية عن طريق سحق حرية هذا الفرد وتطلعاته بتدجين غرائزه لحد الاستعباد وباسم العقلانية التي ابتعدت بالفردية الى حدود التميع. حيث اصبح الفرد ليس تلك الطاقة الابداعية والخلاقة التي تغنت بها الايديولوجية الليبرالية بل مجرد آلة تنخرها الضرورة الاقتصادية حتى اصبحت كيانا معرضا لكل انواع القلق لغياب العلاقات الاجتماعية الحارة والتي تشكل مقر الامان والاحساس بالحياة الانسانية حيث غدا الانسان ضحية للتوحد والوحدة القاتلة عاريا امام مصير حياتي مبني على الغلبة والتنافس القاسي الذي لايرحم.

وباختصار ساد الاستيلاب والخوف من المصير الاخير اي الخوف من الموت. وهذه الوضعية من التميع الشخصية الانسانية وحرمانها من تقرير مصيرها واختيار حياتها تجاه السعادة حيث حرم الفرد

الفرد من حريته وارادته هذا ما اطلق عليه لوى . ف طوما بالموت الاجتماعي . نفس الظاهرة نلاحظها في المجتمع الجزائري لكن اسبابها وميكانيزماتها مختلفة عما هي في الغرب . حيث ان بلدان العالم الثالث من بينها الجزائر عند خروجها من حقبة الاستعمار بادرت بتطوير مجتمعاتها استنادا على النموذج الاوربي بمحاولة عصرنة كل اوجه الحياة بادخال موسسات جديدة عصرية واقتصاد مبني على التقنيات المتطورة وهذا ما اصطلح عليه بالتنمية والتي تميزها العصرنة المبنية على تكويس الفردية .

ان عملية العصرنة في الجزائر لم تسبقها دراسة لخصوصية المجتمع بناه التحتية والفوقية حتى يتم تعويض البنى المراد تحطيمها بصفة عقلانية وعلمية اى ان ادخال العصرنة الى مجتمع مثل مجتمعنا يجب ان تستعمل ادوات هذه العصرنة ذاتها اى العقلنة والعلم وفي غياب هذين العنصرين فان تقييم التنمية في الجزائر هو كارثة اذ ان عملية التنمية والموسسات التي ادخلت لاعادة تنظيم المجتمع فشلت في بلوغ هدفها . وهو قيام مجتمع مبني على العقلانة والعمل الانتاجي . والشيء الذي حدث عن عملية التنمية الفوضوية حطمت الاطر الاجتماعية المحلية ، وهي المجموعة القبلية والعائلة الموسعة والتي كانت مكان ترعرع الفرد الذي لاوجود له الا عبر هذه المجموعات وعند ذلك اخرجته الى اطر اخرى لم يحضره المجتمع للاندماج فيها المدرسة المصنع وكل ما يلحقه من عناصر القهر التي تمارس عليه وبقي حبيس منطق يجهله .

فالمدرسة لم تنجح في تكوينه والمصنع لم ينجح في اعطاءه وسائل العيش فساد قالبطالة والاستيلاب الجماعي في وسط موسسات وثقافة تكرس غربة الفرد فشلت المدينة التي هي مركز العصرنة في رعاية الفرد وساد اليأس من حياة صعبة اكثر فأكثر . فنسي الفرد الوسائل الرمزية التي تجعل الحياة لهوا وغرور والآخرة خير وابقى ،

واصبحت الحياة بعد ذاتها وسط عالم من التنافس الذي لايرحم في مجتمع لايعطي الفرحة لكل الناس واصبح القلق ازاء الموت قائما بكل ثقله واذكر حديثا اجريته مع شاب بطال اذ قال لي: " اريد ان اعيش حياتي كما اريد وبكل تفاصيلها حتى لايدركني الموت وانا لم اعش بعد " وكان يقصد بذلك ان العمل هو الذي يعطيه حرية التصرف في حياته كما يريد وهذه أزمة القرى ازاء الحياة ماهي الا ازمة ازاء الموت وكانت نتيجة ذلك الانزواء في ترمت ديني عصابي ينادي بالعنف هذا العنف بالمفهوم الفرويدي الذي ما هو الا قذف بالموت من داخل الفرد لما يمارسها ضد الاخر بالعنف وذلك بالعيش في وسط جماعات سياسية وايديولوجيا يجد فيها الفرد مكنا لقلقه وحيرته تعويض بالاطر الجماعية التي فقدها .

واختار توصلنا الى فرضية حول أزمة العصرنة وهي :

ان العصرنة است الفردية اذ اخرجت الفرد في الاطار الجماعي الذي تسود العلاقات الدموية العاطفية الحارة كانت تحميه . الى موسسات لاشخصية تسودها علاقات جافة لم يعطيه فيها المجتمع فرص الاندماج والاستفادة من مزاياها المادية والروحية وكان نتيجة ذلك رفض للعصرنة المرادفة للاغتراب والعودة الى الجماعية الاولى على شكل جماعات ضغط دفاعا عن ماضي بائد ورفض العصرنة وكل ما يمت اليها من صلة .

ثالثا : الفكرة الثالثة المستخلصة وهي ان معتقدات وطقوس الموت هي محل صراع بين ثقافة رسمية او عالمة يوطرها الدين الاسلامي وثقافة شفوية تستند الى الذاكرة الشعبية وهي طقوس ومعتقدات متداولة عبر اجيال كثيرة ، ولازالت حية وقوية رغم تعاليم البيانة الارتودكسية فجل المفاهيم التي جاء بها الاسلام الرسمي حول الموت لاقت مقاومة من قبل التصور الشعبي للموت ففي الاوساط الشعبية وخاصة منها الريفية لاتطبق تعاليم الدين بمناسبة الجنازة الا بحضور "الطالب" الممثل للدين الرسمي . الذي ترعاه الزاوية فهو يتابع كل الخطوات الخاصة بالتغسيل ، التحنيط الصلاة والدفن لكن تبقى باقي الممارسات الطقسية حكرا على النساء حيث لاتدخل للرجل في ممارستهن ازاء الميت ونظن ان التسامح من جانب الدين الرسمي راجع لعدم تحكمه في هذه الممارسات لانه لم يستطيع ان يقنع الاهالي بمفهوم

بمفهوم الروح البالغ في التجريد ، وبقي على اثر ذلك مفهوم القرين قائما . فمفهوم الروح يجعل هذه الأخيرة تصعد الى جوار الله ولاتعود الا بعد الدفن لاجل حساب القبر وتبقى في القبر حتى القيامة بينما مفهوم القرين الذي يلقى فكرة الله هو نسخة من الميت لاترى وتبقى هائمة في عالم الاحياء لاتفارق حتى يدفن الميت ليلتحق القرين بعالم الاجداد وهذا يحدد مدة الحداد لان هذا الاخير المعبر عن الاحساس بالذنب لاينتهي الا في ال حدود الاربعين يوما حيث يحرر القرين بعد تفسخ الجثة لينفصل تماما عن عالم الاحياء ، باتجاه الاستقرار في عالم الاجداد ومفهوم القرين هو المحور الاساسي في عبادة الاموات هذه السيادة التي اقترنت مع تصور صوفي لاسلام متسامح لتجدد كل سلوكات عبادة الاولياء كديانة فلاحية مرتبطة بالعالم الريفي والتي لم يستطيع الدين الرسمي القضاء عليها لارتباطها بكل اوجه النشاط الاجتماعي والاقتصادي .

وتتجلى عبر هذا الاندماج لمفيدتين ظاهرة سماها الانثاريون بالاستيلاف الثقافي والتي يعبر عنها بواس فرانتز بما يلي " العناصر الغريبة يعاد تشكيلها حسب " النموذج " الثقافي للثقافة التي تستقبله تحت ضغط قوى داخلية تميزها " (١)

وهذه الفكرة تنطبق تماما على ما قلناه حول عبادة الاولياء حيث ان الاسلام لما اتى بمفهوم الله الاله الواحد والروح وعند نخوله ارض المغرب والجزائر خاصة لم يكن من السهل لديه .

فرض هذا المعتقد على الاهالي على حساب معتقداتهم القديمة ويذكر المؤرخون ان الفاتحين كانوا متسامحين مع القلة القليلة من اليهود والمسيحيين بينما كان يحارب الوثنيون المعتقدين في عبادة الاجداد وخاصة في الارياف حيث كانت أسلمة المغرب بطيئة وتحت ضغط الحروب قبلوا بفكرة الله ورفضوا مفهوم الروح لصعوبة فهمه او رفضه لان الاعتقاد في القرين كان اقوى من ذلك ونتج عن ذلك استيلاف عنصر الله الواحد دون التفريط في قدسية الاجداد حيث اصبح الاجداد وسائط بين المومنين والله . ولم يحدث هذا الاندماج بين عقيدتين دون صراع بين ديانة رسمية ممثلة لخطاب الفاتحين الداخلين وموكدة لسلطتهم وخطاب يوطر هوية ثقافية عبرها عبر الاهالي عن سلطة لازال الريف يملكها لحد الساعة .

١- Paul Mercier, " le changement social et culturel", In: Ethnologie Generale, Encyclopedie de la pleade, op.cite, P. 1010

-المـــــراجع باللغـــــة العـــربيـــة-

١- ابوزيد القيرواني الرسـالة ط٢ المنشورات الشعبية للجيش الجزائر ١٩٧٥.

٢- ابو عبدالرحمان السلمي طبقات الصوفية دار التاليف القاهرة ١٩٦٨

٣- البير كامو الانسان المتمرد دار النشر عويدات ط٢ باريس-١٩٨٠.

٤- ابوعبيد البكري المغرب في بلاد افريقية والمغرب ترجمة دي سلان باريس ١٩٦٥.

٥- ابو يعلى الحنبلي كتاب المعتمد في اصول الدين دار المشرق بيروت ١٩٨٦.

٦- احمد بن الشيخ بن نجيم المصري شرح رسالة الكبائر والصغائر تحقيق الشيخ خليل الميس دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨١.

٧- ابن سينا الاشارات و التنبيهات ج٢ ، القصيدة حول النفس ، دار المعارف المصرية ، القاهرة ١٩٧١.

٨- ابن رشد تهافت التهافت ج٢ دار المعارف المصرية القاهرة ١٩٧١.

٩- ابن حجر المكي الهيتمي كتاب الافصاح عن احاديث النكاح دار الشهاب الجزائر بدون تاريخ.

١٠- ابن القيم الجوزية تحفة المودود باحكام المولود

١١- الروح في الكلام من ارواح الاموات و الاحياء دار الكتب العلمية بيروت ١٩٧٩.

١٢- ابن تيمية الفرقان بين اولياء الرحمان واولياء الشيطان دار الكتب العلمية بدون تاريخ.

١٣- مجموع فتاوي بن تيمية مكتبة المعارف الرباط بدون تاريخ.

١٤ـ بلاثيوس اسين، ابن عربي، ديوان المطبوعات دار القلم، الكويت ١٩٨١.

١٥ـ ابن كثير، تفسير بن كثير ج٣، دار الاندلس، بيروت ١٩٨١.

١٦ـ جاك شورون، الموت في الفكر الغربي، مكتبة المعارف، الكويت، ١٩٨١.

١٧ـ حسن رمضان فحلة، الحكم الجائز في تشييع الجنائز.

١٨ـ دي لاسي اوليري، الفكر العربي و مركزه في التاريخ، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٨٠.

١٩ـ صموئيل نوح كريمر، السومريون تاريخهم و حضارتهم و خصائصهم، ترجمة فيصل الوائلي، وكالة المطبوعات، بدون تاريخ.

٢٠ـ اساطير العالم القديم، الهيئة المصرية للكتاب القاهرة ١٩٧٤.

٢١ـ صموئيل هنري هوك، منعطف المخيلة البشرية، تر صبحي حديدي، دار الحوار، اللاذقية ١٩٨٣.

٢٢ـ السيد سابق، فقه السنة المجلد ١، دار الكتاب العربي، بيروت، بدون تاريخ.

٢٣. عبد القوي عبد العظيم المنذري، الترغيب و الترهيب في الحديث الشريف، ج٤، دار احياء التراث، بيروت ١٩٦٨.

٢٤ـ علي بن محمد الوليد، تاج العقائد و معدن الفوائد، دار المشرق بيروت ١٩٦٨.

٢٥ـ عبد الرحمان مرحبا، من الفلسفة اليونانية الى الفلسفة الاسلامية ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ١٩٨٣.

٢٦ـ عمر سليمان الاشقر، القيامة الصغرى ـ اليوم الاخر، قصر الكتاب البليدة ١٩٩٥.

٢٧ـ عبد المجيد مزيان، النظريات الاقتصادية عند بن خلدون، مذ و ن ت الجزائر ١٩٨١.

٢٨ـ الغزالي، احياء علوم الدين ج١، دار القلم للطباعة و النشر و التوزيع بيروت.

٣٩ـ ـ المنقذ من الظلال، المكتبة الشرقية، بيروت ١٩٦٩.

٣٠ـ ـ معارج القدس في مدارج معرفة النفس، دار الشهاب، الجزائر ١٩٨٩.

٣١ـ فرويد، معالم التحليل النفسي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٥.

٣٢ـ اللانا و الهو ،تر. محمد عثمان النجاتي ، ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر ،١٩٨٥.

٣٣ـ الكف و العرض و القلق ،تر. محمد عثمان الساغاتي ،ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر ،١٩٨٥.

٣٤ـ فيلهالم رايش ،المادية الجدلية و الحليل النفسي ،تر. بوعلي ياسين ،دار الحداثة ،بيروت ، ١٩٨٠.

٣٥ـ محمد يوسف الزيابي ،دليل الحيران و انيس السهران في اخبار مدينة وهران ، ش.و.ن.ت ،الجزائر ،١٩٧٩.

٣٦ـ محمد البشير الابراهيمي ،عيون البصائر ،ش.و.ن.ت ،الجزائر ،١٩٧٨.

٣٧ـ مصطفى غرابي ،تاريخ الفرق الاسلامية ،مطبعة علي صبح ،القاهرة ، ١٩٥٩.

٣٨ـ محمد جعفر زين ،التكنولوجيا و الدولة ،دار الفارابي ،بيروت ،١٩٨٥.

٣٩ـ ناصر الدين سعيدوني ،دراسات و ابحاث في تاريخ الجزائر ،المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر ،١٩٨٠.

٤٠ـ نور الدين طوالبي ،اكالية المقدس ،تر. وجيه البهيمي ،عويدات ،المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر ،١٩٨٠.

٤١ـ وهبة الزحيلي ،الفقه الاسلامي و ادلته ،ج٢ ،دار الفكر العربي ،دمشق ، ١٩٨٥.

مراجع اخرى.

٤٢ـ مجلة التراث الشعبي ،وزارة الثقافة العراقية ،العدد الرابع ، السنة ٩ ،بغداد ،١٩٧٨.

٤٣ـ دراسات عربية ، العدد ٣ـ ،دار الطليعة ،بيروت ،١٩٨٩.

٤٥ـ لسان العرب.

٤٦ـ التوراة.

- المـــــــراجـــع باللـــغـــة الاجنبية -

١ - ABDELHAMID BENACHENOU, Connaissance du MAGHREB.
Imp.de l'armée, Alger 1971.

٢ - ABDELHAMID MERRAD BOUDIA, La formation Algérienne précoloniale.
OPU Alger 1999.

٣ - ALI MERRAD, Le réformisme musulmans en Algérie de 1925 à 1940
Mouton & co. Lahaye PARIS 1964.

٤ - ABDELGHANI MAGHERBI, Culture et personnalité algérienne de Massinissa
à nos jours. ENAL .OPU Alger 1986.

٥ - ABDELRAHMANE EL-JAMI , Vie des soufis.
Trad. Sylvestre de Saly SINDBAD PARIS 1977.

٦ - ABDELKEBIR KATIBI , Vomito blanco
UGE 10-18 PARIS.

٧ - ABDERRAHMANE BADAOUI, L'histoire de la philosophie en Islam.
J.Vrin PARIS 1972.

٨ - A.PELKIN, Les aborigenes Australiens.
N.R.F Gallimard PARIS 1968 .

٩ - ANDRE LE GALL, L'anxiété et l'angoisse.
PUF PARIS 1978.

١٠ - AVICENNE, Directives et remarques.
J.Vrin PARIS 1951

١١ - BLASCO IBANEZ, Le voyage d'un romancier autour du monde II.
Flammarion PARIS 1947.

١٢ - BRUNO BATTELHEIM. Le coeur conscient.
Robert laffont PARIS 1970.

١٣ - CAMILLE LACOSTE DU JARDIN, -Le conte Kabyle étude ethnologique.
Bouchene ALGER 1991.
-Des mères contre les femmes .
Bouchene ALGER 1991.

١٤ - CARL GUSTAVE Jung-Essai d'exploitation de l'Inconscient.
Dencel PARIS 1971.
-L'homme à la découverte de son âme.
Pbp PARIS 1971.

١٥ - DOMINIQUE SOURDEL. L'islam médiéval.
PUF PARIS 1979.

١٦ - EDGAR MORIN. L'homme et la mort .
ed.du seuil PARIS 1976.

١٧ - EDGAR MORIN-MASSIMO PIETELLI PALMARINI, Introduction à une antro-
pologie fondamentale T3 .
Ed. du seuil PARIS 1970.

١٨ - EL BOUKHARI,Traditions islamique .
Maisonneuve PARIS 1978.

١٩ - EMMANUEL MOUNIER,Malroux Camus Sardre.
Bernanos , ed. du seuil PARIS 1970.

٢٠ - ERICH FROMM,La crise de la psychanalyse.
Denoel PARIS 1971.

٢١ - EVA VITRAY MEYEROVITCH,Antologie du soufisme .
SINDBAD PARIS 1978.

٢٢ - FANNY COLLONA,Les savants paysans - Essai d'histoire culturelle
et sociale de l'algerie.
OPU ALGER 1987.

٢٣ - FATIMA KADARIA KADRA,Les Djaddars.
ENAL ALGER 1983.

٢٤ - FRANCO FORMARI,Psychanalyse de la situation atomique.
Gallimard PARIS 1969.

٢٥ - FREDERICH NIESCHE,Le crépuscule des idoles .
Denoel PARIS 1973.

٢٦ - FREUD ,Nouvelles conférance sur la Psychanalyse.
Gallimards PARIS 1976.

٢٧ - FREUD ,Totem et Tabou.
Pbp PARIS 1983.

٢٨ - DR FRED BLANCHOT, Dans l'asie des hommes bruns.
Librairie PAYOT Lausanne 1947.

٢٩ - GABRIEL CAMPS -Manuel de recherches préhistoriques.
Doin PARIS 1981.

-Aux origines de la berberie,Monument et rites protohistoriques.
M.A.M. PARIS 1962.

٣٠ - GEORGE BALAUDIER,Anthropologie politique.
PUF PARIS 1978.

٣١ - GEORGE BATAILLE,L'érotisme.
10/18 U.G.E,PARIS 1965.

٣٢ - GHEZA ROHEIM,Psychanalyse et antropologie.
Gallimard,PARIS 1985.

٣٣ – LOUIS VINCENT THOMAS,-Mort et Pouvoir.
PbP PARIS 1978.
-Le cadavre de la biologie à l'anthropologie.
Ed. Complexe Bruxelles 1981.
-L'anthropologie de la mort.
PUF, PARIS 1987.

٣٤ – LUC DE HEUSCH, Le roi ivre ou l'origine de l'état.
Gallimard, PARIS 1972.

٣٥ – MALEK CHEBEL, Le corps dans les traditions Maghrebines.
PUF PARIS 1983.

٣٦ – MARCEL BOISSARD, L'humanisme de l'Islam.
Albin Michel PARIS 1979.

٣٧ – MARCEL MAUSS, Elements de sociologie.
Ed.du seuil PARIS 1968.

٣٨ – MICHEL CARTIER, Ce que REICH a vraiment dit.
Denoël PARIS 1974.

٣٩ – MIRCEA ELIADE,-Images et symboles.
Gallimard PARIS 1972.
-Nostalgie des origines.
Gallimard PARIS 1978.

٤٠ – MONTAIGNE, Oeuvres complètes.
Gallimard PARIS 1962.

٤١ – MOSTFA LACHERAF, Algerie nation et société.
SNED ALGER 1978.

٤٢ – MOHAMED ARKOUN, La pensée arabe.
PUF PARIS 1985.

٤٣ – NAFISSA ZERDOUMI, Enfants d'hier.
Maspero, PARIS 1982.

٤٤ – NOURREDINE TOUALBI,-La circoncision, blessure narcissique ou promotion sociale.
SNED ALGER 1975.
-Religion rites et mutations.
ENAL ALGER 1983.
-Le sacré ambigu.
ENAL ALGER 1984.

٤٥ – OSMANE CHAHINE, Onthologie et théologie chez Avicenne.
Maisonneuve PARIS 1962.

٤٦ – PAUL DIEL, La divinité.
Pbr PARIS 1965.

٤٧ –PHILLIPE SERINGE, Le symbolisme dans l'art,la religion et dans la vie de tous les jours.
Helios, Geneuve 1985.

٤٨ – PIERRE BOURDIEU , Algérie 60 .
Ed. de Minuit , PARIS 1977.

٤٩ – PIERRE HENRI SIMON , L'homme en procès,Malraux,Sartre,Camus, Saint-exupery.
PbP PARIS 1973.

٥٠ – RICHARD DUMARCY , Eléments d'une sociologie du spectacle.
Ed. U.G.E. PARIS 1973.

٥١ – RICHARD RUBENSTEIN , L'imagination religieuse .
Gallimard PARIS 1971.

٥٢ – ROBERT FAVRE , La mort au siecle des lumières .
P.U.L Lyon 1978 .

٥٣ – ROGER CAILLOIS , L'homme et le sacré.
Gallimard , PARIS 1972.

٥٤ – RUDOLPH OTTO , Le sacré .
Gallimard , PARIS 1969.

٥٥ – VIVIANA PAQUES , Larbre cosmique dans la pensée populaire du sud-ouest africain .
Institut d'ethnologie . PARIS 1964.

٥٦ – WILHELM REICH ,-Psychologie de masse du fascisme.
PbP , PARIS 1977.
-L'Irruption de la morale sexuelle .
PbP PARIS 1977.

٥٧ – Y.E.BAMUNOBA et ADOKONOU, La mort dans la vie africaine, Présence africaine .
UNESCO , PARIS 1979.

٥٨ – YVONNE TURENNE , Affrontements culturels dans l'algérie coloniale,économie,medecine et religion 1830-1880.
Maspero , PARIS 1979.

ـ الفهـــــــرس ـ

ـ مقـــدمة عـــامـــة ـ

ا ـ طـــرح المشكلة : .....ص ا .
ب ـ المعـــالجة المنهجية : .....ص ١٣ .

ـ البـــــاب الاول ـ

ـ الموت بين حضارتين الاسلام و الغـــرب .

ـ مقـــدمـــة : .....ص ٢٤ .

الفـــصل الاول .

ـ صورة الموت في الثقافة الاسلامية :

ـ الفرع الاول .

ـ مفهوم الموت في الفرق القديم : .....ص ٢٥ .
ـ اصـــل المـــــوت : .....ص ٢٦ .
ـ الموت في الاســـــلام : .....ص ٢٨ .

ـ الفرع الثاني .

ـ عـــذاب القـــبـــر : .....ص ٣٢ .

ـ سؤال القبر كما اتى به الاسلام
وما تعرف عنه العـــامـــة : .....ص ٤٥ .

ـ فكرة عذاب القبر في الديانات الكتابية
اليهوديـــــة و النصـــرانية : .....ص ٤٨ .

ـ الفرع الثالث .

ـ ظاهرة الحســاب و المحاســبة : .....ص ٥١ .
ا ـ الديـــن لغـــويـــا : .....ص ٥١ .
ب ـ الكبائر و الصغـــائـــر : .....ص ٥٤ .
ج ـ المحاسبة و الحســـاب : .....ص ٦١ .
د ـ الجنـــة و النار و درجاتـــهما : .....ص ٦٨ .

- الفصل الثاني:
- أزمة الموت في المجتمع الحديث:
- الفرع الاول:
- دافع الموت/ دافع الحياة:.....ص ٧٤
- سوسيولوجيا الموت على ضوء نظرية الدوافع:.....ص ٨١
- الفرع الثاني:
- عناصر ازمة الموت في منطقة سعيدة:.....ص ١٠٨
- خلاصة الباب الاول:.....ص ١٢٦

- الباب الثاني:
- دراسة انثربلوجية لظاهرة الموت بمنطقة سعيدة:
- مقدمة:.....ص ١٣٠

- الفصل الثالث:
- دراسة ميدانية لظاهرة الموت بمنطقة سعيدة:
- الفرع الاول:
- مقاربة نظرية لمفهوم الطقس:.....ص ١٣٢
- دورة حياة الفرد في منطقة سعيدة:.....ص ١٤١
ا- الولادة:.....ص ١٤٦
ب- الختان:.....ص ١٤٩
ج- الزواج:.....ص ١٥٤
د- الممات:.....ص ١٥٨
- الفرع الثاني:
- اهم مراحل طقس الجنازة:
١- الاحتضار:.....ص ١٦٠
٢- التغسيل:.....ص ١٦١
٣- التكفين:.....ص ١٦٣
٤- تشييع الجنازة:.....ص ١٦٤
- كل البشر يطهرون موتاهم:.....ص ١٦٦

- اذا وضع الميت في القبر يتلفظ انسان تقي و قد وقف على قبره بعبارة
" يا ابن فلانة ": ص ١٧١
- منع عودة الميت الى الاحياء ظاهرة كونية: ص ١٧٦
- السؤال عن سبب الموت حاضر دوما عند اهالي منطقة سعيدة: ص ١٧٨
- كونية السؤال عن سبب الموت: ص ١٨٠
- الفرع الثالث.
للحداد كما يمارس في منطقة سعيدة: ص ١٨٤
- ظاهرة الحداد في الثقافات الاخرى: ص ١٨٦
- ورمزية العدد اربعين المرتبطة بالحداد: ص ١٩٤
- الفرع الرابع.
- ماوى الاموات المقبرة: ص ١٩٦
- القبر شكله ومواصفاته في منطقة سعيدة: ص ١٩٨
- القبر ملحقاته و مستلزماته بين المحلي و الكوني: ص ٢٠٢
- موقف الاسلام من الممارسات الطقسية التي سبق ذكرها: ص ٢١٠
- الفصل الرابع
- عبادة الاجداد في منطقة سعيدة.
- الفرع الاول.
- مقاربة نظرية لظاهرة عبادة الاجداد: ص ٢١٤
- مفهوم الروح في العقلية الشعبية: ص ٢١٩
- مفهوم الروح في الاسلام: ص ٢٢٦
- كونية ظاهرة القرين: ص ٢٤٦
- الفرع الثاني.
عبادة الاجداد في منطقة سعيدة: ص ٢٦٠
١- الزيارة: ص ٢٦٤
٢- الحفلات الموسمية: ص ٢٦٦
٣- العناصر المادية لعبادة الاجداد: ص ٢٧٤
- كونية عبادة الاجداد: ص ٢٥٣
- الرمزية المرتبطة بعبادة الاجداد: ص
١- الشكل المربع المضلع: ص ٢٧٤

- ٢: القبة ص٢٢٤
- ٣ القباب الصغيرة ص٢٢٥
- ٤ الحوطات ص٢٢٦
- ٥: الأشجار ص٢٢٦
- ٦ الأواني و وسائل الانارة ص٢٢٩
- ٧ القماش على الشجرة المقدسة ص٢٢٩
- الضريح بحث عن الكمال و التوازن ص٢٣١
- موقف الاسلام الرسمي من عبادة الاجداد ص٢٣٢
- خلاصة الباب الثاني ص٢٩٢

خلاصة عامة ص٢٩٤

- المراجع ص٢٩٩
- الفهرس ص٣٠٦